9 789756 153208

أتحاد مامورسان
نقابة موظفي التربية والتعليم

www.ebs.org.tr

بعد سنوات شاركت بإحدى الندوات في أحد أيام الصيف كمعلم.. كنت أعرف التي وقفت أمامنا من أجل أن تتحدث، لقد كانت معلمتي. كان ثمة نقاش ساخن وطويل وكان الجميع يدلي برأيه بخصوص موضوع "كيف يجب أن تكون طريقة التعليم وما الذي يجب فعله من أجل التغيير؟" رفعت يدي:

- معلمتي علينا أن نعلّم الطلبة كيف يكونوا سحباً.

- ماذا تقصد؟

- السحابة حين يحين وقتها تتكثف وتتوزع وتتكاثر وتستحيل أملاً وخبزاً. مثلنا كما ترون...

عرفتني معلمتي ودمعت عينها ، قالت بصوت مرتعد:

- رائع!

حاول الجميع فهم مانقوله وهم يظنون بأننا جننّا. كان لديهم سؤال واحد: "ماذا يعني أن تكون سحابة؟"

فيه التحوّل الحضري لمدينة هكّاري... كانت المعلمة تعلّق على كل منها: "هذا كذب" ونحن كنا نفضّل الصمت. متى سيأتي دور ورقتي؟ الأسئلة من قبيل: "لنر ما الذي ستقوله عن ورقتي" أقلقتني. لكني كنت عازماً هذه المرة على الدفاع عن نفسي. أخيراً... ورقة جراحي البريئة المتشحة بحزن أبيض في بؤبؤة عين طفل بريء ترك جائعاً... نظرت المعلمة إلى وجهي وابتسمت قائلة:

-أرهان، أشكرك. أنا أصّدق جملتك.

كان جسدي يتشرّب انتعاشاً هبط مباشرة على روحه من الوحدة المستقرة في حي بيرجلان. كان ذلك الجواب بمثابة تجلٍّ مفاجئ للحياة أثناء عدم توقّع حدوث شيء. كان هناك أشياء تتبرعم، نعم كانت هناك أشياء ترفض أن تموت... أضافت المعلمة:

- يا أصدقاء، إنه يقول 'ماتحسّ به السحابة عند قمة جبل السنبل'. هناك سحابة تنتظر عند قمة الجبل، هذا صحيح. سحابة مهيبة تقف هناك بنفسها وتشهد على المعجزة في خلقها. سحابة تنظر إلى الروعة فتخجل من نفسها وتسوّد متحولة إلى مطر حين يحين الوقت... سحابة هي نفسها الماء والخبز... سحابة هي الإلهام للشعر، والقمح للفلاح واللون للعشب. هل تنتظر تلك السحابة بلا هدف؟ لا! صديقكم يشبه نفسه بتلك السحابة. وأنا أؤيده من كل قلبي. ألسنا نحن أعظم سحب الدنيا التي نُذهل أمامها ونعجز عن التعبير؟ سحب مستعدة لأن تصبح مطراً وأن تتكاثر... أكبر دلائل الخلق الحية... لسبب ما لديكم قناعة أنكم لن تصبحوا شيئاً. انظروا، صديقكم رسم بحراً على ورقة في أحد الدروس الماضية. أليس البحر بمفهوم بعيد عنكم في هذا المكان؟ إذا كان قد عكس أحد أحلامكم على الورق ففكروا في مقدار الأشياء التي تستطيعون تحقيقها! هيا، حاولوا أن تكونوا سحباً من أجل أنفسكم.

دمعت عيني، حاولت ضبط نفسي لكني عجزت. فبكيت... خجلت في البداية ولكنني بكيت بارتياح بعد ذلك. قررت أن أصبح سحابة ذلك اليوم، كان ذلك في عام 1994...

أفدت أيامي جيداً وأصبحت معلمًا، بهذا الصمود والعزيمة أصبحت سحابة، من أجل أن أتكاثر وأمطر وأصبح أملاً وخبزاً وقمحاً...

أشعر أن الحصة التي كنت أرى دقائقها الأربعين كقنبلة ديناميت مثبتة على عقلي وقلبي قصيرة جداً؟ عليّ أن أظهر ردة فعل لما تقوله المعلمة. عليّ أن أسألها وأجادلها، وأثبت لها أنني أستطيع التفوّق عليها لو اضطر الأمر . ولكن كيف؟

في ذلك اليوم كنت قد سرحت مجدداً في مشاهدة حبيبي المرهف، جبل السنبل. كأن الثلج الذي على قمته يخفي تحته جراحي. الجبل المهيب الذي لاينزع خماره الأبيض عن رأسه.... كانت المعلمة تنظر إليّ. تنظر بشكل جعل شرودي الذي يذكر بمسلسلات "سنعود بعد قليل" ينتهي تماماً. فجأة قالت: "ليخرج كل منكم ورقة." نزع كل منّا ورقة من دفتره. "اكتبوا ماتشعرون به الآن باختصاروبكل صدق. دون تغيير... أمامكم عشر دقائق."

بماذا كنت أشعر؟ هل كان لدي وقت للتفكير بذلك وكتابته؟ في الحقيقة كان هذا الزمن المناسب لأثبت لمعلمتي عدم كوني إنساناً فارغاً، وأن أتفوق عليها. لا، هذا تفكير ساذج وبسيط... عليّ أن أكتفي بأن أكون صادقاً، فالصدق ليس سيئاً. عليّ أن أثبت لنفسي أني أستطيع أن أنجح في ذلك.

كتبت على الورقة: "أشعر بما تشعر به السحابة عند قمة جبل السنبل."

في نفس اليوم دخلت الصف في الفسحة وقالت: "يا أصدقاء، لم تكونوا صادقين أبداً!" ثم خرجت. لكني أعتقد أني لم أكن أكثر صدقاً مني يومها. كانت أفضل جملة تشرح عدم شعوري بأي شيء.

اعتراني في تلك اللحظة حزن ما بعد الحرب لطفل تلاحقه وتتمثل له باستمرار كل الآلام والوحدة التي عاشها. انزويت بعزلة تشبه عزلة النباتات بين الأوراق التي لم يكن لديها القدرة لتتساقط حتى، بين الطريق الترابي الذي يؤدي إلى المدرسة والذي يشبه كل شيء ماعدا طريقٍ حقيقي. كانت الإسطوانات التي يديرها الغراموفون تثير ألمي حيث كان قلبي يترقب موعد الدرس القادم ببالغ الصبر. كنت سأسألها لماذا، لماذا؟

جاءت المعلمة محضرة معها أوراقنا. كانت تقرأها ذاكرةً أسماء كاتبيها. وبعد ذلك تقول: "هذه جمل لاتفسح للحقيقة مكاناً." حقاً ما أكثر ما فكرنا فيه في ظرف عشر دقائق (؟) منّا من فكر في الجوع في أفريقيا، ومنّا من عبّر عن فضوله بشأن نهاية الرواية التي يقرأها، ومنّا من يفكر في الموعد التي سيتم

- تعال إلى غرفة المعلمين بعد الدرس، اتفقنا؟

- حسناً...

ماكان سيحدث هو أنها ستقدم لي أنا، الجاهل الأناني الذي يرسم سخافة المدارس والدقائق التي تمر بين الساعات والأصوات ونغمة الصوت الذي يأتي من بعيد، يرسمها صوراً صغيرة في دفتره غير واعٍ بشيء، ستقدم لي قائمة نصائح قد تم التوقّف عن تداولها منذ زمن. قررت ألا أذهب وهذا مافعلته.

عندما تلاقينا بعد يومين رمقت معلمتي بنظرات متباهية بظَفري بعدم مجيئي إلى موعدها. وهي كانت في كل مرة كجندي يقف بشجاعة رغم جراحه:

- لو كنت مكانك لما جئت أيضاً.

كنت أنتظر في وضعية المذهول.

قالت:

- محقّ أنت في عدم إصغائك لخطبي الجافة. لا أنوي أن أكرر عليك ماسبق أن سمعته. انظر ماذا كنت سأعطيك، خذها لكن افتحها لاحقاً.

ربما كانت أول مرة أشعر فيها بمشاركة ثقل السلالم لخطواتي المرتعدة بهذا المقدار. صعدت إلى صفي بسرعة. فتحت الظرف. على الأغلب أن بداخلها عبارات ونصائح. لا، بل جملاً من قبيل "عليك أن تنصت إلى الدرس يابني" أو" كيف لك أن تقل أدبك!" كانت جمل جديدة تخطر لي كلما فكرت أكثر. عند فتحي للظرف ظننت بأنه بقي لأيامٍ في طاسٍ مليء بالدم ولذلك اكتسب نصيبه من الكدرة المزمنة. لكن لا... كانت رسمة... رسمة لبحرٍ أزرق ترافقه شمس بكل جمالها وروعتها...

في الدرس التالي ركّزت انتباهي مع المعلمة منتظراً منها جملة ما. لكنها ولمدة شهرٍ تقريباً لم تخاطبني أو تنظر إليّ حتى. تصرفها بهذه الطريقة كان يوقظ عندي رغبة ممارسة حقي بالكلام والذي لم أفكر في ممارسته من قبل في الدرس أبداً، كما كان يشعرني بالضيق. كان مجموع ساعات حصصنا مع المعلمة في الأسبوع أربع ساعات... لا أكثر... لا أصدق نفسي. كيف جعلتني

بينما كنت أتقدم نحو الصف بعد طابور الصباح لاحظت أن للمدرسة العابقة برائحة الغبار والتي لم تهضم طلاءها الزيتي الجديد بعد جانباً ناقصاً؛ كنت أجبر نفسي على التفكير عكس ذلك. كل شيءٍ كان كتلويح أمٍ لمنديل برائحة جميلة في محطة قطار لمدينة بعيدة لغرض إشعار طفلها بتميزه عن الآخرين...

أثناء دخولي من باب الصف كنت أحاول إدراك مفهوم الصف الدراسي الذي لم يخطر لي أبداً أني سأكون جزءاً منه في يومٍ ما. كنا نلهي أنفسنا بكَسَرات الذكريات الباقية والتي كنا نظنها مختلفة في كل صيف، ولكنها لا تتعدى أن تكون عبارة عن لقاءاتنا وتسكعاتنا في شارع طوله 300 متر. بينما كنا كذلك نلخص إجازاتنا مقتنعين بأنها كانت جميلة ومستخدمين كل أساليب المبالغة دخلت إلى الفصل سيدة متوسطة الطول على وجهها تعابير لا يمكن وصفها إلا بالخوف. بيدها حقيبةٌ تحملها كأنها أمانة وأغراض أحضرتها معها... كانت معلمة زادت فوق مللنا ملاً بتعريفنا بنفسها وتعرفها علينا وسرد أهدافها ومبادئها علينا وبخطبها الروتينية...

فضّلت أنا أن أرسم بحراً على ورقة اقتطعتها من دفتري على الإصغاء إليها. رسمت أمواجه حيةً لدرجة أني في معنى زرقته سرحت وغصت في التموجات التي تخفي خلف تعرجاتها حياةً سرية. خيم صمتٌ مطبقٌ على الصف أفسد عليّ سحر أمواجي فجأة... كانت المعلمة تقف بجانبي محاولة أن تفهم معنى رسمتي. جعدت الورقة في راحة يدي دون أن أنظر إلى وجهها. أخذت الورقة من يدي. نظرت إليّ طويلاً وقالت:

- من الآن بدأت تشعر بالملل أليس كذلك؟

في الحقيقة كانت الجمل التي تبدأ بـ "من الآن" بلا معنى بالنسبة لي. كأني كنت أكتب تاريخ الملل. كان جبل السنبل الذي ينظر من النافذة الصغيرة إلى اليأس المختمر داخلي يؤنسني في كل فسحة. لكنني شعرت بالخجل رغم ذلك. فحتى لو لم أكن أنصت، عليّ ألا أبّين لها ذلك بهذا الشكل.

أمسكت المعلمة التي لم أعرف اسمها بعد بي في الردهة أثناء الفسحة:

- ما اسمك؟

- أرهان.

الثاني على تركيا 2006/ غازي عنتاب

أن تكون سحابة

أرهان سلجوق*

في ساعات مبكرة تملؤها جلبة الأطفال في المدينة التي تتبادل النظرات مع جبل السنبل، المدينة القابعة في ظلال الحزن؛ كان قد مرّ من عمري خمسة عشر عاماً من الأحداث والخبرات والخسائر. قدمت مخلّفاً في كل محطة من محطات العمر نداء أملٍ وألم عيش عبثي. انتقلت إلى الصف الثاني ثانوي. نعم نجحت ولكن كم من المعلومات التي على طالب الثانوية أن يعرفها رسخت في ذاكرتي؟ أعتقد أن كلمة "لاشيء" هي أنسب كلمة توجز مقدار ما تعلمته.

بهذه المشاعر كنت أذهب إلى المدرسة بوجهي البائس الذي لم يكن وطناً للضحكات قط. لسبب ما كنت في كل أول يوم للدراسة أفكر بتناقضات الدراسة وعبثيتها أكثر. هنالك الكثير من الوجوه التي تشبهني في الشارع، الكثير ممن يمشون بخطوات متثاقلة ومتكاسلة دونما رغبة أو خيار نحو ساعات الدرس الأول. كم تشبه خطواتنا في الشوارع قدَر مدينتنا. الوِحدة الراسخة في ذاكرتي تحولت إلى حشود في فناء المدرسة. في ذلك الصباح كنت أشارك مع صمت زملائي بصمتي لا لهدف إلا لنكون مجموعة صغيرةً فقط.

*ولد في هكاري عام 1980. أتم دراسته الإعدادية والثانوية فيها. درس تخصص اللغة التركية وآدابها في جامعة يوزونجويل. منذ عام 2003 وهو يعمل في ثانوية الأناضول كمعلم للغة التركية وآدابها.

أن تكون سحابة

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

كان جسدك يبرد كانت نيران قلبك تشتعل. تترك آثار أصابعك على زجاج السيارة وتنهار ساقطاً والدماء مستمرة بالنزيف. الثلج الأبيض يتلون بدمك الأحمر. زوجتك تتخبط مكانها وهي تصرخ صراخًا يزلزل الجبال. تعانق جسدك الذي لم يعد يحس بين صرخاتها. قلبها وعقلها عاجز عن تحمل شدة الألم فتنهار فوق جسدك الغارق في الدم.

اليوم التالي...

وجد الصيادون جسد المعلم الممزق وزوجته معانقة له وفي المقعد الأمامي للسيارة وجدوا عبدالله وقد تجمد وهو مبتسم.

اليوم الذي بعده..

خبر بحجم اصبعين في الصحف؛ فقد معلم شاب حياته هو وزوجته وطفله متجمدين أثناء عودتهم إلى القرية التي يعمل فيها الزوج.

في الصفحة الأولى لنفس الصحيفة،

صور المغنية المشهورة ..... التي ضبطت أثناء عطلتها في الجنوب من دون .....

اليوم التالي

الجميع يتحدث عن المغنية...

لا يسمح برؤية شيء بسبب الثلج. فتضطر إلى ترك السيارة تهبط بنفسها. نظرات زوجتك توحي بالهلع والقلق. تنزل العربة إلى أسفل المرتفع. تترجل من السيارة وتتناول السلاسل من الخلف. عبدالله يتفرج عليك من الزجاج الذي مسحت عنه أمه ضبابه. تضغط على قافل الأبواب فتقفل جميعاً. يعجب عبدالله بصوت إقفال الأبواب وحركة الأقفال فيصفق بيديه الصغيرة. يطالبك بأن تعيد فعلها من جديد وأنت تشاهد ضحكاته.

الظلام يهبط شيئاً فشيئاً.

الثلج توقّف عن الهطول ولكنه حوّل الجو إلى صقيع، الريح تهب بعنف وتنثر الثلوج. تجهز السلاسل وتربط العجلة اليمنى بها وتشدها جيداً. تتشقق يداك المبتلتان بالثلج من الصقيع. تحاول تدفئتهما بأنفاسك. الريح تنثر الثلوج بشكل يصعب عليك رؤية ما أمامك. إضاعة نصف ساعة في مثل هذا الوقت كافية لأن يختفي الطريق تماماً تحت الثلوج. إذا اختفى الطريق فلا فائدة من السلاسل. تحاول تركيبها على العجلة اليسرى. تتوقف أصابعك عن الحركة من البرد. يصاحب صوت الريح صوت يشبه أصوات الكلاب. يخيّم ألم على صدرك. تقف محاولاً وسط العاصفة الثلجية رؤية التلال المختفية. تستمر الأصوات في الانبعاث ولكن لا أثر لشيء. تعود إلى عجلة السيارة. وعند وقوفك بعد تركيب السلسلة تنفتح عيناك على منظر مرعب فتستند على السيارة لا إرادياً. ثلاثة ذئابٍ على بعد خطواتٍ منك. لم تعد قادراً على الوقوف من الخوف. تحاول التفكير خلال مدة قصيرة جداً. تخرج مفتاح السيارة بهدوء من جيبك وتضغط عليه فتفتح الأقفال. يدك اليسرى على مقبض الباب، تسحبه بخفة. زوجتك تصرخ وهي تنظر من الزجاج الذي مسحته. تسحب الباب، قبل أن يفتح الباب وقبل أن تتحرك تشعر بالأسنان الفتاكة على رقبتك. وقبل أن تدرك كيف وماذا حدث تهبط يداك على رقبتك، تبقى تنظر مذهولاً إلى الدماء المنفجرة من رقبتك وإلى الذئاب الهاربة نحو الغابة. زوجتك تصرخ بجنون. تقف بآخر قوة فيك وتنظر إلى عين عبدالله المرعوبة بعينك التي انطفأ بريقها. تنهمر دمعتان من عينيك اللتين لن تستطيعا أن تنظر إلى ابنك الذي لم تشبع من رائحته مرة أخرى. دمعتان أثقل من الدماء السائلة من رقبتك. بينما

ج.(آدم)

تُقرِّر العودة قبل يومين من بداية الدراسة. الثلج يهطل. أمك وأبوك يلحّان عليك: "لابد أن الثلج في قريتك أشد انهماراً، لا تذهب قبل أن تتأكد من أمان الطريق" فترد: "أنا سائق محترف في الثلوج، أينما علِقَت السيارة سأربط سلسلة العجلات وأكمل، لا تقلقوا، اكتفوا بالدعاء لي، فهذه ليست أول مرةً أذهب بها من ذلك الطريق" ثم تودعهم وتمضي. الطرق طافحة بالثلوج، وصدرك بالأمل. تقول:"عدد من ينتظرونني أكثر ممن فارقتهم " الثلج يستمر بالهطول. وماسحات زجاجك الأمامي تعجز عن مجاراة سرعة انهماره. عبدالله في حجر أمه، كلما أسهبت في الحديث يلتفت إليك بوجهه وخديه الممتلئين وكأنه يريد أن يشاركك الحديث، وبين حين وآخر يصفق بيديه الصغيرة. فتمسك بيديه وتلثمهما وتعضهما. يعبس محاولاً فهم ما تفعله. زوجتك قلقة تحذرك باستمرار "انتبه للطريق" يقف عبد الله في حِجر أمّه. يحاول الإمساك بالتحفة التذكارية المرعشية الصغيرة التي تتأرجح من المرآة.

تجتازون مدينتين. تعلّق على الطقس "الثلج يهطل بغزارة" محاولاً إخفاء قلقك. تجاوزت مئة وأربعة وخمسين كيلومتراً. بقي ثمانية كيلومترات، هذا يعني أن طريق القرية سيبدأ بعد قريتين. العربة تعبر الطرق الثلجية الزلقة وهي تهتز. تنزلق السيارة في منعطفين كثيفي الثلوج عاكسة اتجاهها نحو الخلف فلا تكترث. تعلّق: "لابد أن لنا صدقةً حمتنا" وتكمل طريقك. بقي أربعة عشر كيلومتراً. قرية هاراملي تجعلك تفكر "لو تجاوزناها فنستطيع إكمال الطريق ولو مشياً" في المنعطف الأخير قبل هاراملي تفقد العجلات سيطرتها وتنزلق. تدوس على المكابح بشكل خفيف، بين صراخ زوجتك ونظرات ابنك الغاضبة تلتف السيارة إلى عكس مسارها من جديد. بعد محاولات كثيرة إلى الأمام وإلى الخلف تنجح في العودة إلى مسارك مجدداً. تقترب من هاراملي. تدوس على البنزين ظاناً أنك لو أسرعت فستتجاوز المرتفع أمامك ولكن لا تفلح في ذلك وتعلق السيارة في وسط المرتفع. عليك أن تعود رويداً رويداً إلى الأسفل ولكن المكابح لا تعمل. والزجاج الخلفي

لاتسمح لنا بأن نحضر حفل زفافك. توبخني قائلاً: "أتترك الطلبة في وقت الدراسة وتأتي لترفّه عن نفسك!" فأصمت. كم أتمنى أن أشاركك أجمل لحظات عمرك ولكن حماسي يُدفَن في مهده.

بعد أشهر تخبرنا عن مكر ابنك عبدالله سعيد بنبرة صوت هي بين الضحك والذهول. كم سررت يا معلمي، كم سررت. كم تشوقت للقاء ابنك وإسباغ حبي الذي كتمته تجاهك عليه. فتقول لي :"انتظر إجازة الصيف." فأنتظر...

ب. (فاروق)

كنت أول معلم أعرف اسمه. المعلمون الذين كنا نسمع أنهم سيأتون يرحلون دون أن يعرفوا أسماءنا.

سألت عن الضمادة التي تلف أصبعي فقلت: "دهّنوا عسلاً على ورم تكوّن فيه" نظرت إليّ بعين محتقنة ومتألمة وسألت: "هل ذهب بك أبوك إلى الطبيب؟" فصمتّ. حللت الضمادة عن أصبعي المتورم وعقّمته جيداً. عصرت الجزء المنتفخ منه بأصابعك فانبجس الصديد الأصفر القذريسيل وتبعه دم. أخذتني إلى البيت ودهنته بمرهم فلم يعد يلتهب ويؤلمني. يوم الجمعة في إجازة الراتب أخذتني إلى الطبيب. لو لم تذهب بي إليه لما بقيت يدي اليمنى سليمة... أبي يربط ويضمد أقدام الماعز في البيت إذا انكسرت ولكنه لم ينظر إلى يدي حتى.

كانت الطرق مسدودة لثلاثة أسابيع في الإجازة السنوية النصفية، وأنت لم تكن قد ذهبت بعد. طرقت بابك بخجل وتردد ناوياً أن أرد دَين فضلك عليّ. في يدي جوز وزبيب وبطاطس جمعته من المحاصيل المتبقية في الحقول بعد الحصاد في الخريف وعجين طازج. كنت وحدك. ابنك وزوجتك عند والديها منذ ثلاثة أسابيع لعودتهم الحديثة من الحج. قلت لي: "من الجيد أنك أتيت يافاروق" مددت لك بكيس المؤونة بخجل. تناولته وعينك تبتسم، قلت: "لم يبق عندي حتى خبزٌ لآكله" ثم شكرتني مرات ومرات أكثر مما أستحق. بعد ثلاثة أو أربعة أيام أصبحت الطرق سالكة. فخرجت بسيارتك العجوز للسفر حتى تعود بزوجتك وابنك...

"...أترى هذه الجبال وهذه السماء؟ لن ترى سماء أشد صفاء و زرقة وملتحمة بالأخضر كهذه السماء. لا تبقى للتربة والغبار ولا حتى للبرودة أي سطوة بجانبها. حين يحين موعد جمع حطب الشتاء نقطع حطبنا من الأماكن التي حدّدوها لنا وننزلها إلى الأسفل على ظهور البغال ونحضرها إلى هنا بالجرارات. قطع الحطب وحده متعة. ونار حطب الأرز والعرعر والصنوبر في المدفأة عالم آخر. المباركة، كأنها لا تشتعل بل تشهق باكية بحزن. روائحها جميلة إلى درجة أنك تظن وأنت تمشي بالخارج أن السماء تعطرت بالبخور... وحليب الماعز... كم هو دسم ولذيذ. يجمع الماعز أكثر الأعشاب المفيدة وأصعبها وصولاً في حليبه من أجلي. هنالك حظائر خلف هذه الجبال التي ترونها. الجميع يتناوب على رعاية الماعز على حسب أعدادها. ثم أنتم لا تعرفون الفطيرة المحشوة بالجوز. طلابي يحضرون لي زادي وأنا أجهز الشاي لنشربه سوياً."

تحكي لنا . نضحك تارة ونسرح تارة أخرى ويمضي الوقت سريعاً. ونتحدث نحن أيضاً عن أماكن عملنا. نرتبط أكثر فأكثر بمهنتنا التي طالما أعجبنا بها. وعند رؤيتنا للمكان الذي تعمل به نحزن رغم كل تفاؤلك وإيجابيتك. تقول لنا: "عليّ أن أعمل في أماكن كهذه طالما أنا في شبابي. سأتزوج هذا الصيف. ربما بعد سنوات لن أستطيع العمل هكذا وإن رغبت. أكنتم تتمنون لو لم أجئ إلى قريتكم؟ انظر، أصبحنا مئة بعدما كنّا واحداً، وسنصبح ألفا بل آلافاً بإذن الله." ولاحاجة لقول شيءٍ آخر.

وعندما يحل الظلام ورغم كل إلحاحاتك إلا أننا نضطر لوداعك والرحيل. تعانِقنا وتقبّلنا بحرارة وشوق صادق ولا تسمح لنا بتقبيل يدك. بعد ركوبنا للسيارة لم نتكلم لمدة. ضوء القمر، الصمت والفراق... مع تعرج الطرق يشتعل داخلي ويعتريني خوف من عدم لقائك مجدداً فأشعر بالقهر. أنظر إلى إسماعيل فأرى أنه استسلم منذ مدة وانهمرت الدموع على وجنتيه. لم يهزني فراق كفراقك أبداً، ولكني عندما أفكر بماضيّ و "كم كان وجودي مرتبطاً بوجودك" وقولك "إذا أحب الله عبداً يرسله إلى حيث تكون إليه الحاجة موجودة." و أواسي نفسي بذلك.

أعرف تاريخ الزفاف في الأسبوع الذي تبدأ فيه الدراسة.

عندما توضع على قائمة الانتظار في مديرية تعليم المحافظة تمارس أول جنون وتختار العمل في قرية لا يرغب بها أحد، فيرسلونك إليها بكل سرور.

***

أتممت دراستي في زمانها المفترض وأصبحت زميلك في المهنة.

في أول إجازة صيفية نقرر أنا وإسماعيل أن نزورك بسيارته. نحن أيضاً كبرنا في قرية ولكننا لم نفكر بوجود قرية بعيدة منسية ومحرومة بهذا القدر. جبال شاهقة منيعة ومنحدرات حادة ومرتفعات متعرجة. جبال ثلجية وعرة، صخور وماعز ونساء يحملن الحطب على ظهورهن في يوم صيفي، كلها مناظر تبدو في غاية القرب منّا. بعد تجاوز الطرق الترابية التي لا تمكننا من رؤية ما خلفنا بسبب الغبار تقابلنا داخل الوادي بيوت بأشكال عشوائية وبلا أسطح. أسأل عن المدرسة فيشيرون إلى مكان في الأسفل طُلي سطحه بالأحمر.

نجدك بجانب المدرسة في مكان إنشاءاتٍ صغير. ألقيت بالرفش من يدك وركضت نحونا، حتى أبي لم يسبق له أن استقبلني بهذه الحفاوة. آه كم اشتقت للحديث معك ونظراتك وصمتك وكل حالاتك يامعلمي. كأنك لست في قرية متخلفة عن البلاد بخمسين سنة، بل في منتجع صيفي. تخبرنا بأنك تنشئ دورات مياه للمدرسة. تحكي لنا عن القرية بشكل جميل جعلتني أشتهي أن أعمل فيها.

"إنهم أناسٌ شديدو الكرم. يشاركونني كل أملاكهم وكأنها مشاعة. كل موسمٍ هنا له جماله الخاص. عليكم أن تقضوا خريفاً واحدًا هنا على الأقل. حتى الجبال تكتسب لوناً مختلفاً. أشجار البلوط والسماق تستحيل بنفسجية. أما موسم حصاد العنب فمتعة مختلفة. يستخدمون معصرة بيت على السفح ويصنعون من العنب دبساً. يُترك العنب المسحوق في مزاريب العرعر، وشرابه المغلي يترك في القدور الكبيرة تحت أشعة الشمس حتى يستوي ويتكثف. عليكم أن تأكلوا من رغوة الدبس بالخبز الحار حين يحين زمانه. كما هنالك الحلقوم والمعجنات والسجق والحلوى المعمولة بالدبس التي لو اكتفى المرء بأكلها وحدها لكفته.."

كنتَ تملأ اليوم بالرحمة وأنا أملؤه بالأمل والأحلام.

تمر الشهور.

تعتاد علينا وعلى القرية. تعمل بإصرار وشغف. تتحضر للعديد من الاختبارات التي لم نسمع بها من قبل. تحكي لنا عن مدارس الأطفال في المدن وبيوتهم وحياتهم، تشرح لنا أن الحياة ليست مقصورة على مساحة ضيقة بين جبلين. تجعل من كل يوم لنا درسًا ومن كل مكان لنا مدرسة. تشعرنا بالملل في كثير من الأحيان لكننا لا نجرؤ على مقارنة وجودك بغيابك أبداً.

تمر السنوات.

ننهي المدرسة. يجتاز أكثر أصدقائي الاختبارات ويذهبون إلى المدارس في المحافظة. ونبقى أنا وخمسة من أصدقائي لعدم اجتيازنا لها. ولا نية لآبائنا بأن يرسلونا لمدرسة بعيدة. تسجلنا أنت في ثانوية بالمنطقة وتستأجر لنا بيتا من اللبِن. يرسلون لنا من القرية حطباً وعجيناً وبرغلاً وصلصة ومخللات وماشابه. وأنت تلبي كل احتياجاتنا عندما تستلم راتبك كل شهر. وتكسونا بالملابس التي تحضرها من معارفك وأقربائك. نرتدي ملابس جميلة دائماً بفضلك، وإن لم تكن جديدة. بين حين وآخر تمر بنا لتطمئن علينا وتنصحنا. كنت تقول لنا أننا "لو نجحنا فسنغيّر قدَر أمتنا!". لم نكن نستطيع تصديقك ونحن نرى قدرنا المتواضع أمامنا. حتى لولم نكن نصدق فأفعالك كانت تجبرنا على النجاح وتصديقك. ننجح في النهاية لابجهدنا بل بدعوات معلمنا على الأغلب.

بعد قبولي في الجامعة بسنتين نسمع بخبر طلبك النقل والافتراق عنّا إلى مكان آخر. نحزن ونرجوك ألا ترحل وكأننا لن نراك مرة أخرى.

ترحل، ويكون رحيلك أكبر المصائب التي حلت على القرية.

ترحل ولكنك تقول: "أنا ذاهب ولكني أترك في كل بيت قطعة مني." نودعك بدموع صادقة ولا مبالغة فيها. وميدان القرية لا يشهد حشداً كذلك مرة أخرى.

ونحن نتبعه في صف. وعندما نبلغ التلة التي عليها مدرستنا ونرى مدخنة المدرسة تنثر الدخان نعرف أنك أشعلت المدفأة.

نصطف من أجل النشيد الوطني. أنا في المقدمة. عيني مسلطة على عينيك، أنتظر منك أن تعرفني وتبتسم. الصقيع شقق أيدينا وشرخ وجوهنا المتسخة. واضح أنك لست معتاداً على ذلك. فوجنتاك شديدتا الاحمرار، تقف هناك مرتجفاً. كتفاك مرتخيان وأنت متكور على نفسك داخل المعطف. فركت يديك المسودتين بسبب إشعال المدفئة بالثلج ولكن السواد لم يخرج. أنت بردان وغاضب، هذا هو السبب. عيناك ترقبني. أنظر إلى داخل عينيك. أليس لشوالين من الحطب أي قيمة؟ ستعرفني الآن. تنظر إليّ بنظرات عصبية إلى درجة أني لا أجد مكاناً أضع فيه عيني. "ما وضع أنفك ياولد، امسحه." أتفهم الغضب في نظراتك وأرفع يدي التي لا أشعر بها من البرد إلى أنفي. أمسح ما بأنفي بأصابعي فتبقى في يدي قطعة من الثلج القاسي بدل المخاط، ولايتوقف الأمر هنا، فمجرد سحب يدي يسيل شيء دافئ من أنفي المتجمد من الصقيع على شفتي. أنحني حتى لاينقط على ملابسي. فتتساقط قطرات حمراء على الثلج الكائن في طرف حذائي. يتحول الثلج إلى أحمر، الدم أحمر. يتغير وجهك فجأة. تتحول نظراتك من صقيع بارد إلى ربيع. هُرع إليّ فوراً، تضع المنديل الذي أخرجته من جيبك على أنفي وتمسك بخدي يداك. تنظر إلى داخل قلبي عن طريق عيني. أشعر بالخجل لكن من حظي أن أنفي نزف. من حظي أن مخاطي تجمد وجعل أنفي ينزف. فهل تذكر اسمي يامعلمي.

"آدم، تعال يا صغيري، كم أنت بردان." في الداخل جلست على كرسي بجانب المدفأة. أمسكت بنفسي بصعوبة حتى لا أبكي، ليس من الألم بل السعادة. جثوت على ركبتيك أمامي وأمسكت بخديّ من جديد، منديلك ملطخ بالأحمر. عندما رأيت القطرات تنحدر من عينيك رحت أرتعد وأبكي من الفرح والهيجان. كانت تلك القطرتان أول هدية خاصة أتلقاها في حياتي. تؤجل كل آلامي وخيباتي. وتسكّن ليس فقط بردي الحالي، بل برد أيامي المستقبلية أيضاً.

الثاني على تركيا 2006/ غازي عنتاب

أي شمعة تنتظر بينما تحترق

جمال الدين كونش*

أ. (آدم)

كنت أول طالب تتعرف على اسمه.

عندما لم أر دخاناً يتصاعد من مدخنة مسكنك حملت على بغل خالي شُوَالين من الحطب وأتيت بها إلى منزلك وصففتها تحت الدَرَج ثم طرقت الباب. سُررتَ لإحضاري الحطب وأنا سعدت لكوني أول طالب تعرف اسمه.

استمر الثلج الذي بدأ بالهطول مساءً بالانهمار على مدد متقطعة محولاً صباح اليوم التالي إلى صقيع. كان الثلج هو حياتنا. فنحن ندبر تجهيزاتنا تحسباً لشتاء طويل وقارس. تواجدك هناك أسعدنا لسبب ما؟

في أول أيام الأسبوع رتبنا داخل مزوداتنا الكتب بشكل عمودي حتى لاتتناثر الصفحات وخلطة شوربة الترهانة والزبيب وأحلامنا ووقفنا وسط الطرق التي بلغ فيها الثلج ركبنا. في كل صباح كان أب أحدنا يتقدمنا، يشق الطريق

*ولد في عام 1971 بقرية أسنجة التابعة لمدينة أفشين بمحافظة قهرمان مرعش. أنهى الابتدائية في قريته. وحفظ القرآن في مركز التحفيظ بأفشين. تخرج في 1991 من ثانوية الأئمة والخطباء. بدأ بوظيفته كإمام وخطيب في سنة تخرجه واستمر لثمان سنوات. في 1999 تخرج من تخصص الشريعة بجامعة أرجيس. عين كمعلم للثقافة الدينية والأخلاق. أثناء سنواته الجامعية أصدر مجلة "كولنهال". نشر أشعاراً وقصصاً ومقالات في مجلات عديدة مثل آهنك وألتينولوق ووبنكيصو وكونيصو وكولنهال وحقسيس وهرمان والتعليم الشعبي ويني دنيا وكوك قوشاغي. حالياً يعمل كمعلم للثقافة الدينية والأخلاق بثانوية حسن علي يوجال في مدينة غازي عينتاب. متزوج وأب لطفلين.

أي شمعة تنتظر بينما تحترق

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

تتحرك، أشار إلى أم رسول وقال للنساء الموجودات: "أخرجوها" أتمّ الرجل دعاءه ثم وضع يده على عيون رسول وأغمضها. غمضت عيني وتسمّرت مكاني. انتظرته أن يستيقظ، لكن بلاجدوى... قال المسن:

- ليتولاه الله برحمته.

كم نطقها بسهولة. لم أصدّق ومددت يدي لأمسك بيد رسول التي مازالت مخضّبة بالطلاء. كانت كالثلج... قبلته وخرجت. مشيت نحو المدرسة بسرعة أدوس على برك الماء والوحل. عند دخولي إلى المدرسة كانت ولولة أم رسول مازالت تتردد في أذني. عند دخولي إلى غرفة المدير كان أذان الجمعة على وشك أن يرفع. قرأوا دعاء إعلان الوفاة قبل الأذان. هرعت إلى صفي. كان أطفالي يبكون.

قال أحدهم:

- لكننا دعونا له كثيراً يامعلمتي.

- أعلم يا أطفال أعلم ذلك. معنى هذا أن الله الذي دعوناه أحب رسولاً أكثر مما أحببناه نحن. وأخذه إلى عنده لأنه يحبه.

قلتها ورحت أنظر من النافذة نحو الخارج. لم تكن بي الشجاعة لأنظر إلى مكان جلوسه. أعرف بأني لو التفتّ ونظرت لسالت الأنهار الطافحة داخلي. حال كوني معلمة دون انسياب الأنهار كسدّ، فسكتّ.

بعد ظهيرة يوم الجمعة دفنوا رسول. كان الشتاء قد جاء مبكراً إلى أرزينجان، فيداي وقلبي كانت باردة.

لم أبق في أرزينجان كثيراً. فبعد عدة أشهر تم نقلي إلى مدينة أخرى، إلى طرابزون.

عند جلوسي على مقعد الباص كان في قلبي ألمٌ عميق وعلى ساقي آثار يد رسول. نظرت من الزجاج نحو الخارج، كانت الثلوج قد شكلت طبقة كثيفة تغطي جبال قازان قايا الممتدة أمامي كلحاف، وكان ذلك اللحاف قد غطى بأحد أطرافه قبر رسول.

النظرات الماثلة أمامي والتي كأنها صورٌ لحطام الآمال والأحلام، تأخذني نحو طفولتي. نحو الليالي النحسة التي دائماً ما "يضطر" فيها أبي للذهاب. نحو ليلة الخميس والتي تسميها جدتي "مساء الجمعة" وليالٍ أخرى لم أفهمها. خطر ببالي أبي الذي كان يعمل على الطرق المعبدة مزيلاً الثلوج عن الطرق حتى يعود آباء الأطفال الآخرين إلى أطفالهم، وتذكّرت انتظاري نور كشافات سيارته الأمامية على زجاج النافذة لتنبئ بقدومه ، ودعاء جدتي الذي يشبه التمتمة عندما تلتفت نحو السماء مستندة على القمر "يامالك الليالي احم العالقين في الثلج والبرد، وكن معيناً للمأزومين، واحم أبناء الجميع. يامالئكة الليل! لا تتركي أحداً مخذولاً" خرجت إلى الشرفة. كان القمر معلّقاً في السماء كصحن. رفعت يديّ ودعوت للطفل المسكين بالشفاء.

عدت إلى الداخل. ذهبت إلى جانب ابنتي. وضعت رأسها على حجري ورحت أشم شعرها.

في يوم الجمعة كانت الحصة الأولى حصة رسم وكانت مدرّسة الرسم تتولاها. لذلك لم يكن لدي شيءٌ لأفعله. استأذنت من المدير وذهبت إلى بيت رسول. كان البيت اليوم مزدحماً أكثر من قبل. وكان بجانب رسول شخصٌ آخر لم أره من قبل.

لم يرفع رسول رأسه عندما دخلت هذه المرة. كان وجهه باتجاه النافذة، ينظر إلى الخارج ولكن يبدو وكأنه لا يرى شيئاً. وجهه وخده أحمر.

سألت عن وضعه. فأجاب الرجل الجالس عند رأسه في هدوء:

- ليس جيداً.

كانت على وجنتيه الحمراوين ابتسامة ولكن عيونه لم تكن مبتسمة. كان يلتقط أنفاسه على أوقاتٍ متباعدة بشكل يخيفني. وكانت يده في كف الرجل الذي أراه لأول مرة. وأمه تبكي باستمرار وتنظر إلى وجوه الحاضرين.

كنت أنظر إلى وجنتي رسول الضاحكتين دون أن أرمش، أتمنّى أن تبتسم عيناه أيضاً، أتمنى أن يتعلق بقدمي في ليلة باردةٍ مجدداً. لكنه لايبتسم ولا يتعلق بي.

فجأة حصلت رعشةٌ في خده مثل خبطة جناح عصفور، فطارت ابتسامته معها. تجمدت نظراته. نظرت إلى وجه الرجل المسنّ فوراً، كانت شفاهه

خرجت من الباب، أثناء ارتدائي لحذائي التفت لأمه وسألتها:

- هل سيأتي أبوه؟ لقد سعدت كثيراً.

ردّت وكأنها تهمس:

- لا يا معلمة. نحن لا نعلم بمكانه حتى. كان رسول يبكي كثيراً، وعند ارتفاع حرارته كان يهذي وهو يردّد اسم أبيه. كذبت عليه حتى لا يحزن. عندما يشفى سينسى. فهو طفل، أليس كذلك؟

هوت فرحتي في جرفٍ سحيق وارتدت كل قطعةٌ منها ثياب حزن.

يوم الخميس قلت للأطفال:

- يا أطفال، مارأيكم أن نذهب لزيارة رسول إن لم يأت اليوم؟

قابل الأطفال عرضي بحبور. في الحصة الأخيرة قرّرنا أن نزوره في اليوم التالي. خاطبت المدير بأننا سنزوره في الحصة الأخيرة.

بعد الحصة ذهبنا بمعية أران نحو بيت رسول. قبل دخولنا إلى البيت حدثت الأطفال عن طريقة التعامل والتصرّف عند الزيارة. عندما رأونا من النافذة الواقعة بجانب الباب فتحوا لنا الباب واستقبلونا. عند دخولي كان قد رفع رأسه ينظر نحو الباب. وعند رؤيته لنا أرخى رأسه مجدداً. كانت تعلوه بهجةٌ غريبة وكأنه كان ينتظر غيرنا. قالت أمه لي:

- ظن أباه قد جاء.

- أوه.

كان الأطفال الذين ملأوا الغرفة يمرون واحداً تلو الآخر على رسول متمنين له الشفاء. ومن ينتهي يعود إلى الخلف. كانت الغرفة مكتظة حقاً. قلت لطلبتي:

- زيارة المريض تكون قصيرة أليس كذلك يا أطفال؟ هيا ودّعوا صديقكم الآن وادعوا الله كثيراً من أجله حتى يشفى بأسرع وقت. عساه يطيب ويعود إلينا في المدرسة . اتفقنا؟

- اتفقنا!!.

أثناء خروجنا كان رسول ينظر إلينا بحزن. لوّح إلينا بتثاقل.

هذا المساء أينما أنظر أرى وجه رسول. بأكثر أوضاعه وحدةً وبؤساً.هذه

- خالة فاطمة، لقد جاءت معلمتي لرؤية رسول! أحنت المرأة رأسها احتراماً وهتفت نحو داخل البيت. كنت ألج البيت ببطء حتى يستعد من بداخله.

كان باب البيت يفضي نحو الصالون. عند المدخل كان هناك مجلس مرتفع نصف متر عن الأرض ومرتب على شكل حرف U. كان رسول راقداً بحيث يكون رأسه نحو الباب. فرح عند رؤيتي. البيت مزدحم. كان يجلس عند رأسه رجلٌ كبيرٌ يبدو أنه عمّه

أو خاله. وكان الضيوف يرمقونني بنظراتٍ كلها فضول. بعد مدة فرغ الصالون. دعوت له بالشفاء مخاطبة الرجل الكبير ثم أمه. ثم جلست قريباً من رسول. كانت وجنتاه محمرتين. وضعت يدي على جبهته لأفحص حرارته. كأنما كان يشتعل.

- حرارته مرتفعة كثيراً. هل ذهبتم به إلى الطبيب؟

- فعلنا يامعلمة، أعطونا هذه الأدوية واجعلونا ننصرف.

أرتها كيس الأدوية.

- منذ متى وهو على هذا الحال؟

- يرقد هكذا منذ صباح يوم الأحد.

- ألم تنخفض حرارته أبداً؟

- ليس كثيراً.

- وهل يأكل شيئاً على الأقل؟

- يأكل قليلاً.

أدخلت يدي تحت لحافه وأمسكت بيده ونظرت إلى وجهه سائلة:

- أخبرني يارسول ، ماذا تريد مني أن أفعل؟ أخبرني ماذا تشتهي حتى أحضره لك لتأكله.

- أشكرك معلمتي. لا أريد أي شيء. فأبي سيأتي. عندها سيشتري لي كل شيء.

سعدت لخبر قدوم أبيه.

- حسناً إذاً. سأذهب الآن ولكني سأعود مرة أخرى. وأنت تعافى بأسرع وقت لتعود إلى المدرسة، اتفقنا؟

- اتفقنا معلمتي.

الأولى ولا الثانية ولا الثالثة. في الحصة الأخيرة جعلتهم يسجلون الواجب ثم سألتهم:

- أيعرف أحدكم بيت رسول يا أطفال؟

- أران يعرف يامعلمتي.

- من هو أران؟

كان أران طفلاً يسكن في حي رسول، طفلٌ أسمر نحيل وأطول من رسول قامة.

- هل بيت رسول قريب من بيتكم يا أران؟

- أجل معلمتي، بيتهم في نفس زقاقنا.

- إذًا اذهب لبيتهم اليوم واسأله لِمَ لَمْ يأتِ.

في صباح اليوم التالي وعندما أتيت إلى الصف لم يكن رسول موجوداً. التفت إلى أران وسألته:

- هل ذهبت إلى بيت رسول ؟

- نعم معلمتي. قالت أمه: إنه مريض. وأنا رأيته، كان راقداً.

- حسناً ، شكراً لك أران.

بعد المدرسة قرّرتُ أن أذهب برفقة أران إلى بيت رسول. كان أران يمشي في المقدمة يقودني إلى البيت. كان الحي الذي ذهبنا إليه في غاية الفقروالبؤس. أغلب البيوت قديمة متهالكة. نوافذ معظم البيوت عليها زنك. الطرق التي مشيت فيها كان يسرح فيها الوحل ويمرح. كنت أحاول في البداية التخلّص من الوحل ومقاومته لكني رضخت له بعد أن أدركت أن لا جدوى.

توقّف أران مقابل أحد البيوت. كان سقفه من الصفيح وجدرانه الأمامية مدهونة بالجص ونافذته في الزاوية السفلية اليمنى كانت مثبتة بها صفيحة زنك. وقفنا أمام بابٍ خشبي مطلي بالأزرق. طرق أران الباب على عجل بينما وقفت أنا على مسافة من الباب. فتحت الباب امرأة يبدو على وجهها الإنهاك، رأسها عليه غطاء رقيق ونصف شعرها مكشوف. عند رؤيتها لي غطت شعرها. وغطت فمها بأحد طرفيه المربوطين تحت ذقنها. نظرت إلى أران، وقبل أن تسأل نطق أران:

- مساء الخير يا رسول. ماذا تفعل في هذه الساعة هنا؟

- قلتها مشيرة إلى صندوق الطلاء خلفه عند الحائط.

- أعمل يامعلمتي.

- أفهم ذلك ولكن الوقت متأخر. ألا تغضب أمك أو أبوك؟

- أبي رحل. أما أمي فهي لا تغضب.

- إلى أين رحل أبوك؟

- لم يسعد هذا السؤال رسولاً أبداً.

- ذهب إلى إسطنبول للعمل ولم يعد.

- وهل أنت من يوفّر احتياجات البيت؟

- أمي تعتني بتنظيفه. هذا يعني أننا نتعاون على العناية بشؤن البيت.

أدخلت يدي في حقيبتي. أخرجت القطع المعدنية منها وناولته إياها. أدار رسول وجهه نحوي ونظر إلى وجهي متجاهلاً النقود.

- أنا لست متسوّلاً يا معلمتي.

كانت هذه الجملة كصفعةٍ تلقّيتها وقتها وسط الشارع في ذلك البرد. شعرت بالخجل وانكمشت، آلمني قلبي. لقد لقنّني طالبي درساً قيّماً في الحياة. لم أستطع النظر إلى وجهه.

- أعتذر لك ياولدي. احضر الصندوق ولتصبغ حذاء عمك.

جاء بالصندوق وباشر في الطلاء فوراً. أما وجهي فقد استمر بالاحمرار.

قضيت نهاية الأسبوع تلك وأنا أفكّر بالموقف هذا. أخذت أفكر كيف سأتعامل مع رسول في يوم الإثنين وكيف سأكسب قلبه.

عند دخولي إلى الصف قابلتني أصوات مرح الأطفال وطاقتهم الطافحة كما في أول يوم. جلسوا أماكنهم. انزلقت عيني نحو مكان رسول. كان أحدٌ يجلس مكانه لكنه ليس رسولاً. أنزلت حقيبتي وسألتهم:

- أين رسول ياأطفال؟

- معلمتي إن رسول تارةً يأتي متأخراً وتارةً لا يأتي.

كنت أشرح الدرس وأنظر إلى الباب في نفس الوقت. لم يأت رسول لا للحصة

نهض الطفل على مضض. مسحت السبورة وكتبت له مسألة ضرب 11 في 11 حتى تكون سهلة عليه. كان ينظر إليّ والطباشير في يده. عليه زي مدرسي قديم جداً وفوقه ياقة أطرافها مسودة وممزقة. وعينه كانت تارةً تنظر إلى حذائه الذي تهتكت مقدمته وتارةً إلي.

- ما اسمك يابني؟

- رسول

- هيا يا رسول، لنحلّها معاً إن أردت.

استدار رسول نحو السبورة وبدأ في الكتابة. لوهلةٍ علقت نظراتي بأصابعه السوداء الممسكة بالطباشير البيضاء. كان رسول يعمل في طلاء الأحذية. راح قلبي يسكب رحمةً وعطفاً أمومياً نحو الطفل ذي الأصابع الملونة كنهر.

كنت ألقنه جواب السؤال بنفسي. نعم كان زملاؤه على حق. فالطفل لا يعرف شيئاً. عدا عن حل السؤال، كان يكتب بصعوبةٍ أيضاً. بعد أن أنهى كتابة الجواب وضع الطبشورة على حافة السبورة والتفت نحوي. صمت... رفعت يدي ومسحت على رأسه.

أحسنت يارسول. أرأيت، معنى هذا أنك تستطيع الحل. ممتاز. الآن بإمكانك الجلوس. في المرات القادمة اكتب السؤال في دفترك وأرني الحل. كتب رسول كل سؤالٍ سألته في دفتره تلك الحصة وأراني إياها دون أن يحلّ منها شيئاً. وأنا كنت في كل مرةٍ أثني عليه وأمدحه حتى أسعده.

في يوم الجمعة. وبعد انصراف الطلبة بعد تحية العلم إلى بيوتهم ارتحت أنا.

شتاء أرزينجان قاسٍ جداً. إذا لم يكن لديكم معطف أو (جاكت) جيد فليس من الممكن لكم أن تخرجوا خارج البيت أبداً. عند مشيكم تحسّون بالبرد يدفعكم إلى الخلف. تدمع أعينكم وتحمرّ شحمات آذنكم وأنوفكم، وتأخذ أيديكم بالتشقق إن كانت مكشوفة.

مساءً في حوالي الساعة الثامنة كنا نمشي نحو موقف الباص أنا وزوجي وابنتي بعد أن تسوقنا من أجل أن نذهب إلى البيت. عند بلوغي للموقف تعلق بساقي أحدهم. لم يكن ذلك بشكلٍ عنيف. يشبه تعلّق ابنتي بي. نظرت إلى الطفل الذي تعلق بي بدهشة.

- مساء الخير معلمتي

كان ثاني يوم منذ بدايتي للعمل في المدرسة. عند دخولي إلى صف -5أ توجهت نظرات الأطفال نحوي بفضول وحب. كنت أرتعد من التوتر حتى نطقت أول كلمةٍ، بعدها بدأنا بالتعرف إلى بعضنا بعضاً.

وبعد قليل بدأنا بأول درس، الرياضيات. كنت أكتب أسئلةً على السبورة بهدف معرفة مستوى الصف والتعرّف إلى مستوى الطلبة على مهل. كانوا يحلّون الأسئلة في دفاترهم أولاً ثم على السبورة. وأنا كنت أتجول في الصف وأراقب ما يفعلون.

كان الطالب الجالس في آخر الصف الأوسط، الأسمر النحيل وقصير الشعر، لا يكتب أي شيء في دفتره. نظرت إليه دون أن أثير انتباهه لأرى إن كان لديه قلمٌ ودفتر. كان على طاولته دفتر أطرافه مثنية وقلم قديم معضوض. يستطيع أن يكتب به ولكنه لا يفعل. انتقلت إلى مواضيع أقدم ظنّاً مني بأنها مواضيع جديدة عليه. كان السؤال الذي كتبته على السبورة عن ضرب عددين مكوّنين من خانتين ببعضهما بعضاً. عدت لأجول في الصف من جديد حتى أرى ما فعل الطفل في آخر الصف. رغم أن جميع الصف حلّ السؤال على الفور إلا أنه لم يكتب شيئاً. كانوا يرفعون أصابعهم من أجل الخروج إلى السبورة. التفت إليهم وقلت:

- انزلوا أصابعكم. أنا سوف أختار.

- ثم ذهبت إلى جانب ذاك الطالب:

- مارأيك أن تحلّها أنت؟

- لم يجب بشيء، لم يلتفت نحوي حتى. فأعدت سؤالي.

- هلا حللتها يابني؟

كان صامتاً لا يجيب. أجاب زملاؤه في الصف:

- معلمتي هو لا يخرج إلى السبورة أبداً ولا يحلّ أي شيء، لا يعرف أي شيء.

- أطرق الطفل الأسمر النحيل قصير الشعر برأسه نحو الطاولة بأقصى حالات خجله.

- ما معنى هذا؟ بالطبع يستطيع. ولم لا يقدر؟

التفتّ نحو الطفل وقلت:

- هيا انهض ودعهم يرون أنك تقدر.

جائزة هيئة التقييم الخاصة 2008/ أيدن

في البدء بردت أحلام طفل

سوجان بولات*

كانت مدينة أرزينجان تتحضر للشتاء. الشوارع التي كانت حافلةً وممتلئةً في الصيف الساخن والخريف الذي تبعه أضحت فارغة. والصقيع الذي حلّ كضيفٍ غير مرغوبٍ فيه كان يدفع ثمن حبس الأطفال في بيتهم بقذف كيسٍ قديمٍ من مكانٍ لآخر. حتى الكنزة المحاكة يدوياً والتي كنت أرتديها لم يكن بإمكانه منعها من الحلول ضيفة على جلدي.

عند وصولي إلى مقابل المدرسة التي كانت لوحتها البالية مكتوب عليها "ابتدائية التحرير" كانت كفوفي قد تعرّقت عناداً للصقيع.

كانت المنازل المجاورة للمدرسة المكونة من ثلاث بنايات ملتصقة وفناء المدرسة الفوضوي تهمس لي بأن هذه هي المدرسة التي يدرس فيها أطفال فقراء الحي. دخلت من الباب الذي كان مكتوباً عليه كلمة "مدير". بعد تعارفٍ قصير أعطاني المدير معلوماتٍ مختصرة عن المدرسة والطلبة. لم يكن ماقاله يكذّب البيوت المجاورة للمدرسة.

معنى هذا أني سأعيش تجربتي الحقيقية الأولى في هذه المدرسة. لأول مرةٍ سألامس ضحكات الأطفال. لأول مرةٍ سأستنشق غبار الطباشير الذي أبقاني في أسره سنين طويلة...

*ولدت في 15 أيلول عام 1970 في مدينة إغدر. بعد دراستها للثانوية في مدرسة كاظم قارابكر للمعلمين تخرجت عام 1992 في جامعة الشرق الأوسط التقنية بتخصص تعليم الكيمياء. عملت في أرزينجان وطرابزون وإسطنبول، ومنذ عام 2008 وهي تعمل كمعلم لغة انجليزية في ثانوية أيدن التقنية. متزوجة وأم لطفلين.

في البدء بردت أحلام طفل

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

أطلقوا علي لقب "المعلم الأب" وعلى ظهر الرسالة أرفقوا كتابات سليم المختل التي كتبها بسرية؛ أجاءتني رسائل من مولانا ومن يونس أمره في نفس الوقت؟..

أي ريح مقلقة أخذت أرواحكم يا أطفالي وجعلتكم تشردون بعيداً؟ في أي ساعة بدت الشرارة على شفاهكم؟ أخبروني، احكوا لي...

"تذكر جاهد ضخم الجثة يامعلمي، الذي كان سبباً للشعرات البيضاء في رأسك... لقد توفي في حادث مروري..."

***

غرست خنجراً صدئاً في قلبي يابني!

تركت روحي تحت أنقاض زلزالٍ عنيف!

لماذا جعلتني أشرد في أحلامٍ زرقاء ثم تركتني للغيوم السوداء قبل أن أُخدع تمامًا!

آه ياشقائق نعمان أرضي البوار! يابراعمي حديثة النشوء!

ذلك الطفل كنت قد سامحته واستسمحته تحت نظراته الخجولة في مساءٍ يُتلى فيه كلام الله وتعانقنا طويلاً...

لم أعاتبه حتى...

لم تعد عظامي تؤلمني!... أقسم على ذلك...

الآن...

ثم حقلٌ من الأزهار

كل يومٍ أنظر إلى السهول الزمردية واقفاً أمامها....

وهل تنتهي الأزهار؟ لا أبداً...

يجب الهتاف لكل المعلمين:

احكوا يا أزهار اللبن والبنفسج عن فتوحاتكم!..

وهل تنتهي القلوب؟ لا طبعاً...

السوداء للمعلم خارج المدرسة عندما ينفذ صبره ويستخدم أساليب غير تربوية و استقوائهم عليه... عندما استعددت للسفر وخرجت فوجئت بيد ممتلئة تمتد إلى الحقيبة التي كنت أحملها. توقفت عن الإمساك بفرقة شعري الأبيض للحظة:

- كيف حالك معلمي، اترك لي حمل الحقيبة رجاء!

كان جاهد أمامي... استغربت بريق عينيه وحركاته وخجله ولكنني ناولته الحقيبة، ثم أخذنا نمشي نحو محطة الباصات بنظرات خجولة وجملٍ مختصرة. كان الطريق يستغرق عشر دقائق...

مرّت مغامرتي لسنة ونصف كشريط فيلم أمامي. في الحقيقة كان لدي الكثير من الأسئلة التي أردت أن أسأله إياها رغم معرفتي بأجوبتها. ربما كنت أرغب بفعل ذلك لا لنفسي بل ليواجه نفسه ويصارحها. كنت سأبدأ بالسؤال "هل كنت غريباً بالنسبة لك ياجاهد؟" ولكني أشفقت عليه. فرحت أسأل أسئلةً عادية. فارتاح وأجابني بإيماءاته.

وكما يقال؛ العين مرآة القلب. كان قد شعر بالمعنى في عينيّ بحيث كانت ذراعه تنخفضان في كل خطوة نخطوها، وخجله يزداد أكثر... لم يتحمل فامتلأت عينه بالدمع وكأن غيوماً أثقلت كاهله وبدأ لسانه يمطر. نفث مشاعره المتمردة ... تحدث عن بذور النفاق... اشتكى من قلة الحيلة وسوء القدر... أطال في الحديث عن كرهه للانسحاق بين طرفين والتردد بينهما...

انتظرنا وتحدثنا بالكلام والنظرات وطلبنا السماح من بعضنا ثم افترقنا. وحين كان الباص يعب الشوارع كنت أتصفح الذكريات التي تركتها خلفي كألبوم الصور ورحت أشعر بالأمل والتفاؤل بشأن المستقبل...

بعد عدة أشهر

وصلتني رسالة...كانت قادمةً من اللؤلؤة السمراء، "مدينة المنارات الخمس" بدأت بالمشاعر القلبية الحميمية، يحكون فيها عن حزنهم وتعاستهم وبؤسهم، ياللسعادة يارب: لقد اشتاقوا إلي!..

وتكمل؛

أأحزن على شَعري الذي ابيضّ أمْ على ألم عظامي التي تلقت ركلات في مباريات صداقاتنا المزيفة؟

ألن تفلح محاولاتي يارب؟ إلى متى ستستمر عظامي بتحمل الألم؟

يقال بأن نهاية الصبر السلامة، علينا نحن إنشاء المركب، ولا بد للريح أن تسوقها يومًا...

في إحدى الحصص...

كنت أشرح لجدران الجليد كالعادة... ارتحت للحظة لاستعادة أنفاسي.. وبينما أنا كذلك نهضت فتاةٌ ووجّهت لي سؤالاً فضولياً بخصوص الموضوع الذي كنت أشرحه... فتاة بروح السيدة خديجة قالت وبكل أصالة "أنا موجودة!!" أخيراً.

قالتها بإرادتها غير مكترثة بكل أصوات الاستنكار والاستخفاف. كانت زهرة لؤلؤ...

منهم من راقبنا بنظرات ملؤها الحقد ومنهم من كان مذهولاً ومنهم من كان سعيداً... تلك الفتاة ذات روح الفراشة الحرة أحدثت ثقباً كبيراً بأجنحتها الحريرية في القلعة...

في داخلي شعرت برغبة في أن أقول: "بالطبع يابنتي، بالطبع سأجيبك، بل سأنشر أمامك كل الكتب التي في داخلي!! ولكني لم أقلها. أجبتها بنصف ابتسامة ونصف عبوس، فجلست مكانها... أعتَبر ذلك اليوم كأهم وأغلى يومٍ في حياتي المهنية...

في اليوم التالي لم يكف نذل الصف الذي جرح غروره والمختل عن التجوّل في المدرسة دون صوت...

شقائق النعمان

رغم تحسيننا لوضعنا في الصف ولو قليلاً إلا أن البرودة بيني وبين هذين الاثنين دامت طوال السنة.

أحدهم كان اسمه جاهد، كبير الجسم. والآخر سليم، طائش ومستهتر...

كنت شاهداً بنفسي على اعتراض الفتية بشعرهم الرمادي وعيونهم

بيننا من هو معلم مثلي أنا. نجدّد الإخوّة ونقص حكاياتنا على بعضنا بعضا.

جاء الدور عليّ، كما كنت تقول: يجب عدم جعل الفضوليّ ينتظر كثيراً...

زهرة لؤلؤ سمراء

عام 2000

كنت في ثانوية بمدينة ذات خمس منارات. في صفٍ به خمسة وخمسون طالباً؛ كنت شاباً ومبتدئاً في هذا المجال... الطلبة ولسببٍ ما احتدوا وبنوا قلاعاً من الجليد حول أنفسهم... نرى ولكن لا نحس ببعضنا بعضا. كأنني أشرح الدرس لجدران. هذا نذل الصف وذلك مختله المزيف وذلك مجنونه... من كل نوع هنالك واحد...

في منتصف الدرس:

- ما الذي بيدك يا بني؟

- قطعة من الطاولة أمامي.

- ما مشكلتك يا ولدي؟

- مِشبك صديقي.

- من سيجيب عن سؤالي؟

- لا أحد يا معلم لا أحد، ليس بيننا من يفيدك، فالأبواب موصدة.

- ما هذا الامتحان يارب!

لم أيأس، وكما يقول أجدادنا فالحصان يحتاج إلى وقت من الترويض حتى يدرّب ويصبح جاهزاً للركوب. كم رأيت من أزهار البنفسج وأزهار اللبن... كما أني معتاد على نباتات الصبار...

أنتم لا تعرفونني، فأنا قلبي كبير. أحب أزهار الليلك والزنبق وشقائق النعمان... سأصبر عليكم وأعلمكم وأدربكم. فليدُر مولانا الرومي ولينشد يونس أمرا أشعاره. ليحكوا عن الصداقة والحب... ولتضئ قلوبكم الجريحة...

بعد شهر...

الألعاب تلعب بعنفٍ في هذه النواحي...

أكنت أنت من سارع بالخبر وجعلنا نلتقي في السهول الزمردية؟

كم هنالك الكثير من الأزهار في الدنيا يا معلمتي؛ لم أكن أعرف إلا بعضها. لكني تعرفت وأحببت وبودلت بالحب. تعرفين، قلبي كبير. كما أني أحب الأزهار كثيراً.

انظروا، دخل أحدهم إلى الصف الآن. يداه كبيرتان وجثته ضخمة... صفٌ صعب، ومزدحم، وبعضهم سفهاء.

نظر المعلم إلى الصف، نظر ثم انصرف دون أن يقول شيئاً...

من أين كان له أن يعرف أن حول بعضهم نباتات ثيل متسلقة وخانقة. ليته عرف أن والد ذلك الطفل مدمن على الكحول ووالد الآخر لديه مشكلةٌ أخرى...

لو عرف لما تركنا...

اسمه محمد...

لاحقاً علّمنا الغاية من الحياة... أعطانا كتباً، أضحكنا، أبكانا وأسعدنا. أي معلمٌ يستطيع خمسة طلاب أن يطرقوا بابه في منتصف الليل؟ فيستقبلهم بكل سرور إلى الداخل... يشرب معهم الشاي ويتبادل الأحاديث ويأكل التفاح. مكتبة عملاقة جاهزة في متناولهم في زاوية من زوايا البيت... في تلك الأيام وقعت في حب رائحة الكتب والمكتبات...

كان لديه طاقة قديمة، كنا نتجول في الأنحاء دونما كلفة، أنصاف الليالي في الأزقة... رحلاتٍ قصيرة، دردشات عذبة ومحادثات تدوم حتى الصباح... أليس هَمّ أقراننا هو اللعب الآن، أمهاتهم لاتعرف عنهم وآباؤهم لا يكترثون؟..

معلمي...

يبدو أنك كنت تعرفنا نحن وتعرف النباتات المتسلقة...

لو لم تكن تعرف لتركتنا...

الآن نحن في بيتي في عيد الفطر، منّا من أصبح رجلاً كبيراً، بيننا من هو برتبة ومنّا من هو دون... لكننا جميعاً رجال ذوي اعتبار ومع بعضنا بعضا...

لو تعرف فيم نتكلم...

زهرة الصبار

بداية الصف الثالث...

يبدو أن قدري تصادف مع هديتك بالحريق في يدي ولساني، ففي ذلك اليوم ودعتني وشفاهك متشققة كزهرة ثالوث مع أصدقائي بأعين دامعة من الزجاج الخلفي لباص القرية الأحمر والذي سيتدحرج بمن فيه نحو مجرى النهر في السنة القادمة أثناء طريق عودته. كنت ذاهباً إلى المدينة؛

في صباح يوم خريفي، كنت أذهب مجبراً مع حرقات القلوب،

أذهب مع الدموع... نحو البعيد.... لم أبق كثيراً

كانت عودتي إلى القرية بعد حصول حادث.

كان في المصلى تابوتان:

الأول لزوجة عمي والثاني...

أتذكرين قولك أن حتى زهور الصبار تزهر، لم أصدق حتى رأيت دموع زميلي...

كان صباراً ولكن أزهاره كاللؤلؤ...

رحلتي..لا أعرف إلى أين. كل فراقٍ هو بمثابة دمار في الحقيقة.

ألم تكوني ترددين أن المرء عندما يغمره الحنين يشرد بفكره بعيداً... آه يا معلمتي، في ذلك اليوم أدرت ظهري نحو مدرستنا القديمة التي غدت بائسةً دونك وشردت بعيداً وأخذت عهداً على نفسي أن أكتب يوماً ملحمة لأزهار البنفسج وأرسلها للسماء مع أسراب طيور الغرنوق داخلي... تعرفين أن قلبي كبير، وإن لم يكن بسعة قلبك...

أنا زهرة الزنبق يا معلمتي، زهرة الديار البعيدة.

استقبليني في أعماقك الكاكية بين حين وآخر، حتى لو في الأحلام، اتفقنا؟

زهرة اللبن الثلجية

وهل تنتهي الأزهار أبداً؟

كبرت، لم أعد صغيراً...

لا أجلس في الصفوف الأولى.

اسمي طالب ثانوية؛ حتى ساعدي أصبح كبيراً كقلبي تماماً...

أجلستِني في الصف الأول، كان سني صغيراً وقامتي قصيرة لكن قلبي كان أكبر من الولد السمين خلفي الذي كان يتمدد كلسان الحماة. لا أدري إن كنت تذكرين، في يومٍ صادفتك في مكان ما بالقرية وظهر لك كلب غاضب فطردته على الفور منقذًا إياكِ من فكّه الحاد، كان ذلك كلبنا زيوكيلي؛ لكني لم أستطع إخبارك بذلك، لأني أصبحت فارسك عندها...

علمتينا الخطوط؛ الخطوط المستقيمة والمنحنية والدائرية... بعدها وصلناها ببعضها فأصبحت "علي" و"كرة" و"امسك". كم كان صوتك عذباً، كم كان زاهياً بالألوان...

آه يا معلمتي!

أحياناً كنت تحكي لنا عن أبيكِ الفقير وأمكِ المريضة بأسى... عندها أدركت أنك أنت أيضاً أتيت إلى الدنيا بأحذية مطاطية سوداء... الآن أدرك سبب تكرارك لجملة "أكملوا تعليمكم ياأطفالي مهما حصل" دائماً.

أنتِ زرعتِ براعم ربيعية فيّ بينما كنت تعانين من ريح الشتاء الباردة.

ألست أنت من وصّانا بالتعلّم، ومسحت على رأسي ولمست يدي.

في الصف الثاني...

مازالت قامتي قصيرة وعمري صغير، مازلت في الأمام...

ليتك لا تحادثين الطفل عديم الاكتراث في الخلف! أنا سوف أراه بنفسي، نعم سوف أراه يوماً...

اعتنيت بنا ورعيتنا دائماً دون اكتراث بكهرباء الحضارة الضعيفة التي دائماً ما تنقطع. كان صفنا معتماً ولكن قلبك كان منيراً يامعلمتي. ذلك البريق في عينيك كان يساوي الدنيا ومافيها...

نهاية العام...

على الحائط لوحة قراءة جديدة... اسمي في أول الترتيب. ألم أقل لك يا معلمتي أن قلبي كبير...

أهديتني كتاباً، كان اسمه "حريق" لا أعرف إن كان روايةً أو حكاية ولكنني لم أرد إنهاء شيءٍ يتعلق بك... ربما لذلك السبب خبأته كأمانةٍ مقدسة في قلبي.

في اليوم التالي استيقظت أمي مع زقزقات عصافير الغسق الطازجة قبل طلوع الشمس ومسحت بيديها القطنيتين على أجفاني المتعبة التي قد تكون غفت لبرهة وأيقظتني إلى يوم أظهر جماله الرائع دونما تثاقل ودلال.

بعد أحلى إفطارٍ تناولته في طفولتي، وإن لم يكن رائعاً بذاته، خرجت إلى الشارع جارًا خلفي سيارتي ذات العجلات التفاحية. ربما لو رأيتني بتلك الحال لما قبلتني في المدرسة. لكن أمي كانت امرأةً نبيهة وذكية. قبل أن تدنو مني سلطت نظراتها النرجسية علي وأفهمتني بوجوب التخلّي عن بعض الأشياء وجعلتني أتذوق عذاب الضمير لأول مرة...

ثم دخلنا إلى فناء المدرسة من بابها ذي الثلاثة أظلاف. لم يسبق لهذا الفناء والذي هو أنسب مكانٍ نلعب فيه في أوقات الفراغ أن يبدو لي رسمياً بهذا القدر. وأمي مع تناهي الصوت الرقيق والحازم القادم من الصف فقدت جزءاً من إصرارها وهدأت، ارتخت أكتافها لا إرادياً.

انتظرنا لمدة...

نزعنا رنين الجرس الذي أصمّ أسماعنا من عوالمنا التي شردنا إليها. بعدها خرجتِ أنتِ بأصالة حورية من بيت الطلبة. كم كانت ابتسامتك ناعمة وكم كانت شفاهك حمراء...

كنت معلمة...

تعلمت اسمك يومها. استقبلتِنا في غرفتك الصغيرة. واستفسرت عن مطلبنا...

أخبرتك أمي، رجت وتوسلت... ثم بدأتِ أنتِ بالكلام دون تلعثم وكأنك ترددين أغنية. كم كان شعرك أشقرا، وكم كانت يداك رقيقة!..

كان ذلك أنتِ يامعلمتي؛ بوجهي المستدير وزيي الأسود وياقتي البيضاء، قبِلتني في مياه قلبك المتفتح كزهرة زنبق جديدة.

مَنَكْشَة

كان اسمك منكشة ووجهك وجه منكشة وتصرفاتك تصرفات منكشة... منذ ذلك اليوم خنت محبوبتي في الصف الخلفي... كنت عندما تضحكين تتفتح الأزهار في وجهك الجميل، كباقات من الألوان...

الثاني على تركيا 2008/ كيرسون -1

نحو فتح القلوب

أولكون ألبايراق*

الزمبق والنرجس

أنا أيضاً كنت من المتشبثين بالحياة مع أحذيتي المصنوعة من إطارات السيارات في مكان منزوٍ بعيدٍ عن المدن والحضارة... لاريب أن هذا هو سبب وعيي بالتربة ورفقتي للنجوم وحبي للأزهار.

عمري خمس سنواتٍ ونيف...

جميع أصدقائي في اللعب بدأوا الذهاب إلى المدرسة. الطفل بلا صديق ولعبة طفل بلا دنيا... شعرت بالاستياء وامتلأت عيني بالدموع ولكن أمي البشوشة فرقت الغيوم بيدها فظهر البدر يتلألأ في سمائي.

- لاتبتئس ياصغيري، سوف أسجلك بالمدرسة غداً وليقولوا ماشاءوا!

كأنها جاءت بي إلى الدنيا من جديد...

أتذكر تلك الليلة بتفاصيلها إلى الآن، بدايات شهر يناير، كنت لائذاً بأمي العطوف أنتظر تحت أجنحتها طلوع الصبح بفارغ الصبر وسط أنغام أغنية المطر الذي كان يتساقط بوتيرة منتظمة وكأنه يمسد على سقف بيتنا الزنكي وفرقعات احتراق حطب الزان ودفئه المنبعث...

*ولد عام 1976 في قضاء بولانجاق بمحافظة كيراسون. أتم تعليمه الأولي والمتوسط فيها. في عام 1998 أتم دراسة اللغة التركية وآدابها في جامعة سلجوق. باشر عمله في نفس السنة في ابتدائية بقرية صينير بمحافظة كيراسون. عمل بعدها في ثانويتي بولانجاق و10 مايو. وهو حالياً يعمل كمعلم للأدب في ثانوية الأناضول في بولانجاق. له ديوان شعري بعنوان "قلبي قافلة" متزوج وأب لطفل واحد.

نحو فتح القلوب

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

وجهها شاحباً ونفسها مكدرة وقانطة من الحياة. كما كان صوتها يصدر من القلب رقيقاً حنوناً حائراً ومحتاجاً للاهتمام.

وقبل نطق أي كلمة نظرت بعينها الضحوكة نحو الفراغ في الوادي وحالها يحكي أشياء كثيرة دون كلام. مسحت دموع عينيها بظهر يدها وأزالت البلل الملتصق برموشها ونظفت أنفها. كانت الخراف والحملان التائهة خلف الجبال تناديها. شعرت بالألم الذي تعيشه مع أحلامها المسروقة، راحت تنظر إليّ هكذا وكأنها تلوم قدرها. وكما فعلت معها قبل سنةٍ تماماً، ذهبَت مختفيةً من خلف التلة دون أن تنظر خلفها مثلما تذهب الشمس وتغرب عند جبال نمرود بعد أن تجمع مائدتها المباركة من الأرض. عائشة التي لم أغير عالمها ذهبت نحو عالمها الخاص، نحو أفقها.

أما أنا فقد بقيت بجانب الصخرة في حقل القمح أنزف بشكلٍ فظيع... الحياة تتدفق مني وقلبي يختلط بالرياح. كما تقع السماء في الخريف أسر الريح والأعاصير وتطفح كل الأماكن بالماء مع أصوات الرعود، وقع الشوق في عيني أسر صراخ عائشة الصامت كصراخ العصافير الواقعة في الشراك، أخذت أرتعد...

الآن كل ما أراه في الوادي العميق الذي يغمره الضباب لا يتعدى خيالاً عكراً. سالت دموعي مبللةً سنابل القمح، من يدري، ربما يساعدها هذا في أن تنبت بشكل أغزر وأكثر عطاءً.

عائشتي،

أكتب لك هذه الأسطر غارزاً رأس قلمي في قلبي. آه لو تعرفين كم تدمي أحلامك جروحي، أنا أرسم صورتك على السحب وعلى المسافات البعيدة... حالياً أجاهد حتى أكون شمعةً تحترق لتضيء حياة آلاف "العائشات" لأسدد ديني وأستطيع مسامحة نفسي في محاكماتي داخل نفسي، لكني مهما فعلت لا تفارقني عيناك أبداً...

عائشتي، أنا عاجز عن اللحاق بعينيك...

حتى إن كان هناك مايستوجب مني البقاء فقد قلت ماعندي ومضيت...

عندما نطقت الأم القروية بعينها الضبابية بالسبب الحقيقي بكل انكسارها وتألّمها أصاب الحزن والكدر قلبي كالرصاصة. كنت هذه المرة أجتاز طريق القرية لآخر مرةٍ بينما يختلط غبار عجلات السيارة مع دخان عادمها، ولكني في هذه المرة لم أكن أنظر خلفي.

في نهاية الطريق الترابي وعند بلوغي الطريق المعبد نظرت من مرآة السيارة اليمنى نحو سفح الجبل البعيد فرأيت مشهداً عِلق في المكان الدامي من قلبي وعيني الموشكة على البكاء، كانت طفلةٌ شعثاء الشعر تنظر نحونا وهي ترعى الخراف وسط شقائق النعمان التي تزين كل الأنحاء بألوانها المختلفة في الربيع.

جفلْت فجأة وجرى دمٌ حارٌ في جميع عروقي حتى أصبح بحيرة، شعرت بأشياء تتمزق داخلي لحظتها. أصيبت معدتي بتشنّجات من الألم. كأني وأنا أحاول الهرب من نفسي انحصرت في زقاقٍ بلا مخرج.

أوقفت السيارة على يمين الطريق فوراً ونزلت منها بصعوبة. كانت الطفلة الصغيرة التي ترعى الخراف ووجهها عليه آثار معاناة ألف سنة والتي لم أميّز من هي بعد ماتزال تنظر نحوي بلا سبب ودون أن ترمش.

أكانت إحدى طالباتي ياترى؟ مَن مِن اللواتي تركن في قلبي العطشان ذكرياتٍ بطعم الماء في هذا المكان الجاف الذي يشقق التربة كانت ياترى؟ تقدمت جارحاً سنابل القمح الصفراء التي تمنح ألف حبة من كل بذرة. نعم، كانت طفلةً بشعر مبعثر ومجعد تعرف لغة عيوني، تنصت دون سؤال، وتفهم دون كلام، لابد أنها عائشة.

أمشي وأنزف وأصرخ بكل طاقتي.

- عائشة بنتي أهذا أنت؟ أجيبيني.

ترددت أصداء صرخةٍ في كل الوادي.

- معلّمي.....!

كأن صدى الصرخة تردد في أعماق قلبي أولاً ثم لوّنت هذه البقعة الجغرافية عديمة الألوان والتي تلتهم الأحلام الكبيرة من أولها لآخرها. كان

قالتها ثم قادت عربة حصانها التي كانت محملةً بقوارير ملأتها بماء صاف كصفاء قلبها من سبيل القرية البعيد ورحلت.

نعم كانت جملة واحدة خارجة من فم هذه الأم القروية التي تحيط بها الكآبة والحزن، والتي تنجب الأبناء دون توقّف، والتي ينسكب حزنها في أنفسنا، كانت الجملة هذه بمثابة طعنة خنجر، وكانت كافية لشرح كل شيء. فلا أحد يرغب للبنات بأن يكملن تعليمهن هنا. لا أحد يرغب لهن بأن يتعلمن ويحققن أحلامهن ويتزوجن من دون صفقة مالية ويحصلن على مهنة وينلن ما يحببن!

لأول مرة أشعر باليأس والوحدة كمعلم في هذا المكان المحروم من كل شيء. أشعر بنفسي في نيرانٍ مشتعلةٍ من رأسي إلى أخمص قدمي لخذلاني يداً امتدت لي من أجل شوق لم يسبق أن ذاقه أحد وشعور لاتصفه الكلمات وحياة مختلفة تماماً لم يفكر فيها أحد من قبل. "اللعنة!، كيف لم أساعدها في تحقيق حلمها" لمت نفسي بكل غضب. تحدّيت كل شيء، بقيت وحدي في الليالي الظلماء بلا ماء وبلا خبز في معظم الأحيان ولكن طالما كانت آلة البزق في يدي أعزف عليها وأغني، لم يسبق لي أن بقيت صامتاً بهذا القدر. لم يسبق لي أن ارتعبت ولم يسبق لقلبي أن نزف هكذا بعد أن انتُزعت منه بضعة.

في نهاية سنتي الخامسة كمعلم في هذه القرية وعند صدور قرار نقلي إلى محافظةٍ أخرى وبينما كنت أوزّع الشهادات على الطلاب نطقت بعدة كلمات بعد استجماع طاقتي خوفًا أن ينعقد لساني. في اللحظة التي كنت أستعد فيها لقول "إلى اللقاء" نظرت عائشة إلى عيني وقالت بنبرة غاضبة وعلى وشك البكاء "لماذا لم يصدر قرار نقلك إلى مدينةٍ قريبة حتى يكون بإمكاننا أن نصل إليك كلما رغبنا؟ لماذا ذهبت إلى مكانٍ بعيد؟" تردد صدى هذه الكلمات التي فتتت قلب عائشة بين الجدران الحجرية للمدرسة أولاً ثم في رأسي بشكلٍ أذاقني العذاب، داهم الألم كل جانب في جسدي. أهو الندم، لكن وقت الرحيل قد حان، ، أم ترى أن لدي الطاقة على تحمّل عدم العيش كما يجب والبقاء هنا بعيداً عن الحياة صابراً في أرضٍ جرداء؟ لا، لا يمكن، فقد حان وقت الرحيل، لا يمكن البقاء هنا عندما يحين الوقت،

تكن عند حائط صخري وعلى ظهرها أخوها أو بين الأطفال تعيش طفولتها. عائشة ذات الوجه الضحوك الذي علق بذاكرتي لم أرها في أي مكان. لا أدري لمَ ولكن لم يبق في نفسي أثرٌ من سرور عند جلوسي أسفل جذع شجرة التوت... غمر روحي وجسدي شيء لا أستطيع وصفه. كنت أعيش لحظتها كثافة مشاعر متعددة. يمكننا أن نسمّيها قلقاً أعظم من الخوف، وحنقاً أكبر من الحزن، وعدماً يبتلع كل انتظار...

اقترب وقت العودة. ولا أثر لعائشة بعد. وأثناء استعدادي للعودة صادفتها برفقة أمّها في ميدان القرية. بادرت دون إضاعة أي وقت وقبل أن تنفض عنها مفاجأة رؤيتها لي:

- هل سجلتم عائشة في الصف السادس ياسيدة؟

- لم يعد والدها من عمله في الرعي بعد يامعلم. أتى بعدك إلى القرية معلمان لكني لم أتعرف عليهما لأنهما لم يبقيا في القرية أبداً. بالتالي لم يكن في قدومهما فائدة لنا، نحن قليلو الحيلة، منسيون وحائرون...

غمرت عيني عائشة الدموع، كانت كأنها تستعد لأن تقول شيئاً، لكنها لم تقل أو لم تستطع أن تقول شيئاً، وفعلت ما اعتادت على فعله دائماً، بكت. كانت قطرات دمعاتها الكبيرة التي رأيتها تنهمر من عينيها بكل عجز وإحباط في لون ثقل فقرها وبؤسها غير المحتمل.

- ولكن كيف لهذا أن يحدث؟ ألم أنبهك عند ذهابي. طلبت منك أن تتصلي بي إن لم تستطيعي. ألم يعد أبوها أبداً خلال عام؟ ألم يكن هناك أحدٌ آخر يسجلها؟ ألم تعديني وتعدي عائشة، لماذا لم تخبريني؟

كانت نبرة صوتي قد خرجت عن تحكّمي، كرهت نفسي. عندما كنت على وشك أن أتركهم راحت هذه الأم القروية تسكب أصل الحقيقة بصوتها الذي قد يرن في أذني كأغنية حزينة مثقلة بالرثاء لألف عام، وبتركيتها الركيكة ونظرة فخورة قالت:

- كيف أشرح لك!

في البداية بلعت ريقها، حارت لبرهةٍ فيما إذا كان عليها أن تنطق أو تصمت. استجمعت ما ستقوله بادياً عليها محاولتها تهدئة هيجان قلبها:

- في هذه القرية لايريد أحد للبنات أن يدرسن، لا يوافقون على ذلك!

خمس سنوات ولو للحظة. لطالما انتظرت قدوم الأطفال من البراري إلى المدرسة بحماس في عتمة الصباح كما أنتظر شروق الشمس على قمم جبل قاراجاداغ وأراقب طريقهم وأغذي عطشهم إلى الاهتمام والمحبة والمعرفة من أجل غد مشرق.

لكن كما قلت، كان وقت الرحيل قد حان ولم يعد التوقّف مناسباً... كنت وأنا في طرقات القرية الترابية كأني أمشي فوق أحلام من تركتهم خلفي ساحقاً إياها بقدمي...

لا أذكر كيف بلغت الطريق المسفلت بعد مشي سريع لمسافة كيلومترين. كانت توسلات عائشة تحتبس في حلقي وتقهرني وأنا أمشي. كنت أمشي فوق ذلك الطريق اللانهائي الذي يبدو كأنه يحاول إثبات أن من يرحل بعيداً سوف يُنسى وأنا أردد بيني وبين نفسي "ربما كان بإمكاني أن أتحمّل لسنةٍ أخرى في هذه القرية رغم كل المشقات." كانت الاتهامات والملامات التي ألقيها على نفسي تفتح في ضميري الجروح واحداً تلو آخر. في الحقيقة كنت قد كررت ونهت والدتها لكون أبيها يرعى الغنم في مكانٍ بعيد بأن عليهم أن يسمحوا لعائشة بإكمال تعليمها حتى تنتشلهم من مستنقع الفقر والعوز الذي هم فيه وتوفّر لهم حياة كريمة تليق بهم، حدّثتها مطولاً عن ذلك ولكن يبدو أن جهودي لم تكن كافية، داهمني الشعور بالذنب في كل أطرافي. كل ما فعلته أمّها هو هزّ رأسها موافقة على مافهمته من كلامي أو ما أعجبها منه....

العام 2006، في شهر مايو، يوم الأحد... وهل يُنسى ذلك اليوم؟ هل يمكن نسيان يوم مدمٍ للقلب مثله؟

بعد مرور عام، وعند اجتيازي لنهر الفرات الذي ينتشر في كل وادٍ يراه أمامه غير عابئ بأي سد يعترضه بواسطة مركبٍ سريع متوّجهاً نحو تلك الجغرافيا الصخرية، كانت تغمر أعماق قلبي حماسةٌ فريدة.

بعد رحلة استمرت لخمس ساعاتٍ تقريباً بلغت القرية التي انقطعت عنها لعام، قرية أول تلاميذ لي، ذوي النظرات الخشنة... ريثما كنت ألتقط أنفاسي في ميدان القرية كان أطفال القرية يتوافدون عليّ من كل مكان تعلو وجوههم مشاعر لايمكن وصفها. لكن عيني بحثت عن عائشة، كنت أكرر اسمها داخلي كأنني أهذي دائماً. لكن رغم مرور وقتٍ طويل إلا أنها لم

إليهم مرة أخرى أخيرة وأخبرهم عن رغبتي المتعطشة للتعلم."

كانت تستمر في التوسل بقلبها الممتلئ بحب التعلم...

"لكنك تعرف يامعلمي أنه ليس بقريتنا أجنبي عني. فكل الأطفال الذين يذهبون بالباص هم أقاربي. إما إخوتي أو أبناء عمومتي أو أبناء إخوتي أو أنسابي، وأبعد شخص منهم إلي هو "كروتي". نراهم كأكثر من إخوة أحياناً كما تعرف. الكروة لايُزوجون ولايُتزوج منهم، إلى هذه الدرجة نحن قريبون من بعضنا. هلا أقنعت والدي، آه لو يفهمني. لو يستمع إلى أحلامي التي لا تسعها قريتي ورغبتي الكبيرة في أن أعيش بعيداً في أماكن أجمل، أماكن لا ينقصها أقلام. صحيح يا معلمي، هل هناك مكان في هذه الدنيا حيث لايضطر أحدٌ لأن يتوسل من أحدٍ شيئاً؟ مكانٌ يستطيع أن يحقق المرء فيه أحلامه، لا أن تكون له مائدة طعام وافرة ومتاعٍ جميل فقط. أرجوك معلمي عد وأخبر أبي لمرة أخيرة ولأهل القرية، بل للدنيا إذا أمكن." كانت القروية عائشة تنطق الكلمات دون توقّف أو أخذ نفس. كان شعراء قد نسيت أسماءهم ينشدون أشعاراً في رأسي مع تضرعاتها المستمرة.

انتصبي ممتنعة كفرس صعبة المراس واقطعي اللجام

اصرخي ولو لمرة ياعائشتي، أين حقي؟

يومها كان لأسلوبها العنيد وتحديها لجميع العوائق وهي متمسكةٌ بأحلامها بكفها بالغ الأثر فيّ. لكني رغم ذلك، وفي توقيت سيّء صدمتها قائلاً: "لايمكن التوّقف في هذا المكان حين يحين وقت الرحيل، لايمكنك إيقاف هذا القلب الذي يستعر كاللهيب." ومضيت.

رغم كل شيء كانت هذه القرية هي قرّة عيني الأولى، مقرّ وظيفتي الأول، رغم قلة خبرتي كنت أول مكانٍ أتعلّم فيه إمكانية محبة الأطفال من كل الألوان ودون بحث عن مبرّر حتى لو كانت وجوههم ملأى بالجروح والكدمات والمخاط يسيل من أنوفهم. أما عائشة، بأحلامها العملاقة كانت من ضمن طلبتي المعدمين الذين حرصت عليهم والذين هم في حاجة إلى العطف والحنان. لم أستسلم لبراثن اليأس رغم الوحدة التي عانيت منها في الليالي الحالكة وزحف الثعابين وخبث العقارب والكثير من الأذى والمعاناة طوال

بعد مرور أربعة إلى خمسة أشهر وعندما رأيتها بدأت تسطر الجمل الركيكة التي تكوّنها في الصفحات غمرتني الفرحة كالأطفال وأصبحت الدنيا ملكاً لي. بعدها أصبحت أفكر في سعادتي عندما أحكي ذلك لآلاف المعلمين في قرى الأناضول. لأني تعلمت معنى أن تحقق حلماً من عائشة صاحبة القلب الكبير. هي علمتني كيف أكون إنساناً، كيف أحزن لحزن غيري وأتواضع للمساكين والمهمشين والبائسين. والأهم من ذلك أكسبتني قوة الصمود أمام المصاعب.

لكن الإنسان مضطر إلى مسابقة الحياة في كثير من الأوقات في هذه الدنيا الفانية عديمة الطعم. الحياة التي تفرض عليه أن يكون إما في المقدمة أو في المؤخرة وفي أسوأ الأوقات. أعلينا أن نلهث منهكين هكذا دائماً؟ في كثير من الأوقات تأخذنا رياح الفراق على حين غرة. تأتينا فجأة طارقة بابنا الحديدي وجدراننا الحجرية ونوافذنا العمياء محطمة الزجاج. عندها تبدأون في الاشتياق إلى ما عشتموه، والشوق مليء بالحنين في الأغلب. بالأخص لو كانت لكم ذكريات سعيدة، حينها يكون الشوق إلى الشمس في الليالي التي لاتكاد تنتهي كبيراً وإلى عزلتكم المنطوية التي قضيتموها وحدكم.

نعم، كانت قد مرت سنة على فراقي لتلك القرية ولابد أن عائشة الآن بمجهوداتها المميزة تقدم ما يعجز عنه غيرها في مدرسة المنطقة. لأنها كانت ومنذ أول يوم لها في المدرسة، اليوم الذي تركَت فيه البراري، كانت ودون اكتراث بالدم المتقاطر من تشققات يدها بسبب الصقيع تنفذ كل ما أقول لها بحرفية، وعندما تجد يداً تمتد إليها تتمسك بها وتخبرها بعينيها الصافيتين عما تستطيع أن تنجزه.

حتى اللحظة التي افترقت فيها عنها كانت ترجوني أن أقنع والدها بإرسالها إلى مدرسة المنطقة لعلها تكون أول فتاةٍ هنا تكمل دراستها بعد الصف الخامس. "ربما لمجرد هذا السبب ودون اعتبار لأحلامي ومستقبلي سيقولون: 'إنها فتاة. وهل يعقل أن تُرسل فتاة إلى مدرسة المدينة مع هذا العدد من الأولاد في نفس السيارة؟ من منكم رأى فتاةً تكمل تعليمها المتوسط؟ لاسمح الله قد تفسد ويصبح لها راتب شهري، عندها من يدري ماذا ستجلب علينا من مصائب أخرى' لكن أرجوك تحدث معهم كلهم بدءاً بأبي. أرجوك اذهب

أنفاسي في هذه القرية الخربة التي يترك الفقر فيها آثاره على وجه الإنسان.

في اليوم الأول وعندما التقيت في المدرسة المبنية بالصخور الباردة بالأطفال ذوي القلوب الدافئة تبرعمت في قلبي أزهارٌ بألوان متعددة؛ كالأزهار التي تتفتح في شفاه الربيع الخضراء. عندها أدركت أن اسمي كان يجب أن يكون "أمل" بدلاً من كلمة "معلم" الجافة من أجل عائشة وآلافٍ غيرها...

بعدها رأيت من الجهة المتمزقة من النايلون الذي يغطي النافذة مشيها متعثرة خلف الخراف والحملان بين الصخور المتفرقة عند أطراف جبل قاراجاداغ كالفطر. كانت تلك الحركات التي علقت بقلبي حركات عائشة. كانت ماتمنيته حينها هو أن أرى يدها المتشققة والمهتزة التي رأيتها من المكان الممزق في النايلون الذي يغطي النافذة ممسكة بالقلم .

في العام 2006، الشهر مايو، في يوم الأحد... كان قد مضى عام واحدٌ منذ فراقي للقرية التي كانت أول مكانٍ أمارس فيه وظيفتي، والتي ذهبت إليها في البداية بحلم أن أحقق أحلامي الطازجة وأنا في سنوات شبابي وقضيت فيها خمس سنواتٍ مع أطفال بقلوبٍ كأزهار القرنفل متحملاً كل الصعوبات. لكنني لم أستطع تحمل قضاء الأيام التي تمضي بعيداً عنهم، وقد كانت توسلات عائشة لي بأن أبقى أكثر ما لازمني طوال سنةٍ كاملة. كنت قلقاً عليها. لأنني في اليوم الذي رأيتها تركض فيه في البراري وأخذتها من هناك إلى صف المدرسة مع أقرانها أصبح قلبي فسيحاً كالبحار وبارداً منعشاً كالأنهار في شهر أغسطس. وأصبحت الدنيا بما فيها ملكي...

في هذه الجغرافيا الخطرة التي تحكمها رياح الشمال القاسية كانت عائشة واحدة من بين آلاف الفتيات المهمشات المسحوقات المتزوجات دون رضاهن واللواتي تقاس قيمتهن بقدر مهورهن التي تقيد أحلامهن ويمنعن من الحب، يعملن في حقول القطن بالصيف ويتحولن إلى خادماتٍ في بيوتهن بالشتاء.

كانت رؤيتها تلعب مع أقرانها في المدرسة بحماسة وفرح بعد أن أقنعت والدها بصعوبة، وأنقذتها من مشاهدة مدرسة القرية من المنحدرات المقابلة في شرود شعور رائع يصعب وصفه. وصوتها وهي تنطق الكلمات متجاهلةً بعض الأحرف "معنّم" سيبقى يتردد في أذني كلحنٍ مثقل بالأمل.

الثاني على تركيا 2008/ أديامان - 2

الصرخة في وادي قلبي

إبراهيم قايا*

عائشتي؛ إن الكتابة عنك في بلدي ربيعية الوجه طعنة خنجرٍ باردٍ في أكثر أماكن قلبي زحاماً. كتبت في شعر "الحلم الذي رحل" كنسائم لا تحتمل على صفحة الماء. لم يجدِ ذلك، فزلزلت "ذكراك" باقياً في مناخ الآفات والفقر هذا. أستلتفتين وتركضين نحوي عندها بوجهك الضحوك وكل كيانك فوق حقل شقائق النعمان؟ أستهتفين لي "معلمي!" من جديد بهدوئك القاتل؟ أم سترحلين مجدداً رامشةً بعينيك نحو الشمس المشرقة بألقها المنعكس على قمم الجبال غير عابئةٍ بشيء؟

أعرف ياعائشتي؛ فالكتابة عنك هو إصاخة السمع للصرخات الصامتة للأطفال المحرومين دونما كلل أو ملل في هذه الجغرافيا المعدمة والمتعرقة. كما هو الخروج لسلوك طريقٍ في الظلام الحالك برأسٍ شامخ لا يأبه لكل المخاطر ولا يخجل؛ الكتابة لمن يفهم عن الحال...

في اليوم الذي خرجت فيه مسافراً وأنا أردد "وأخيراً! أصبحت معلماً!" في طرق الأناضول الترابية المغبرة، كان ذلك في الفصل الذي تتوجّه فيه الطبيعة والناس إلى كل شيءٍ دافئ. كنت بدوري ذاهباً بدفء قلبي في سرعةٍ نحو قريةٍ بعيدةٍ ومنعزلة وعرة الطرق معدومة الماء والكهرباء كأنها قرية لا توجد إلا في الحكايات. كان الزمان يجمع فراقاتٍ لا تحتمل في أجمل أوقات عمري الشاب. بعدها عندما كنت أعود إلى وحدتي في ظلام المساء ألتقط

*ولد عام 1974 في قضاء قارايازي بمحافظة أرضروم. بعد إتمامه دراسة تعليم الصفوف الابتدائية في جامعة أولوداغ عين في مدرسة ابتدائية سيوَرَك خاتون دره. بعد أن خدم فيها لخمس سنوات عين في مدرسة ابتدائية قاهتا أقينجيلار ومازال يعمل فيها إلى اليوم. له ديوانان شعريان منشوران أحدهما بعنوان "يشتعل يأسك في قلبي" والآخر بعنوان "أنا لحنٌ مثقل بالرثاء" متزوج وأب لطفل واحد.

الصرخة في وادي قلبي

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

بعد ذلك اليوم. جميعهن اتخذن القرار دونما حاجة لاستشارة أحد. كما أراد المعلم مسعود تماماً.

مرت تسع سنوات بالتمام، أنا على وشك التخرّج في الجامعة . أدخل إلى الجامعة بحجابي وسأعمل به أيضاً. وأنا متأكدة حتى النهاية بأن البذور التي زرعتها أنت وأمثالك، وليس أنا، قد أنبتت واخضرت وأعطت أطيب الثمار.

سأقول سلمت يدك بدل يديك يامعلمي مسعود.

كيل الشتائم. أرخت قبضة يدها أمام وقفة المعلم مسعود الحازمة لكنها لم تتركني. بدأ بالكلام دون أن يترك لها مجالاً لأن تقول شيئاً:

- أنت والناس الذين يفكرون مثلك لم تعترفوا بحق العيش للذين لا يشاركونكم نفس الأفكار أبداً. لم تؤمنوا بأن لهم الحق في الاختيار وتشكيل حياتهم كما يريدون. والآن تسكبين كل ماتجمع داخلك من حقد على هذه المسكينة قاصدة إيانا جميعاً لكنني لن أسمح بذلك. لن أغضّ الطرف عن أذيتكم لهذه الطفلة وغيرها ممن لديهم الحق في اتخاذ قراراتهم بأنفسهم. ودون اكتراثٍ باليد الصناعية المتأرجحة سحبني من أيد المعلمة سربيل وذهب بي.

دخلت إلى المدرسة وأنا أشهق بالبكاء دون أن أنزع حجابي. عندما رأتني معلمة الدين التي نزعت حجابها أمام المرآة وعدّلت شعرها المتناثر على هذا الحال اختنقت هي بالشهقات أيضاً. قالت: "كل هذا سوف ينتهي وينقضي يابنتي، بنزعك حجابك ودخولك إلى المدرسة ستشقين طريق الحرية لمن يفكرون مثلك في المستقبل."من خلفنا جاء المعلم مسعود وغيره من المعلمين. جميعهم كانوا يحاولون تهدئتي ومواساتي لكني لم أكن في حاجة إلى ذلك. كنت أشعر بنفسي كقائد مظفر. نجحت في عملٍ كبير ببدني وقلبي الصغيرين.

من بعد ذلك اليوم جاء الكثير من الأشخاص إلى مدرستنا. أشخاص كثر يأتون بسيارات سوداء من مديرية التعليم ويأخذون إفادات المعلم مسعود وهو يدافع عن نفسه. قال المدير للمعلمة سربيل بأنه سيدعمها حتى النهاية إن رفعت شكوى على المعلم مسعود، ففعلت. كان يغيب عن بعض الدروس، يطلبون منه أن يحكي تفاصيل كل ماحدث. أخبره المفتشون بأنه لو اعتذر منها وسحبت شكواها فسيتم إقفال الموضوع وتعود المياه إلى مجراها. كان ذلك أكثر ما أثار استياءه. رفض اقتراحهم قائلاً: "هل سأعتذر لأني لم أسمح لها بأن تهين طفلةً كل ذنبها أنها أرادت أن تعيش كما تريد." كانت معلمة الدين تحكي لنا بما صاربكل فخر.

أصبحنا نحن أيضاً ننزع حجابنا قبل الدخول إلى الفناء. لم تكن المعلمة سربيل مسرورة لذلك؛ لأن العشرات من الصديقات قرّرن ارتداء الحجاب

- أنت إحدى الطالبات اللواتي أهتم لأمرهن وأقدّرهن كثيراً في هذه المدرسة. أما بخصوص قرارٍ مهم مثل هذا فعليك اتخاذه بنفسك، دون أي توجيه من أحد. عليك أن تتخذيه وحدك. قالها ثم نظر إلي لمدة.

في مساء ذلك اليوم أخبرت أمّي بنيتي لكني لم أشعر بأي من التوتر والهيجان الذي شعرت به وأنا أكلّم معلّمي مسعود. سُرّت أمّي كثيراً. قالت "دعيني أخبر أباك" لكني قلت لها "أريد أن أخبره بنفسي، أريد أن أعيش هذه المرحلة بنفسي." ذهبت إلى أبي وأخبرته بنفس البرود. رأيت نفس بريق الفرحة في عينيه. لم يبق لي إلا أن أذهب إلى المدرسة بحجابي غداً، وهو الجزء الذي كان يخيفني ويوتّرني. كانت فرحة عارمة تعم البيت. كانت أمي تردد "كم يبدو جميلاً عليك." وأبي كان مسروراً وهو يفكر "ابنتي كبرت وتحجبت" أما أنا فلم أكن أفكر إلا بالمدرسة.

كانت أكثر معلمة مستاءة من الكتب التي نقرأها والتغيير الذي تلاحظه علينا هي المعلمة سربيل. أحياناً كانت تأخذ الكتب من أيدينا، تنظر إليها باستخفاف وتعلق بكلماتٍ مهينة وساخرة ثم تعيدها إلينا وتمضي. وأحياناً تحاول أن تعطينا من الكتب التي تقرأها هي، وعندما نخبرها بأننا لم ننتهي من قراءة الكتب التي لدينا بعد تتحدث بسوء قاصدة المعلم مسعود دون أن تعينه بالاسم.

كيف كان لي أن أعرف أن المعلمة سربيل كانت هي المناوبة في الفناء ذلك اليوم. لو عرفت لما تغير شيء في الحقيقة لكني على الأقل كنت سأجيء مستعدة لأي نوع من الإهانات منها. أثناء مشيي نحو فناء المدرسة، وقبل حتى أن أدخل من الباب ذكّرتني يد تطبق على ذراعي بقوة بأن عليّ أن أنزع حجابي قبل الدخول. كانت ترافق تلك القبضة التي حبست مجرى الدم، والتي لم تكن لأحد غير المعلمة سربيل، أنواع الإهانات والشتائم، لكني لم أشعر بغير الرغبة في البكاء. معلمي مسعود والذي علمت فيما بعد أنه كان يراقبني من الدور الأول وأنا متوجهة نحو الفناء بابتسامة، أسرع بالنزول على الفور عندما رأى ما يُفعل بي. يده الصناعية خرجت من كتفه أثناء ركضه وأخذت تتأرجح وهو يهبط السلالم قافزاً، قال للمعلمة سربيل بنبرة صوت محذرة لم أسمعها من قبل بأن تتركني ولكنها لا تركتني ولا توقّفت عن

أكان ذلك بسبب الكتب التي قرأتها أم بسبب إعجابي بالمعلم مسعود وبما فعله من أجل جميع القرية بيده الواحدة، لا أعرف، لكني قررت أن أعيش وفق ما أقتنع وأؤمن، وكنت بعقلي الصغير أعتقد أن أول خطوةٍ في سبيل ذلك هي ارتداء الحجاب. كانت النساء في عائلتي وبيئتي محجبات، رغم أن صديقاتي لم يكنّ كذلك. كان على هذه أن تكون الخطوة الأولى بالنسبة لي. لم أكن لأستطيع الدخول إلى المدرسة بالحجاب، فحتى معلماتي المحجبات كن ينزعن حجابهن في فناء المدرسة ويدخلن إلى الصفوف بشعورهن غير المنسقة، لن يُسمح لي أبداً بذلك. كلنا شهدنا الجدل الكبير بين المعلمين الذي حدث عندما جربت معلمة الدين أن تنزع حجابها داخل المدرسة بدل أن تنزعه في الفناء.

كنت سأرتدي الحجاب لكن ما الذي سيقوله المعلم مسعود، كيف ستكون ردة فعله؟ ومالذي سيفعله بعض معلمي ومعلماتي الذين يحبونني كثيراً لكوني الأولى على المدرسة؟ كل ذلك كان غير واضح، لكن كانت المرحلة التي يجب عليّ أن أمر بها بدأت بالنسبة لي.

في ذلك الصباح، وفي أول فسحة فتحت باب المكتبة على أمل أن يراه ويأتي ليسأل عن سبب بقائه مفتوحاً. لأننا لم نكن نستطيع فتحه قبل الفسحة الطويلة. لماذا أردت أن يأتي إلى المكتبة، لماذا لم أذهب لأتحدث إليه، لا أدري. ربما شعرت بأني سأكون مرتاحةً أكثر بين الكتب. جاء فوراً كما تمنيت. لا أذكر أن أي حدثٍ في حياتي جعلني أتوتر بهذا القدر. سألني ممازحاً "لماذا فتحت المكتبة؟ ستجعلين لنفسك امتيازاً وتأخذين كتاباً؟" قلت بصوت منخفض بالكاد سمعته أنا "أريد أن أسألك شيئاً يامعلمي." قال "تفضلي." بنبرة من أدرك جدية الموضوع. خرجت الجمل من فمي بصعوبة:

- قررّت أن أرتدي الحجاب يامعلمي.

كنت قد فكّرت في سيناريوهات عديدة عن ردّات فعله المحتملة. جهّزت جواباً لكل كلمةٍ قد يقولها لكن لم تكن له أي ردة فعل. ولم يقل شيئاً. نظر إلي وكأنه يريد مني أن أكمل. "مارأيك، ماذا علي أن أفعل." سألته. عندها بدا على وجهه عدم الرضا. وكما يفعل في كل مرة راح يكون الجمل جملة جملة:

يوجد حولي أحدٌ يعيش مثله، وأحياناً أقول لم يخبرني أحدٌ حتى اليوم كيف يجب عليّ أن أعيش، لكن قلبي لم يكن يطمئن لتلك الأعذار.

كنت أعتقد أنه يهتم لأمري أنا فقط لكوني الأولى على المدرسة. ولكني عندما علمت عن ذهابه إلى بيت إحدى صديقاتنا التي يرفض والدها ذهابها إلى المدرسة ومحاولته إقناعه بأهمية تعليمها، أدركت كم كانت أواصره مع جميع المدرسة وثيقة. على الجميع أن يدرس ويتعلم حتى المرحلة الجامعية أو الثانوية على الأقل. فالحياة في القرية أو العمل في الحقول أو كونك أنثى ليست أسباباً تنفي أهمية التعليم.

تقريباً أصبح الآن لدى جميع طلبة المتوسطة الكتب التي وزعها المعلم مسعود. تعرفنا على سزائي قاراقوج ونجيب فاضل ونوري باقديل وجاهد طريف أوغلو بفضلها. كنا نكتب على هوامش الدفاتر ومقدمات الكتب اقتباساتٍ من أشعارٍ راقت لنا، ونبقيها مفتوحة على طاولاتنا حتى يراها معلمونا عندما يمرون بجانبنا ويعرفون أننا نقرأ. كان ذلك يثير إعجاب بعضهم، يلتفتون إلى الصف ويقولون "أنتم تقرؤون لأكبر أعمدة الأدب بينما يكتب أترابكم كلمات الأغاني على دفاترهم، ماتفعلونه شيءٌ عظيم." بينما كان بعضهم الآخر من المعلمين لا يرغب حتى برؤية كتبنا.

في غضون فصلٍ دراسيٍ واحدٍ تغيّرت مدرستنا كثيراً. أصبحنا نبقى في صفوفنا أثناء الفسحة الطويلة وفسحة الظهيرة لأن هذه هي الأوقات التي يُسمح فيها بتبديل الكتب. كنت أنا مسؤولة المكتبة. أسجل أسماء مستعيري الكتب وأمحو أسماء معيديها، أتفحص الكتب الجديدة التي يأتي بها المعلم مسعود قبل أن أسجلها في سجل المكتبة. كان أبي مغرماً برائحة السيارات الجديدة بينما كنت أنا مغرمةً برائحة الكتب.

هو بدوره كان يقضي جميع أوقات الفسح في المكتبة ولا يمر بغرفة المعلمين أبداً. يأتي إلى المكتبة أو يجلس في الصف فقط. في الحقيقة كان سبب توليّ مسؤولية المكتبة هو مجيئه إليها دائماً. أصبح لدي فرصٌ أكبر للحديث معه. لم أكن أستطيع سؤاله عن كل مايثير فضولي. أخشى أن أثير انزعاجه بما أنه قليل الكلام. رغم ذلك كنت مع صديقاتي أستغل أي سببٍ لجعله يتكلم.

كانت مدرستنا مدرسة قروية. ولم يكن بها مصلى، لذلك في وقت الظهر كان الطلبة الذين يصلون يذهبون إلى منازلهم، والمعلمون يذهبون إلى المسجد القريب. في عدة مراتٍ قدم المعلم مسعود طلباً إلى المدير بتحويل أحد الصفوف الشاغرة إلى مصلّى، ولكنه في كل مرةٍ قوبل بالرفض. وقت صلاة الظهر كان دائماً ما يذهب ليصلي دونما اكتراثٍ بالأمطار والثلوج والطرق الموحلة، عند ذهابه كان ينظر إلى الطلبة الذكور وكأن عينيه تقول هيا تعالوا أنتم أيضاً، لكنه لم يكن يقولها بلسانه. كم كنت أتمنى لو كنت ذكراً لأذهب معه إلى المسجد وأصلي خلفه. حتى إنني في إحدى المرات، ومن استيائي لذهابي إلى البيت بدل المسجد قلت لأمي عندما فتحت لي الباب: ليتك أنجبتني ولداً.

كنت أتواجد في كل فعاليةٍ ينظمها. وأنضم إلى أي نادٍ يكون مشرفاً فيه. كنت شغوفةً بالمسرح كثيراً، لكني لم أكن آخذ دوراً تمثيلياً في أيٍ منها خوفاً من أرتكب غلطة أو لا أجيد التمثيل كما يريد تماماً. مع ذلك كنت أحضر في كل تحضيرٍ وكل بروفة في الصالون متعدد الاستخدامات الواقع في الدور السفلي للمدرسة، خوفاً من أن تفوتني كلمة يتفوّه بها. أحياناً كان يلتفت إلي ويقول: حتى الممثلون على المسرح لا ينتظمون في الحضور بقدرك يارقية، ماشاء الله، أنت دائماً معنا. وكنت أقول له ووجهي متوردٌ بعض الشيء إنني أتعلم منك معلمي، أحاول ألا أفوت التقنيات التي تعلّمنا إياها.

في ذلك اليوم لم ننصرف بعد البروفات مباشرة، جلس معنا المعلم مسعود وتحدثنا قليلاً. لم يكن شيئاً قد اعتدنا على حصوله. نظرت حولي حتى أرى إن كنت أنا الوحيدة التي تصغي إليه باهتمام، ورأيت أن الجميع كان كذلك.

حدثنا عن العيش، العيش كما نؤمن. قال لنا "إن لم تعيشوا وفق قناعاتكم ستتشكل قناعاتكم وفق ماتعيشونه" كانت كلماته كأنها موجهةً لي أنا بالذات يومها.

قالت أمي "أنت شاردةٌ اليوم يابنتي." كانت كلمات معلمي مسعود تتردد في أذني. إنه محق، فأنا أرغب بأن أكون مثله ولكني لا أعيش مايعيشه ولا أفعل ما يفعله. كنت أفكر في أسبابٍ وأعذارٍ تجعلني محقة. أقول لنفسي إنه لا

الثاني على تركيا 2015 / يوزكات

ليتني كنت يدك الأخرى

رقية جوشكون

كل صباح، وفي كل مرةٍ أدخل فيها إلى المدرسة تبحث عيناي عنه. في طريقي إلى المدرسة أدعو الله ألا يكون مريضاً وألا يأتي متأخراً. فأنا أعرف جدول حصصه أكثر منه. أعرف أين يكون في أي يومٍ وأي ساعة جيداً. في اليوم الفلاني أين تكون حصته، والساعة كم يأتي، وفي أي ساعةٍ يخرج من المدرسة، كلها في ذاكرتي. وهو يعرف أني أعرف. عندما يراني في الممرّ يقول : "لم تعد هناك حاجة لأنظر إلى جدولي، أخبريني في أي ساعةٍ أين يكون درسي القادم؟" أحياناً بقصد المداعبة، وأحياناً أخرى بقصد إثارة خجلي.

كان يشرح اللغة التركية بشكلٍ رائع يجعلنا نردد ونشعر كم نحن أجانب عن لغتنا الأم. لم يكن يعايرنا بجهلنا أبداً. الكثير من المواضيع التي أدخلت إلى المناهج التعليمية الحالية كان يشرحها لنا من قبل. لكنه لم يكن يقول شيئاً. كان فقط يقول : "وهل بقيت كلمةٌ لم تُقل تحت هذه السماء، وما الذي تقدر عليه الكلمة؛ يجب أن نعمل، ونجرب." وهذا ما كان يفعله. كان المعلم مسعود يعيش وفق ما يراه صواباً ولكنه يسعى لأن لا يوجّه لأحدٍ أي عظةٍ أو درس مباشر.

كان قد أخبرنا أن ذراعه قد علقت بمؤخرة دراجة نارية وهو صغير في القرية. ولأن ذراعه تقطعت لم يستطيعوا خياطتها من جديد فاضطروا لقطعها من فوق المرفق و أسفل الكتف. وركبوا له يداً صناعية. عندما يريد الجلوس كان يمسك بيده الأخرى يده الصناعية ثم يجلس. في كل مرةٍ أراه يفعل ذلك يحترق قلبي حزناً عليه وكأنه تعرّض للحادث للتو. وقتها كانوا يطلقون على أصحاب مثل تلك الحالة كلمة "معوّقين" وليس "ذوي الاحتياجات الخاصة" كان إطلاقهم كلمة معوق على المعلم مسعود يثير غضبي، فهو ليس معاقاً في نظري.

ليتني كنت يدك الأخرى

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

أن تشبه حكايتي إلى هذا الحد. لي معلم يلوذ بدموع أمه ويستمد منها القوة. لم أكن الوحيدة. كان في ضعف أمه وعجزها قوة له. كنت في الليالي التي أعانق فيها أمي وأطلب منها أن تكف عن البكاء، الليالي التي أختنق فيها بالشهقات، كنت أظن أني الوحيدة ممن يعيش هذا. كنت مخطئة. لقد درس الابتدائية في القرية وأنا درستها في حي فقير لمدينةٍ كبيرة. نفس الأقدام سحقت طفولتنا، هربنا من نفس الثقب الأسود. معنى هذا أن لي معلماً نضج في طفولته. ألم يقل لي عندما سمع بأحلامي لقد نضجتِ يابنيتي الجميلة. قلت لك أني مجبرة، فالحياة لم تسمح لي بأن أعيش طفولتي. أدركت الآن أنها لم تمنحك الفرصة أيضاً.

لديك ابن الآن. ربما سيكون هو من يعيش أجمل طفولة. طفلٌ محظوظ، يحظى بأبوّة أطيب أب في الدنيا. عندما أخبرتك بذلك قلت لي: إنني ابنتك أيضاً. نعم، كنت محظوظة، وأنا سعيدة بذلك، أنا أيضا ابنتك. رددت عروض توظيف المؤسسات التي عرضت عليك ضعف راتبك. أخبرتني بأنك أخذت على نفسك عهداً بأنك ستكون بجانب الأطفال الذين عاشوا طفولة كالتي عشتها. عندها وأكثر من أي وقتٍ آخر كنت ابنتك. عندما قلت بأنك أنت أيضاً نشأت في مكانٍ كهذا، بين التلال التي استحالت جبالاً، عندها كنت ابنتك أكثر من أي وقت آخر.

بعد سنة من الآن سنصبح زملاء في المهنة، أنا طفلتك، وطفلتك تكبر يامعلمي. أنا أيضاً ستكون لي غرفة إرشاد. سوف أطلي الجدران كما فعلت أنت. سأكتب على بابي: "قد لا أستطيع حل مشكلتك، ولكنني أجيد الاستماع.". سأعلّم أطفالي ما تعلمته منك. سوف أكرّس ليلي ونهاري من أجل سعادتهم. سأنسج أحلاماً زرقاء على رأس الرابية من أجلهم. سيكون لي أطفالٌ مثلك يامعلمي أليس كذلك؟ أطفالٌ يلتصقون بركبتي ويركضون إلى غرفتي في الفسح. قد يرسمون من أجلي وأعلق رسماتهم على لوحة الإعلانات كما فعلت أنت. إذا أصبح لي أطفالٌ كما لك فسأعلمهم أجمل ما تعلمته منك "الصبر والشكر ووفاء العهد.". وأهمية الابتسامة، وطبيعية البكاء. سأقول لهم أحبوا وتمسكوا بأحبائكم كما تتمسكون بالحياة. كما سأعلمهم قوة الدعاء. وأن سرّ السلام والطمأنينة موجود فيه. سأحكي لهم عنك، سأقول لهم أن سبب وجودي هنا هو ذلك المعلم صاحب القلب الكبير. صحيح، أخبرني، كيف لي أن أوفي دينك لي؟

وأنا أبكي. وعندما انتهت أعطيتني المجال لأقول رأيي، كم شعرت بالفخر. كان هدفك هو دعم معلمٍ آخر يتعالج من السرطان ورفع معنوياته. كم كنت مراعياً ورحيماً. أيوجد معلمٌ آخر له مثل قلبك؟

مرت الأيام وأصبحت ممثلة الصف في الصف الثالث متوسط . لأول مرة أصبحت أقابلك وأكلمك كثيراً. لابد أني أصبحت أحد أولئك الطلبة المحظوظين، فأنا لا أكاد أخرج من غرفتك. كما أن غرفتك تم نقلها من طرف الممر وأصبحت غرفة لها أربعة جدران كالصندوق. تدخل إليها الشمس، وتطل على الفناء. كانت مساحة الفناء الأمامي واسعة؛ هناك يصطف الطابور، وهناك نلعب ألعابنا. كانت تلك الغرفة قليلة الإمكانيات أجمل وأكثر أماكن المدرسة بعثاً للطمأنينة. تلك الغرفة هي خير تمثال لخدمة الإرشاد، حتى الآن ودوماً.

نعم، كنت محظوظة ولكن لحظة، ألم أكن كذلك؟ لا ، بل كنت أعثر الناس حظاً. كنت من الذين خسروا عند ظنهم بأنهم فازوا. فقد كنت على وشك التخرج عندما تعرفت إليك عن قرب. لن أكون قادرة على الانضمام إلى الاجتماعات وأن أدخل غرفتك أو أدهن جدران المدرسة. ماذا لو لم يكن في الثانوية التي سأذهب إليها غرفة إرشاد مثل غرفتك، ماذا لو لم أجد معلماً مثلك هناك، ما الذي سيحصل حينها؟ لم يكن هنالك خدمة إرشاد مثلها، ولم أصادف حتى الآن معلماً مثلك لكنك لم تجعلني أشعر بالنقص، فأنت لم ترفع يدك عن كتفي أبداً.

لم تكن برودة الربيع قد انتهت بعد. رأيتك بالفناء الأمامي في يوم يذكرنا بالشتاء. عليك معطفك الأسود. لماذا كنت وحدك؟ لماذا كنت تجول في الحديقة في ذلك البرد؟ وفوقها كنت ساكناً، كبئرٍ عميق، لم تكن تجري كما في السابق. علمت أن أمك توفيت. ذاك كان سبب كونك وحيداً. كان لك أم عجوز تحبها كثيراً، هذا كل ماكنت أعرفه حينها. ولولا أنك لم تكتب مذكراتك لما عرفت حكايتك.

كنت في الثانوية حين صادفت المذكرات التي كتبتها أنت بفضل الإمكانيات التي وفرتها لنا وسائل التواصل الاجتماعي. كنت أقرأها واحدةً تلو الأخرى. أنهيها وأباشر بقراءتها من جديد. كنت مذهولة. كيف يمكن لحكاية معلمي

يومها مبتهجين كالأطفال" أنت أيضاً كنت كذلك. وإلا فما الذي يجعلك تطلي الجدار معنا تحت تلك الشمس الحارقة.

وكما تجدد المياه نفسها باستمرار، وتجول الدنيا، كنت أنت أيضاً كذلك. كان يُعتقد أنك تقضي وقتك في غرفتك ولكنك في الحقيقة كنت تجول بكل المدارس. وحتى إن لم تذهب إليها فإن مشاريعك واسمك يصل إليها. كان؛ لك مشاريع توعّي بالوعي. ماذا كان أجملها؟ "إن آمنت فسيمكنك النجاح!" أظهرت للطلبة الذين لم يلقوا تقديراً من آبائهم وأمهاتهم، الذين لضعف أدائهم في الفصل علّق المعلم على نحورهم يافطة "كسول" ودفعهم إلى آخر الصف، الطلبة الذين فقدوا ثقتهم بأنفسهم. وحتى دون أي شرط ومقابل أو اكتراث بالدرجات. فمثلاً منحتنا شهادات شكرٍ لإلقائنا بالمخلفات في سلتها وحمايتنا للصغارونشرنا للابتسامة. قلت للأطفال المهمشين المساكين المنسيين بأنهم مهمّون وبأنك ستكون بجانبهم دائماً. أصبحنا مهمّين كأطفال ، كشباب، كبشر. في يوم أعطيتني شهادة شكر وسط تصفيق ثمان مئة طالب. كانت لحظة لن ينسيني إياها حتى الموت، سقطت دمعة من عيني وعين أمي. كانت أكثر الشهادات التي حصلت عليها في حياتي معنى، أعرف ذلك. عليها تواقيع جميع معلميّ، وآخر جملة فيها كانت هذه: "نثق بك ونحبك تحت كل الظروف."

أينما تواجدت المحبة صاحبها الاحترام، والاحترام يأتي معه بالخوف. هكذا كانت البيئة التي نشأت فيها على الأقل. فالاحترام عندنا يعني الخوف، والحب يعني الاحترام. كان هناك أناس أحبهم وأحترمهم حولي، وفي الحقيقة أخشاهم. كنت أنت أحدهم... كنت أحبك وأخشاك في نفس الوقت، كان الخوف يسحبني ويمنعني من دخول باب غرفتك. ويتركني خلف الباب الذي دخلت منه بصعوبة حائرة خائفة. كان هناك بعض الطلبة، كم هم محظوظون؛ دائماً معك. كنت أريد أن أكون مثلهم، وأن تهزم شجاعتي خوفي. أريد أن تتعرف إليّ وتعرف اسمي. آه لو تعرفت إلى اسمي لربما أخبرتك عن هجرتي بنفسي.

ربما كنت أكثر المتابعين صبراً واهتماماً بأعمالك وإن لم أدخل غرفتك. في يوم من الأيام قمت بعمل مسرحية مع أولئك الطلبة المحظوظين. شاهدتها

يحدثوننا عن أنفسنا. حتى أنفسنا لم نكن نعرف عنها كثيراً. فحتى نحن لنا قيمة، نحن أطفال، يافعون...

أخذ الأطفال نصيبهم من الزجاجات المكسرة وطائشي الحي، أعني من الثقب الأسود، بحيث امتلأ ملف المدرسة التأديبي. كنت متفاجئة، فالعشرات من الطلبة سيقوا إلى هيئة التأديب قبل مرور شهرٍ حتى. وأدركت حينها أن هؤلاء الطلبة لم يكونوا سعداء. كان عليك فعل شيء، وإلا سينطفئ هؤلاء الأطفال، وسنسقط يامعلمي إن لم تمسك بنا. لم يكن مد يدك إلينا متأخراً. بين النشرات والمطويات أخبرتنا يوماً بأنك ستصدر صحيفة للمدرسة. واسمها "حلمٌ أزرق". كنت أتوقع صحيفة عادية في البداية ولكن لا يمكن، لا يمكن لشيءٍ أن يكون عادياً بوجودك. بتلك الإمكانيات المحدودة كيف كانت تطبع الصحيفة وتوزع على كل طالب، من كان يتولى أمر كل ذلك؟

كان لابد من صيحة نداء، للطلبة أولاً ثم لأولياء أمورهم. لابد من التحذير من الثقب الأسود. لابد من قول: امسكوا أبناءكم. كان في تلك الصحيفة جملًا لن أنساها ما حييت. كانت تقول "لافرق إن كنتم أسوداً أم غزلاناً، عليكم أن تعرفوا أن عليكم الركض عندما تشرق الشمس," ماذا كان معنى هذه الجملة؟ جعلتها آخر جملة في العرض الذي قدمته في ثاني سنة لي بالجامعة وسط تصفيق كل الصف. معنى هذا أن السنوات لم تنسني تلك الجملة وصحيفة الحلم الأزرق. كانت الحلم الأزرق توعينا وتثقفنا وتمنحنا الأمل. لم أكن أعرف وقتها بأن الأزرق لم يكن عبارة عن لونٍ فقط. ولم أكن لأعرف عن هجرة الأزرق في طفولتك أبداً.

لم تتأخر عن الإمساك بنا حين طلبنا منك ذلك، أصبح ليلك ونهارك مكرساً من أجل سعادتنا. في يومٍ أتيت بطلاءات بألوانٍ مختلفة، كنا سنطلي جدران المدرسة. لكل طفلٍ أزهار وأطفال دنيا أحلامه، وأنت أعرف من عرف ذلك. كنا نرسم أزهارنا وأطفالنا ونلونهم بالألوان التي نحبها. لم تكن قادراً على مجاراة سرعتنا، نغمس أيدينا في الطلاء ونضغط بها على الجدار. أيدينا زرقاء و وردية وخضراء. أيدينا على الجدار، ألواننا على الجدار. تعلّمنا وجود شيءٍ اسمه فرحة الأطفال وبهجتهم، وتعلمنا أن نكون أطفالاً. "كنا

التحديثات لا تتأخر، فمع مجيئك تم فتح خدمة إرشاد في المدرسة. ما خدمة الإرشاد؟ قالوا: إن المعلم الجديد لن يلقننا الدروس. أي نوعٍ من المعلمين هذا؟ كان ما يقولونه صحيحاً. لكننا في الحي الفقير بأطراف اسطنبول لم نكن نعرف بإمكانية ذلك. أنت علمتنا ذلك... في الزاوية الأخيرة للممر الطويل المكسي بالغبار ركّبوا باباً من نوع PVC. ذلك الباب غيّر حياتي. خلف ذلك الباب كنت أنت. خلف ذلك الباب كانت آلامٌ لا أستطيع وصفها. ذلك الباب أصبح أملي وغدي.

تم إضافة خدمة الإرشاد لكنك لم تكن في تلك الغرفة فقط. تشوش عقلي مجدداً. ماذا يفعل هذا الرجل. فهو يتواجد في كل مكانٍ بالمدرسة. كان يجمعنا أحياناً في غرفة الاجتماعات ويتحدث معنا. عندما يتحدث يصمت الجميع، ويصبح هو محور الاهتمام. كان ينادينا بالشباب. يقول لنا: تحدثوا ياشباب، لا تصمتوا، اسألوا؛ دون سؤالٍ لن تفلحوا، إن لم تسألوا فسيبتلعكم هذا الحي. كم كان حكيماً... فقد كان ذلك الحي كالثقب الأسود، في البداية تلمعون كالنجوم، وعند بداية انطفائكم تسقطون في الثقب الأسود ويبتلعكم الظلام. تصبحون طائشين بأيديهم سكاكين عند رأس الزقاق، تكسرون زجاجات الشراب في فناء المدرسة، تحشرون معلماً في زاوية قائلين "يااااا معلم، انظر إلي!" يبدأ الأطفال عند رؤيتكم بالبكاء خوفاً من أن يصيب معلمهم مكروه. كنت أحد أولئك الأطفال ولذلك كان علي أن أنصت لمعلمي. علي ألا أسمح للثقب الأسود بأن يبتلعني. علي أن أسأل عن كل شيء يطرأ على عقلي وأتعلم. فأمامي معلم يقول اسألوا وأنا أجيب. هنالك معلم يجول في المدرسة ذهاباً إياباً حتى نستوعب ولو قليلاً مما يقول. كنت قد قررت، لن يبتلعني الثقب الأسود.

كان طلابٌ غرباء يأتون إلى مدرسة أكثر مما كانوا يفعلون من قبل. كانوا غرباء، لا نتحدث معهم، فلا أحد يتحدث مع الغرباء. لكنهم عندما يأتون معك يصبحون إخوة بنظراتٍ دافئة، وأخاً كبيراً محبوباً. نستطيع الحديث معهم في كل شيء، لأنهم جاءوا معك، لأن من يتواجدون بجانبك أناسٌ طيبون ونحن نثق فيك وفيهم. كان كلامهم جميلاً أولئك الأخوات والإخوة، يشرحون الأحداث التي تجري حولنا ولا نفهم سبب حدوثها. بل حتى أنهم

لم يكن بإمكانكم أن تفعلوا أكثر من ريها بالماء. ما فعلتموه في البداية هو نقل هذه الشتلات التي كبرت على أصصها وبقيت فيها يتيمة ووضعتموها في أصائص مناسبة بتربة مناسبة. ورويتموها بماء أرواحكم بأيديكم. كان "المعلم الذي روى كل أزهار العالم" هو أنت معلمي.

في أواخر أيام أيلول...

أصبح الليل يخيم مبكراً على اسطنبول ونصف الكرة الأرضية. وبينما كان النهار قصيراً أتيت ذات صباح في الوقت الذي كانت اسطنبول المدينة الكبيرة فيه متوترة بشأن ما عليها فعله. ذات صباح وجدت نفسك في رأس الرابية بين التلال. أتيت كما يقول الشاعر؛ حتى تكون شمساً تنير التلال المظلمة. حتى قدومك لم يكن عادياً... ترجلت من السيارة في فناء المدرسة، وعليك معطف أسود. تمشي على أسفلت الفناء الذي شحب لونه وكأنك بخطوك تجعله قديماً. وقفتك الواثقة لا تعكس توترك، لو لم تخبرنا لما عرفنا. كيف لنا أن نعرف وعيناك تنظر بشوق كأنها تنظر إلى بيتك القديم.

لا، لا يمكن أن تكون معلّماً. فأنت لست كالمعلمين الآخرين. نظرتك أكثر هيبة وثقة؛ قامتك القصيرة تتحدى التلال، فأنت كثيرٌ على هذا المكان. لا معلمين مثلك هنا. ففيهم بعض المهابة والكثير من التعب. أما أنت فحركي كثيراً. لا، لست معلماً. لماذا قال أحدهم لاحقاً إنك جئت من ابتدائية قارابكر، وبأنك زوج معلمة اللغة الإنجليزية. معنى هذا أنك معلم، وفوق ذلك زوج معلمة. أشعر بالذهول... أظن أني لم أرَ زوجاً وزوجة كلاهما يعمل معلماً من قبل. أما الآن فإني أراه أكثر الأشياء طبيعية في الحياة، وأتعجب لذهولي وقتها.

كنت في الصف الأول متوسط. في العام 2005... العام العاشر على تأسيس المدرسة. السنة العاشرة تأتي بالتجديدات ، عهد جديد يبدأ في رأس الرابية. يبدأ عهد المحبة والأمل والثقة. تغيّر طاقم معلمي المدرسة كثيراً، أحاطت بنا وجوه جديدة من كل جهة. أطلق عليهم لقب "معماريو العصر" الآن وأنا محقة لأن المدرسة كان يعاد خلقها من جديد. يقول المدير في كل كلمة يلقيها مؤكداً "نحن عائلة كبيرة قوية وسعيدة. وأنتم قلب العائلة وعقلها في نفس الوقت". في غرفة المعماريين كنت أنت "رأس المعماريين".

الجائزة الشرفية 2015/ قيرشهير

تلة الأحلام الزرقاء

أمينة أمانت

كنت أعلم أني سأحكي عنك يوماً معلمي، علي أن أحكي عنك.

لكن أكانت الكتابة عنك بهذه الصعوبة؟

أكانت الأقلام ترتعش يامعلمي؟ لماذا قلمي يرتعش...

قلم مرتعشٌ يترك أحرفاً مبعثرة على ورقةٍ بيضاء. بدأت أكتب عنك يامعلمي. كأني أحدث شخصاً لم ير غروب الشمس عن حمرة الغروب، وعن قوس قزح بعد المطر لمن لم يره قط، واللمعان الفسفوري للبحر لمن لم يره. اللمعان الفسفوري. لكنهم لا يعرفون لون البحر أصلاً. أحرفي تتحول إلى الأسود أحياناً، وأحياناً إلى البرتقالي، الأحمر، تتحول إلى فضي لامع فجأة، لكنها في الأغلب تكون زرقاء. كم هو لونٌ جميل أليس كذلك يامعلمي؟ لذلك فإنه أكثرلون أحاول حديثهم عنه، مثلك. أنسخ خيالاً أزرقاً للعيون المغمضة الآن...

في المكان الذي استحالت فيه التلال الصغيرة جبالاً، فوقها ألف نوع ونوع من الأشجار والبيوت العشوائية المتشابكة. في التلال التي لم تجد اسماً لها، في الطرق الترابية التي تحيط بها الأعشاب، في المناطق التي لم يصلها الأسفلت، في أكثر الأحياء المحتضنة للأزقة المسدودة، والجهات التي يفصل فيها الجدول الجبال إلى طرفين... كان هناك مدرسةٌ في رأس الرابية هي بمثابة أمل للطرق والمياه. في كل صباح تصعد تلك الرابية أزهار جافة تنتظر أن تسقى ومعلمون وهبوا حياتهم لسقايتها. في رأس الرابية يُجاد بماء الروح. وتزرع الآمال. . جميع الأزهار، التي سقيت والتي تنتظر أن تسقى، تعاهدت على صعود الرابية كل صباح.

تلة الأحلام الزرقاء

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

كما أن على هذه المرحلة أن تُقرأ بواسطتنا نحن النساء. يجب أن تُعرف العواصف التي دارت في رؤوس زوجات العسكر وشعور الذنب الذي ذاقوه عندما فصل أزواجهن من أعمالهم بسببهن وكيف جرَحهم ذلك كونهم سبباً في قطع رزق وقوت أبنائهم، والصراعات النفسية التي عانت منها من كشفت شعرها وبقيت في مكانها، واللواتي انتهى بهن المطاف في مستشفيات الصحة النفسية... يجب أن يعرف الجميع. في هذه الأسطر القصيرة تذكير صغير. ثمة حاجة إلى قلوب قوية من أجل إيصال حكايات المعاناة هذه إلى الآخرين.

في هذه الأيام التي يشغل فيها الموضوع الجدّي والمِحق "العنف ضد النساء" أجندتنا، هل تم التفكير بالقضايا تلك كأبعادٍ له؟ مؤسف أن هذه المعاناة وإن كانت قد خفت كثيراً في هذه الدولة إلا أنها مازالت تعاش. ابنتي التي كانت سلواي الوحيدة في تلك الأيام هي في الصف العاشر الآن وأخشى أن ترث من جيلنا مشاكله أيضاً.

في كل مرة تقع فيها أعيننا على الزي العسكري الرسمي الذي خبأناه في إحدى زوايا دولاب الملابس لسنوات، والذي ارتداه زوجي بشرفٍ وكان مصدر فخر لنا، تطفح أعيننا بالدمع ونتهرب من النظر إلى بعضنا بعضاً. فهذا الزي بقدر ما كان مصدر فخر لنا إلا أنه كان مصدراً لألمنا أيضاً...

من بعد ذلك اليوم زاد إيماني بقيمة الديموقراطية من أجل الإنسان.

كان الضباط الكبار من طيبي النوايا يدعوننا إلى بيوتهم أو يأتون إلى بيتنا لشرب الشاي. كانوا يعطون تقارير لمن يعلونهم مرتبة عنّا كالتالي "ترتدي ملابس عصرية لكنها تغطي رأسها" لكن ذلك لم يكن كافياً. لابد من كشف الرأس، ولن يقبلوا بغير ذلك.

في يومٍ رن هاتفي. كان صوت شخص خمسيني، يوشك على البكاء، عرفته. عقيدٌ يعمل قائداً للوحدة التي يعمل بها زوجي.

- أنا أعرف أنك وزوجك قلبكما يخفق حباً للوطن ويعمل من أجله ولذلك أكنّ الكثير من الاحترام لكما. ضابط الصف عدنان هو بمثابة ابني، لا أطيق أن يحصل له مكروه. أعرف أن من يقوم بهذه الأعمال هو عدو الدولة الحقيقي، وأعرف بأي الطرق يخفون أنفسهم. لكن لم يعد بيدنا شيءٌ لنفعله، والملف قد حضّر وسيقدم للشورى. بقي حلٌ واحد فقط قد يكون فيه خلاصكم، وقد أخبرت زوجك به. القرار لكم.

لم يخبرني عن الطريقة لكن لم يكن التخمين بها أمراً صعباً، الطلاق. فهناك من فضلوا هذا الحل، بعضهم عرف القاضي بنيّتهم ولم يطلقهم. وبعض العوائل تشتتت فعلياً بعده. هذا عبء آخر علينا الآن. كيف لنا أن نتحمله؟

في مساء ذلك اليوم قررنا الطلاق أنا وزوجي وفي اليوم التالي قدمنا طلبنا للمحكمة. قدمناه لمحكمة لابسكي وليس محكمة غاليبولي. لأن القاضية في محكمة غاليبولي كانت زوجة ضابط، وكانت لا تطلق من فطنت لوضعهم.

هذا كل ما كان قبل قضية الطلاق.

طلبت نقلي إلى أنقرة إلى جانب عائلتي عارضةً الطلاق كسبب. وتم لي ذلك. تركت زوجي الذي جئت معه إلى هنا يداً بيد خلفي ومضيت بطفلتي إلى أنقرة. حمداً لله أننا لم ننفصل، فبعد فراقٍ دام ست سنوات تقاعد زوجي وعاد إلينا. لدينا طفلتان الآن. مازلنا نمارس العمل الذي نحبه، هو في مستشفى خاص وأنا في مدرسة خاصة. رغم أن العودة إلى تلك الأيام وكتابة هذه الأسطر عنها متعب ومحزن إلا أني شعرت بضرورة فعل ذلك. على التاريخ أن يسجل كل ذلك.

أشرح فيها قلقي وجزعي وقتها. في أي زاويةٍ سأختبئ، كيف سأخرج من هنا، هل أرمي بنفسي من النافذة وأهرب منهم؟ عونك يارب، لقد اشتعل رأسي. أحسست بنفسي وكأني حيوانٌ بائس يحاول الهرب بلا جدوى من صياديه. هل يمكن فهم صعوبة كتابة هذه الأسطر؟ لا أعتقد... لن يفهم ذلك الرعب إلا من عاش التجربة بنفسه... لماذا عشت تلك المشاعر واللحظات؟ من يستطيع أن يجيب عمن هذه الأسئلة ويعالج الأرواح التي تعرضت للصدمات؟ هل ذلك ممكن؟ أترك هذه الأسطر الناضحة بالألم لمن يقفون معترضين على محاسبة من تسببوا بكل ذلك الآن.

بدأت فترة التقارير الدورية. كنت أسعى إلى تخليص نفسي وزوجي بالتقارير التي أستصدرها، أبحث عن حل ومخرج. وكان زوجي صابراً ثابتاً. فقد كان متديناً بسيطاً مسلماً أمره دائماً. وكان انتظاره بتسليم وهدوء ونظراتٍ غير لوامة لي أبداً يجعل شعوري بالمسؤولية يتنامى. لم تكن كلماته المواسية تنتشل روحي المحتضرة من تيار الأعاصير أو تجعلني أتوقف عن البحث عن حل. أنا التي كنت أخشى من قضاء حصةٍ واحدة فارغة أصبحت أستصدر تقارير الأعذار واحداً تلو الآخر. لم أتوقف أثناء تلك الفترة عن تلقّي الدروس في الحياة من الناس والمواقف.

في تلك الأيام كان التقرير الطبي الأقوى والذي لا يمكن رفضه هو تقرير الطب النفسي. غيرها من التقارير كانت ترفض أو تكون موضع شكوى، ترسل إلى مستشفى حكومي ويتم إبطالها. لذلك ذهبت إلى عيادة نفسية وأخبرت الطبيبة بهدفي بكل صراحة. أنصتت إليّ وابتسمت ثم كونت جملاً كانت إحدى أهم الدروس لي في حياتي. قالت لي:

- كنت قبل الثاني عشر من أيلول أعمل في جامعة التاسع عشر من أيلول. في تلك الفترة أصدرت تقاريراً لعدة أشخاصٍ يساريين حتى أحميهم مما كان يحيق بهم حينها، وبسبب ذلك سجنوني في سجن تشاناق قلعة. مرت السنوات، والآن يطرق أبوابي أناسٌ أمثالكم ممن لا أوافقهم في أفكارهم ولاطريقة حياتهم. المشكلة هي أنكم لو ضحكتم بينما نحن نتلقى الضرب، وضحكنا نحن حين جاء دوركم فسوف يداومون على ضربنا الواحد تلو الآخر.

عندما يعودون إلى أهاليهم يُستقبلون بأسئلة مستنكرة ونظراتٍ غير مصدقة من أصدقائهم وأقاربهم، بل حتى من آبائهم وأمهاتهم: "ماذا تقصد؟ فصلوك بسبب حجاب زوجتك فقط؟".. أكثرها وجعاً هي أيام العطالة بلا عمل، والعجز عن النظر إلى وجوه الأطفال... والأسوأ منها المشاعر السيئة التي تقود نحو الموت واليأس من الحياة... والخسائر التي لا يمكن تعويضها...

أثناء تسارع هذه الأيام رزقنا بخبر قدوم الهبة التي انتظرناها لعشر سنوات.

سوف نرزق بطفلة. قضيت مدة حملي في إجازة على سريري بسبب مشاكل الحمل التي عانيت منها. كان ذلك بمثابةٍ عذرٍ مقبول يخفيني عن الأنظار أثناء تلك الأيام العصيبة. كانت تُقدم إلى قائد الفيلق الذي يهتف "لا تهمنا الكفاءة بقدر ما يهمنا الولاء." مذكرة عذر "حملٌ له مخاطر بعد عشر سنوات من الانتظار".

عند أخذنا صغيرتنا إلى حضننا لم يعد لدينا عذر لنقدمه، عادت الأيام المرعبة والليالي الملأى بالكوابيس إلى حياتنا.

لم يعد حولنا أحد. فبعض أصدقائنا رحلوا، وبعض الذين نفذ الشروط المطلوبة لم يعدوا يقتربون منا من الخوف. لم نكن نخرج إلى الشارع أنا وزوجي. مرت سنتان بالتمام لم نخرج فيها معاً إلى الشارع! وكالهاربين من القانون كنا في الليالي نذهب بالسيارة إلى الأماكن المنعزلة من منطقة غاليبولي ونشارك البحر همومنا بينما كان الجميع يشرب الشاي في المقاهي على الساحل ويلعق البوظة...

رغم بذل بعض الضباط الكبار ممن كانوا يحترمون زوجي وتديّنه البسيط مافي وسعهم لحمايته، إلا أنهم بلغوا في عام 1998 نقطة أخيرة لا يمكن تلافيها. طبعاً كنت في نفس الفترة قد خضعت لجميع أنواع الرقابات وتلقيت مخالفات وبلغت خطر التعرّض للفصل من وظيفتي. كان هذا البعد الآخر للمشكلة. هذا يعني أننا كنا بين نارين. أصبحنا في حالٍ لا نعرف فيها أين نختبئ وكيف نحمي أنفسنا.

في صباح أحد الأيام وعندما ذهبت إلى مدرستي علمت بقدوم عقيدين بحثاً عني وإبلاغهم للمدير بأنهم جاءوا ليبحثوا أمري. لا أستطيع تكوين جملةٍ

منذ أول أيام قدومنا كان هناك ما يلفت انتباهنا. فكثير من زوجات الضباط وضباط الصف المعينين حديثاً كن محجبات. جعلنا هذا في البداية مسرورين، لكنه جعلنا نشك ونفكر لاحقاً. لم نتأخر في اكتشاف الحكمة من ذلك. فقد بدأت المشاكل تظهر اعتباراً من بداية السنة الثانية شيئاً فشيئاً. كان الأمر أشبه بمعسكرات الاعتقال. كم هذا مؤلم، في وطنك وعلى أرض الشهداء...

كان يُطلب من الزوجات أن يكشفن رؤوسهن و يحضرن إلى مناسباتٍ وحفلاتٍ مسائية وإلى شرب الشاي في النهار لأسبابٍ شتى. فوق ذلك كانت هذه الطلبات تبلّغ بأسخف الطرق. في المساء، وبلا ساعةٍ محددة، كان يأتي أحد الضباط الكبار ويطرق باب أحد من هم أدنى منه رتبة ويقول :"غداً ستكشف زوجتك شعرها وتأتي إلى الاجتماع الفلاني في المكان الفلاني. دعها تهتم بشكلها وشعرها ولترتدي شيئاً لائقاً، لا تدعها تأتي هكذا!"

هل يُقبل في مجتمعنا وثقافتنا الحديث عن زوجة أحدهم بهذه الطريقة! متى انحدرت أخلاق أناس هذا المجتمع وهذه المنطقة واختلّت إلى هذا القدر! أي زوجٍ يرغب بأن يتلقى هذا الأمر بشأن زوجته، ويذهب بعد ذلك ليبلغها به ويشعر بذلك الشعور المهين؟

أترك لكم التفكير في نفسية السيدات اللواتي يتلقين هذه الأوامر: شعورٌ لا نهائي بالذنب. ولمَ؟

فوظيفة الزوج، قوت عائلته وأبنائه... تعتمد على القرار الذي ستتخذه زوجته حينها. وهل يحق لأحدٍ أن يكلف نفساً بتحمّل كل هذا الوزر؟ تعجز عن النظر إلى وجه زوجها، أو معصية أمر ربها. تبدأ ليالٍ طويلة من العذاب. وما ذنبها؟ ولماذا هي معرضةٌ لهذا العذاب؟ لا تستطيع إيجاد أجوبة. فتغرق في دموعها وتلجأ إلى ربها وتبحث في الدعوات عن سلوى.

نعم، كانت هذه السنوات التي مرت كعنق زجاجة... في كل مجلس شورى عسكري تصدر أسماء المفصولين من الخدمة... ونحن نقضي أيامنا ولياليا في رعب نترقب اليوم الذي يأتي فيه دورنا. عوائلٌ وأشخاصٌ كثر جمعوا أغراضهم دامعي العينين، ودّعناهم دون أن نستطيع تعزيتهم في مصيبتهم.

3

ماسردته بالأعلى كان حقيقياً، لم يكن خيالاً أو اقتباساً من حكاية. بل قضية طلاقٍ حقيقية وقعت عام 1998.

أنا من مواليد أنقرة عام 1964. أنهيت الجامعة في 1985 بتخصص اللغة التركية وآدابها. أثناء دراستي الجامعية قررت ارتداء الحجاب وكان عمري حينها تسع عشرة سنة. وفي عام 1986 تزوجت بزميلي السابق في المرحلة المتوسطة عدنان يلماز اوغلو. كان ضابط صف صحّي. كان جندياً يمارس عمله بحب، إنسان محترم ورجل متدين تديناً بسيطاً. أما أنا فكنت قد تبنيت التعليم بكل كياني، وكل مايهمني هو العمل في سبيل الله كمعلميّ السابقين محمد عاكف إنان وعبدالكريم عبدالقادر أوغلو وليلى قاراهان وعالمدار يالتشين وكمال أقارصو. كان ذلك في السنوات التالية الساخنة لقرار حظر الحجاب وأحداث 12 أيلول ...

في البداية عملنا أنا وزوجي في إسطنبول ثم في المدينة التي نحبها كثيراً، أرضروم. وبعدها في تشاناق قلعه، في غاليبولي تحديداً... كان ذلك في عام 1993... تشاناق قلعة، أرض الشهداء... التي تعني لي الكثير من بين كل أنحاء الوطن، المكان الذي شهد ملحمة وبطولة تاريخية لاتنسى. عند بداية قدومي لها كانت نفسي دافئة مرتاحة. لم يكن ليخطر على بالي أننا سنترجل من الباص في لابسكي وننتظر المركب على المقعد كشخصين مطلقين أبداً. في ذلك اليوم شاهدنا منظر المضيق الباهي بعيونٍ مسحورة...

كانت غاليبولي ببيئتها اللطيفة وأناسها الودودين قد احتوتنا واحتضنتنا. اكتسبنا فيها العديد من الأصدقاء. كانت مدرستي جميلة جداً، وكأنها كانت تنتظر قدومي لأخدم فيها. كان قلبي يطفح بمشاعرٍ دافئة بينما أرتّب المكتبة المغبرة مع طلبتي الداخليّين حتى ساعات متأخرة من المساء، وحين أعيرهم اهتمامي وأحاول أن أملأ مكان أمهاتهم اللواتي يشتقن لهم، وأيضاً بينما نجهز مسرحياتٍ هادفة سوياً. ذاك كان معنى الحياة بالنسبة لي. منها أشعر بلذة تأدية عملٍ صالح، كما أن ثانوية الأئمة والخطباء كانت بالنسبة لي ضماداً لجراحي الناتجة عن عدم حصولي على أبناء.

خلال فترةٍ قصيرةٍ كيفنا حياتنا وفق مكاننا الجديد واعتدنا عليه وكأننا نعيش فيه منذ سنين طويلة.

الأسئلة تتردد، والأجوبة تعطى. لقد هز عدم التوافق زواجنا من الأعماق وجعل الحياة المشتركة مستحيلة. لذلك اتفقنا على الطلاق كحل. ستبقى ولاية ابنتي لي وزوجي سيأخذ المنزل، وأنا السيارة. سوف يعطينا أبوها نفقة شهرية مقدار خمسون ألفاً (حسب العملة وقتها) وسيراها في أوقاتٍ معينة في السنة.

- تم البت في الحكم وإغلاق القضية!

كان لهذه الجملة وقع القنبلة على عقلي، سوف ننزل من على الخشبة ولكن هذا ليس مسرحًا. مع الجملة الأخيرة هذه تم إنهاء رابطة زواجنا لإثنتي عشرة سنة وبشكل رسمي.

تختلط الكثير من الأشياء في ذهني فجأة. الكثير من الأصوات المختلفة تردد أشياء مختلفة. أحدها صوت صديقتي وهي تقول لي "حنيفة، هل فكرت جيداً؟ الكثير من الزيجات انتهت بهذه الطريقة. والكثير من العوائل لم تستطع أن تتراجع عما فعلته..."

هبطنا درجات السلالم التي صعدناها بتثاقل سريعاً وكأننا نركض، ألقينا بأنفسنا على مقعد أمام الشاطئ. عجزت عن منع نفسي فانهمرت دموعي التي حبستها لساعات. أتكور على نفسي، هواء البحر يجعلني أرتعد ولكني لا أستطيع الالتصاق بزوجي الذي لم يعد زوجي رسمياً كما كان في الصباح.

أحاول تهدئة مشاعري الثائرة داخلي وأواجه صعوبة في مقاومتها. أكان ثمن ملابسي وغطاء رأسي في وطني غالياً لهذه الدرجة؟ يخطر ببالي بيت "غريبٌ أنت في وطنك، منبوذٌ أنت في وطنك" حارقاً خلايا دماغي. لكن الأثمان لم تكن تدفع اليوم فقط. ترك الحريق الذي كان قبل قليل مكانه للسكون. يجب علينا الحمد على كل حال، فكل ما يقدّره الله فيه خيرٌ لنا. كان زوجي كأنه شاهَد كل تقلباتي الداخلية هذه.

- ما الذي تغير بالنسبة لنا، لا تحزني.

كان بجملته هذه يزيد هدوئي وسكوني. لكن رغم ذلك لم تكن أنا التي دخلت ذلك المبنى القريب نفس التي خرجت منه. كنت مختلفة وإن لم أعرف تسمية هذا الفرق...

وهي تخبرني بأنها ستتركها لوالدها تلبية لرغبة عائلتها تجعل عيني تطفحان بدورهما. أوصيتها بأن تحاول المحافظة على زواجها رغم أن ذلك لا يبدو ممكناً. آه... مازال شعب وطني في حاجة إلى الكثير من الخدمة، هكذا فكرت بمشاعري المثالية البالية.

- ماذا عنكم أنتم يا أختي، مالذي تنتظرونه هنا؟

سألتني فجأة وكأنها تحاول نسيان مابها من غم. صحيح، لمَ نحن هنا؟ ما شأننا في مبنى محكمة لم يسبق لنا دخولها من قبل؟ هل ارتكبنا جرماً يثير العار؟ أنا المعلمة وزوجي ضابط الصف، هل أسأنا استخدام صلاحياتنا، هل اختسلنا مالاً ومارسنا فسادا؟ أم أهملنا مسؤولياتنا؟ هل حاولنا قتل أحدهم؟ ما الذي جاء بنا إلى هنا؟ أجبت بينما كانت هذه الأسئلة تكوي دماغي:

- نحن أيضاً ننتظر من أجل دعوى طلاق.

- قلتها وأنا أعتصر قلبي لشريكتي في القدر.

- لكن يبدو عليكما أنكما من نوع الأزواج الذين لن ينفصل أبداً.

قالتها بذهول.

- لقد اتفقنا وتفاهمنا على ذلك بشكلٍ حضاري.

أجبتها بابتسامة خفيفة ولكني لم أقنعها.

كان صوت المباشر بالقضية يتردد في الممر: المدّعي حنيفة يلماز أوغلو والمدّعي عليه عدنان يلماز أوغلو.

-المدّعي عليه... نحن لا قضية بيننا... فالحمدلله وإلى هذا اليوم لم تكن لنا قضية إلا خدمة الوطن.

لاحظت عند دخولي إلى صالة المحكمة شعوري وكأني أمثل مع تلاميذي على خشبة مسرح. كان كل شيءٍ عبارة عن ديكور، والجميع عبارة عن ممثلين... نعم، مسرحية تاريخية يتم تمثيلها الآن. لكن المنفصلين ليسا حنيفة وعدنان بل العدل والدولة للأسف.

- لا، لم تتأخري. قلتها بصوت متعثر متكسر ثم أتبعت:

- ابنتي عائشة سناء نائمة، ونحن خارجون.

أومأت بعيينها موافقة ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس.

بروية وتؤدة تجهزنا وخرجنا. أثناء ركوبنا سيارتنا من طرازشاهين أمام الباب كانت الأيام القديمة تمر كشريط بعقلي. أول أيام اقتناؤنا للسيارة. رغم كل مشاكلنا وهمومنا تلك الأيام إلا أننا عشنا تلك الأيام بفرحة الأطفال، فرحة كسيرة نوعا ما. زاد خبر حملي فرحنا فرحاً وجعلنا نطير من السعادة. كان قلبي يشكر صاحب النعم عناداً لكل الآلام داخلي.

عند بلوغنا المرسى وجدنا مركب لابسكي جاهزاً في انتظارنا. أوقفنا سيارتنا في إحدى الزوايا وركبنا المركب. كان كل شيءٍ هادئاً وكأنه لايريد كسر الصمت.

إلي أين كان ذهابنا؟

كنا نسلم على الأمواج بنظراتنا الباردة، وهي التي كنا نشاهدها باستمتاع في كل مرة. لم نكن نتكلم كثيراً، لانعرف مانقوله لبعضنا بعضاً. بينما نحن كذلك هبت نسمة باردة وسرت رعدة في جسمي فالتصقت بزوجي الحبيب. كأن الخوف من خسارة هذا الدفء خيّم عليّ.

ترجّلنا من المركب ومشينا إلى مبنى دار قضاء لابسكي الموجود أمامنا بينما كانت أقدامنا تريد العودة إلى الوراء. دخلنا من البوابة وصعدنا إلى الأعلى. بحثنا عن اسمَينا على الباب المكتوب عليه "محكمة الحقوق الأصلية" ووجدناهما بين أسماء الأشخاص أصحاب قضايا الطلاق.

جلسنا على أحد المقاعد في الممر جنباً إلى جنب، ننتظر. بين فينةٍ وأخرى ينظر زوجي إلى وجهي مبتسماً حتى يطمئنني. أهو مطمئن؟ فالموضوع هو ابنتي، كلانا يفكر في مستقبل أفضل لها.

عينا الفتاة الشابة الجالسة بجانبي والتي تبدو في العشرينات كانتا تنظران نحوي كأنها تريد أن أشاركها همها، قالت لي وهي ترسل بين حين وآخر إلى زوجها الجالس مقابلها نظرات خجلة مازالت مليئة بالحب: "عدم توافق العائلتين هو ما أحضرنا إلى هنا" لديهما ابنة، كانت الدموع التي تنسدل

أشعر بانسحاقٍ في داخلي وأنا أنظر إليه، وينتابني شعورٌ بالذنب كان يراودني في الأيام الماضية فأرتعد.

أخرج إلى الشرفة في غرفة نومنا وأسلّم نفسي لنسائم صباح شهر مايو الدافئة في غاليبولي. أبحث عن شريك أبادله همّي. ليسمع أحدهم همي وما يضيقني، ويفهمني. نسيم الصباح الدافئ يدغدغ وجهي وكأنه يواسيني. لكن ما الفائدة، فلا شيء يستطيع مواساتي.

زوجي الذي أسكَت ساعة المنبه ذات الصوت الحاد كان ينظر إلى عينيّ بدفء وكأنه شعر بي وأنا أبحث عمّن يواسيني.

- سنتأخر، يقول. فأنظر إليه وكأني أقول: "لا، مازال هناك وقت"

- إلى أين نذهب، ولِمَ علينا أن نفعل ذلك؟ أردت أقولها من قلبي لكني عضضت على أسناني؛ تاركة الأسئلة التي تخز دماغي مثل الشوك مكانها.

- نعم هيا بنا حتى لا نتأخر.

قلتها وأنا لا أعنيها حقاً. عدت إلى مهد طفلتي ونظرت إلى وجهها الذي وجد سعادته في أعماق النوم.

كم انتظرناك كثيراً ياصغيرتي، وكم نحن محظوظون بمجيئك، أنت سلوتنا وعزوتنا.

قلتها في نفسي.

ودون أيما عجلة ذهبت إلى المطبخ ووضعت إبريق الشاي على الموقد. جهزت السفرة وأنا أصيخ سمعي لغليان الماء. وكأنما المغلي هو عقلي وقلبي وليس الماء....

تخبطات قلبي واضطراباته في أذني...

جلسنا على الطاولة، تناولت الفطور بلا رغبة. كلانا يحاول إقناع الآخر بأنه هادئ ولكن بلاجدوى...

طُرق الباب. كانت طالبة قديمة لي مازالت تنظر إليّ بدفء كصديقة رغم مرور السنين. لكن في هذا الصباح كانت عينا عائشتي الدافئتين ضبابيتين ومشوشتين بشكلٍ غريب. هي أيضاً قالت متصنعة الهدوء ورباطة الجأش:

- لم أتأخر أليس كذلك؟

الجائزة الشرفية/ أنقرة 1

قلوبٌ موجوعة تتذكر الماضي...

حنيفة يلماز أوغلو*

1

يجب تدوين هذه الأيام من التاريخ وعدم نسيانها أو تركها لتُنسى، هذه الأيام التي تتقاذفنا كأوراق الخريف وتجعلنا نذبل ونموت.

أحببنا الوطن فجعلونا خونة له؛ قلنا إننا خدم للشعب فجعلونا أعداءه. أحببنا ولم نُحَب؛ عملنا ولم نُعجب أحداً. لم يُرغب بنا والسلام...

2

استيقظت على أول أشعة للشمس في صباح يومٍ من شهر مايو في عام 1998. في قلبي بعض الضيق... ضيق بسبب عدم معرفتي ما سأشعر به... طفلتي ابنة العامين والتي جاءت بنسائم الربيع إلى حياتنا بعد انتظار عشر سنوات ترقد في مهدها. وزوجي الحبيب لمدة اثني عشر عاماً لم يستيقظ بعد. أتأمل وجهه النظيف الذي سلمه للنوم. ليس فيه أي نقطة داكنة. في غاية النظافة، يلمع... أرى بين خطوط وجهه التي رسمتها الجندية عليه إنساناً مستعداً للتضحية بروحه من أجل وطنه، ومستعداً لتأدية الخدمة من أجل الشعب؛ ابنٌ بار وزوجٌ طيب وأبٌ رائع. تلمس يدي شعر رأسه في شفقة وحنان.

*ولدت عام 1964 في أنقرة. و في 1981 تخرجت في قسم اللغة التركية و آدابها من جامعة غازي. عملت منذ عام 1986 في ثانويات مختلفة بأنقرة وإسطنبول وأرضروم وتشاناق قلعة. تقاعدت في عام 2007 وتعمل حالياً في مدرسة خاصة. متزوجة وأم لاثنين.

قلوبٌ موجوعة تتذكر الماضي...

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

عثماني! شنق نفسه على جسر القطار! لم أصدق! كان الصوت على الهاتف ينتحب وهو يقول: 'أنا مذنب بنسبة اثنين إلى تسعة، فقد كنت مدرّسه في مادتين منها'! جميع المدرسين شعروا بالذنب!

سبق لي أن درّست أخاه الأكبر في مدرسة بأحد الأحياء الفقيرة! قبل أن يذهب إلى التجنيد أمّنني أنا على أخيه... وأنا لم أرع الأمانة! عثماني! ابني! ليتك عشت وحصلت على الدرجات الكاملة! لأول مرة أشعر برغبة في ضرب أحد تلاميذي. رغبة في إحيائه ثم ضربه! أمجنون أنت! ما الذي فعلته يا ابني عثمان!

قبل أن ينتحر بيوم رجاني ألّا أمنحه درجة ضعيف. قلت له حينها: 'الوقت متأخر لتغيير الدرجة، فالشهادات طُبعت، ذاكر لتتجاوز المادة!'. كلما أتذكر ذلك أصبح أعتى أعداء نفسي. أكان بإمكاني فعل شيء ياترى؟ عثمان!

منذ ذلك الوقت وقلبي محترق!

هكذا نعيش آلاف الحيوات في جسد واحد. لسنا شخصاً واحداً داخل حلم واحد. هذا ليس حلماً، ولا صدفة. هذه قصة وجود داخل العدم... التعليم هو حقل الحياة، حياة داخل حياة؛ طعم داخل الحياة... الذكريات... 'كالطرق التي تبدو وكأنها بلغت النوم...'

في يوم ما دعاني المتقاعد الذي كان مديري وقتها إلى مكتبه وقال: ‘ أيتها السيدة سأمنحك إجازة ليومين لأن ابنتك مريضة، اعتني بها وأريحي نفسك...’ كانت مفاجأة لي ولكني سررت بها. فلابد أن هناك من يقدر ما أفعله في النهاية. شكرته ثم ذهبت إلى البيت.

في اليوم التالي رن هاتفي،

-أتعرفين يامعلمتي، لقد نال النص الذي كتبته الترتيب الأول على تركيا، ولكونك في إجازة مرضية كتب المدير اسمه بدل اسمك والآن نحن ذاهبون لاستلام الجائزة. سيضيفوننا ثلاثة أيام في أنقرة بفندق GAP. ليتك تستطيعين المجيء معنا!

سررت وحزنت في نفس الوقت!

عليك أن تؤمن بالعدالة الإلهية! فقد كلف المدير في تلك الأيام تماماً بمهمة ما فذهبت أنا مع طالبي لاستلامها.

أحد طلبتي أصبح الأول على تركيا. حصل على جوائز من الرئيس ورئيس الوزراء، شعرت بالفخر كما لم أشعر من قبل. فهذا طالبي! طالبي أنا! ياله من شرف!

كرست كل جهدي ومعرفتي من أجل تلاميذي أصحاب المستقبل مقتنعة بأن ‘المعلم الجيد هو من تقل فائدته لطلابه تدريجياً.’ كما كنت أحاول ضبط وتقوية نفسي وعزيمتها لأني أؤمن أن الصف عبارة عن مرآة لمعلميه. أقول لنفسي ‘هؤلاء التلاميذ أذكياء، متطلعون نحو الأمام، هم بمثابة مجوهرات مزركشة. أما الذكريات فقد احتفظت بها لا في ذاكرتي بل في زاوية قلبي لسنوات طويلة.

في أحد الأيام نسيت ابنتي عند باب المدرسة! لا أفخر بذلك ولكني كنت مندمجة بشرح الدرس للتلاميذ. فقد كان كل منهم بمثابة ابن أو ابنة لي... ومازالوا كذلك...

وفي صباح ما استيقظت فجأة على خبر مفزعٍ كان بمثابة كابوس. عثمان! الذي كان يدرس في الصف الثاني ثانوي، عثماني الذي نال درجة ضعيف في تسع مواد! عثماني الشهم ذو العيون السود قوي البنية طويل القامة!

- لا، ستأتين في نهاية الأسبوع من أجل التدريب على الشرح.

- يوجد خمسة منا هنا نحن معلمي الأدب، أيمكنني أن أتغيب؟ لا يوجد مكان أترك فيه طفلتي...

- حتى نحن ربينا أطفالاً لكننا لم نستخدمهم كأعذار!

أهذا كابوس أم حقيقة؟

عليك المجيء!

.....حسنًا!

في نهاية الأسبوع كان الجو بارداً والثلوج تغطي كل مكان. أخذت طفلتي وذهبت إلى المدرسة. لم تكن المدافئ تشتعل. بدأنا التدريب، كنا خمسة معلمين وخمسة عشر طالباً. هم يلقون الشعر ونحن نقيّمهم جلوسًا؛ ممتاز، مقبول، عليك أن تعدل هذا الشطر وأن تفعل كذا بهذا. عندما أقول نحن فأنا لا أشمل نفسي معهم، فابنتي أليف لاتكف عن البكاء! هل امتلأت حفاظتها؟ أم جاعت؟ مازالت ابنة ستة أشهر!

- هذا لايُقبل، عليك أن تأتي! نحن أيضاً لدينا أطفال!

'أشعر بالعجز!'

أعرف أن هذا ظلمٌ بحق الأطفال وأنا حزينةٌ لذلك. كنت أفعل ما بوسعي ولكن يبدو أن ذلك أقصى ما كان بإمكاني فعله...

كان المرض يطرحني أحياناً فأبقى في المستشفى لأيام...

'أطفالي، أنتم أيضاً تلاميذي!'

وقت العودة للحياة.

أيها التركي انتفض واستيقظ!

عدت. واعتدت. كبرت أنا وهم صغروا. عدت وأصبحت معلمة من جديد.

لم يكن أي شيء سهلاً، فالنجاح لايقدم إلى الناس على أوان من ذهب، أعرف ذلك.

بعدها رحت أحصد الجوائز بين وقت وآخر، الكثير والكثير منها. كنت أتوقع ذلك لأني أعمل بمثابرة وجد.

بقيت طفلاً في أحلامي.!

بينما كنت أقول أني بقيت طفلًا معهم إذ بي أعيّن في ثانوية أدرنة!.. هذه المرة مع الشباب والفتيات. ماذا! لا يمكن! ماذا أفعل؟ عملت لسنوات في التعليم الأولي. نسيت كل شيء، حتى معلوماتي أصبحت عتيقة... لكني أنا من أردت أن أذهب إلى هناك...

في ثاني حصة من الحصص الدراسية الأولى... كنت أشعر بالخوف... فهؤلاء الأطفال كبار... أطفال؟ أم شباب؟

ليس عندي شك في أن مقدار معرفتهم أكثر من معرفتي. وفوق ذلك هم الآن يحبون بعضهم ولا يحبونني أنا... لذلك فالأمر مختلف هذه المرة.

كنت أعمل وأحضّر ليل نهار، كما أني تزوجت في نفس الفترة وأصبح لدي رضيعة. لم تكن تنام الليالي أبداً؛ بينما كان الأطفال يحتاجون إلى الدروس كانت هي تحتاج إلى الحليب. مدرسة، دروس، برامج...

لم أعد قادرة على التوفيق بين كل ذلك....

كنت أتلقى نظرات ساخرة منهم عندما لا أعرف إجابة سؤالٍ ما، وأحيانا كلمات شفقة... لا تعليم هنا ولا اعتبار للمعلم... من أنت أصلاً؟

كانت سنوات مرعبة، متابعة دراسة وزوجية وأمومة وتعليم في نفس الوقت؟ لأيٍّ منها تكون الأولوية؟

- معلمتي لقد أتممت قراءة الكلاسيكيات الفرنسية، بماذا توصيني أن أقرأ الآن؟

- .....!

- معلمتي هل بدأ المسرح الحديث بالدراما أم التراجيديا؟ وتحت أي منهما تصنف مسرحية هاملت لشكسبير؟

- .....!

أما زملائي في العمل فهذا ما كانوا يقولونه...

- لقد أصبحوا الآن يوظفون حتى عديمي الكفاءة في الثانويات.

- صحيح أنها درست الماجستير ولكن الخبرة شيء آخر بالطبع.

عندما صدر قرار نقلي قلت لطلبتي :'عليّ الرحيل فخطيبي ينتظرني. إن لم أذهب فسأبقى عانساً.' فكتب لي أحدهم رسالة موجعة يقول في آخرها 'أعلم يامعلمتي، أنتِ مجبورة على الرحيل، وإن لم تذهبي ستصبحين عانساً.'... كما أن فتاة أقضت تهديداتها مضجعي كتبت 'إذا ذهبتِ فسوف ألقي بنفسي من السطح!'..طار نومي وأنا أفكر في احتمالية تنفيذها لما تقوله...آه منك يا كولقيز!

ألا يمكن أن أصبح معلمة جميع الأطفال في نفس الوقت؟ كم هي الدنيا مملة وخانقة من دون تلاميذ، كالسماء بلا نجوم.

يهتف لكم أحدهم في الطريق أو في أي مكان آخر:'معلمتي!' . إنه صوت مألوف ولكنك لاتستطيع أن تميزه كما في الأيام الخوالي 'أنت جتين 318!' قلبك وعينك يميزان هذا الصوت وصاحبه، ها قد أصبح طبيباً الآن، أو مهندساً أو معلماً، وأحياناً صاحب مقهى شاي، تشعر بالفخر عندها لدرجة لا يمكن وصفها ولا تحتاج لوصفها أصلاً...

أحياناً لا يتعرفون عليك فتغدو كأم هجرها أبناؤها. تبقى واجماً تنظر إليهم وهم يمضون، في نظراتك شيء من غضب وحزن وبعض من التفكير؛ ماذا فعلت، وما الذي لم أستطع فعله.'...

في اجتماع أولياء الأمور كانت أيدي الأمهات تفوح برائحة محاليل التنظيف. أدركت أن كثيراً منهن يذهبن للعمل في التنظيف بإحدى مدارس الأحياء الفقيرة. منهن من مات زوجها بالسرطان ومنهن من زوجها يعاني من مرض مزمن في البيت....

بعض الأزواج كانوا بلا عمل ويعيشون مع ثمانية أولاد في نفس الغرفة... لا أنسى أبداً قول أحدهم لي . 'إذا تشاق الولد فاقطعي أذنه وأرسليه إلى البيت!' علّمنا كثيراً منهم كيف يحبون أبناءهم أولاً، بعدها أصبح أطفالي يذهبون إلى بيوتهم في راحة واطمئنان...

كل شيء عبارة عن حلم طفل،

حلم بين النوم وانبلاج الصباح

كنت أظن المدينة كلها ملكي

- أين تم تعييني، أين؟

- في مدينة سيليفري بابتدائية أتاتورك.

- متى سأباشر عملي؟

- عليك المباشرة خلال 15 يوماً.

في أول يوم إثنين ذهبت إلى المدرسة فانتشر خبر أن "المعلمة الجديدة قد جاءت." أكانت تلك المعلمة هي أنا؟ ياللروعة! المعلمة! يارب، هل أصبحت رئيسة أو رئيسة وزراء؟ لا طبعاً، أصبحت شيئاً أرقى وأعلى بكثير... إنني أحلق في الأعالي. دخلت إلى الفصل فقام الطلبة جميعهم هبة واحدة وأرعبوني. ماذا يحدث؟ لماذا نهضوا، ماذا سأفعل الآن، ماذا علي أن أقول؟ مرت لحظات قصيرة كانت عبارة عن تبادل نظرات صامت... نعم، نعم، كانوا ينتظرون مني أن آذن لهم بالجلوس. كلما أدخل إلى الفصل يقفون على أقدامهم... 'أهاا!! اجلسوا اجلسوا!' ..صوت ضحكات...

أطفال الأول متوسط... جاهزون لتلقي الحب... أنت مقدس لهم مهما قلت وفعلت. ياله من شعور.

'معلمتي كم عمرك؟' 'معلمتي كم أنت جميلة' 'معلمتي أنا أريد الجلوس بجانب أحمد!'، 'معلمتي، معلمتي...' على الدوام، فأنا لهم!

أحد الطلبة واسمه مراد كان من أشقى الطلاب، عندما أغضب ولو قليلاً كان يأتي إليّ ويمد يده قائلاً 'اضربيني يامعلمتي' فأشفق عليه، يجعلني فعله ذلك أفكر طويلاً. بعدها فصلوه من المدرسة فأصبح يبيع الكفتة لأصدقائه عندما ينصرفون كما يبيعها للمارة في الطريق، جعلني هذا أسيرة التفكير للأبد.

في أحد مواضيع التعبير بعنوان 'من يحب الورد يتحمل شوكه' كتب أحدهم 'أحب فتاةً لها إخوة كبار، كل يوم يلاحقونني، لكن ما باليد حيلة سوى التحمل!' معطياً بذلك أجمل مثال موجز على هذه المقولة وناقشاً إياه في ذاكرتي.

ذهلت عندما كتب أحدهم 'كان لدينا بقرة، أصابتها صاعقةٌ وماتت' بعدما طلبت منهم أن يدونوا ذكريات لا ينسونها. وضحكت كثيراً على وصف أحد الطلبة لمعلم أصلع بـ'معلمنا ذو السقف المكشوف'.

جائزة هيئة التقييم الخاصة 2005 / أدرنة

القلب أيضاً يفكر

كزبان كرمان*

متى بدأ هذا الهوس المجنون، متى ألقى بمرساته في قلبي. ربما كانت محبة أبي لطلبته أكثر مني أو أصوات طلبة أمي وهم يهتفون "معلمتي!معلمتي!" كالكتاكيت هي ما أشعلت فتيل هذا الشغف.

كان إخوتي الأربعة كلهم معلمين. أكان هذا تقليداً عائلياً؟ أم هو شيء متعلق بالجينات؟ ألا تعرف هذه العائلة مهنة وطريقة عيش أخرى؟

لا أعرف كيف يكون العيش ممكناً من دون معلم؟ ماذا نأكل، ماذا نشرب، كيف نمشي في الطريق، لا أعرف! عملي هو خبزي ومائي وطعامي وعشقي. فتحت عيني عليه وسأغمضها عليه كذلك.

يجدني طلبتي وأقاربي أبالغ أحياناً. لا يصدقون أني أدخل إلى الفصل في كل صباح وأنا أقفز وأردد بمرح "هاي لاي لوم هاي لاي لوم"، كما أقول في كل مرة: "كم أنا محظوظة بكم، وكم أنا محظوظة كوني معلمة."!

أخجل بعض الأحيان من البوح بعشقي هذا. قد يقول بعضهم 'إنها وظيفة وحسب!" أو "لقمة العيش!" لا، ليس هذا كل مافي الأمر! بل التعليم هو "قطعة من الفؤاد، فلذة الكبد!' أشعر بالتأثر وأعجز عن التعبير بشكل كاف.

*ولدت عام 1970 في بلدة قاغيزمان التابعة لمحافظة قارص. أكملت تعليمها الابتدائي في قاغيزمان وقاربوزلو وأوشاك. بعد إتمامها للمرحلة الثانوية في ثانوية الجمهورية بأيدن تخرجت في 1992 من جامعة تراقيا بتخصص اللغة التركية وآدابها. وفي 1995 أتمت دراسة الماجستير. عملت في معهد خاص وفي ابتدائية أتاتورك بسيليفري وابتدائية بورصة أدرنة التجارية. ومنذ عام 1997 وهي تعمل كمعلمة للغة التركية وآدابها في ثانوية أدرنة.

لها نصوص مسرحية كوميدية لم تنشر. كما أن لديها العديد من الجوائز المتعلقة بالكتابة. والآن هي تعكف على كتابة كتاب عن القراءة السريعة. متزوجة وأم لبنت واحدة.

القلب أيضاً يفكر

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

مرت ثمان سنواتٍ على الموقف. كبرت معك ونضجت وتجددت. من يدري في أي رقعةٍ من الأرض أنت الآن. مع من تشارك يداك الصغيرتان برد الليالي، ومع من تتقاسم كسرة خبزك... أنا كما تركتني لكني في بعد آخر. أصبحت أنظر إلى عيون طلابي بتفهمٍ أكبر عند دخولي إلى الصف. أدرك ما يريدون دون أن أسألهم. وبدل أن أستهلك أكثر مما أحتاج أصبحت أستهلك أقل مما أحتاج وأتشارك الباقي مع الآخرين مثلك. مازالت لدي وحدتي بجانبي الأيسر؛ أنت من علمني ذلك يامعلمي الصغير؛ فحتى وحدتي أصبحت أشاركها مع الآخرين دونما خجل...

عرفت الآن أن الكتب لا تعلمنا كل شيء. أقدم لك الشكر ألوفاً يا أيها الملاك صاحب العين السوداء، يا من علمني الإخلاص والكرامة والمشاركة والوقوف بثبات رغم كل الظروف، يامن علمني -باختصار- أن أكون إنسانةً بحق.

الجميع نظر إليك وأنت عزيز النفس. الجميع رأى جواربك المرقعة وأنا غاضبة وغير متفهمة. سامحني يا ملاكي، كما قيل، لو أن لديك قِدراً في البيت يغلي وتملك اليسير من المال فأنت ملك هذا الكون. أغمضت عينيك فجأة؛ إما أنها لا ترى أو لا تريد أن ترى، وقلبك تبرأ من الإنسانية. لكنك رغم ذلك جلست بأدب. هل يكون سهلاً لي أن أشرح الدرس و أقدامك غارقة في ماء الثلوج ولسانك الذي لا يعرف الكذب يحتج على الفقر؟ كم وكم أنصتّ إلى ما أقوله وأنت في وضع البائس بين أقرانك؟ جاء وقت الفسحة وخرج الجميع. طلبت منك البقاء فبكيت. بكيت بكاءً نطقت فيه أنهار عينيك ووقف جبل آغري للثورة. حضنتني بقوة. أتعرف؟ لم يحضنّي أحدهم بعدها بهذا الشكل. تبادلنا النظرات كأم وولدها؛ ثم ضحكنا على بكائنا. ضربت الشمس وجهك فلمعت عيناك السوداوان. أخرجت من جيبي نقوداً و مددتها إليك حتى تشتري بها حذاءً جديداً لكن عزة نفسك منعتك عن أخذها. قصصت عليك قصة بعدها فنجحت في إقناعك. أخذتها وأنت تقول: "أعدك يامعلمتي." أتعرف؟ ليلتها لم أستطع النوم، بقيت أسأل نفسي طوال الوقت. وأدركت أن عملي كمعلمة لا يعني حملي للحقيبة اليدوية وتجولي بها في المدرسة فقط. في الوقت الذي كنت أقضي وقتي في غرفة منزلي الدافئة أنظم أشعاراً حول الحياة، تعلمت معك أن التعليم ليس في الشرح على السبورة فقط. فأنا اكتشفت الحياة معك من جديد.

اليوم التالي كان صدمةً أكبر في حياتي. دخلت إلى غرفة المعلمين مبتسماً وهتفت لي. لمعان عينيك يومها خلت معه أني ولدت من جديد. أريتني حذاءك الجديد؛ كان يلتمع كأحلامك. وقبل ذهابك دسستَ في يدي قدراً من المال.

سألتك: "ماهذا؟". أجبتني بأنك اشتريت الحذاء من السوق الشعبي حتى لا يكلف كثيراً، وأن هذا هو المتبقي من النقود.

كم كنت أصيلاً يا طفلي الجميل؛ كم كنت أصيلاً... من علمك كيف تكون بهذه البراءة والكرامة؟ هل كنت أنا معلمتك أم كنت أنت من يعلمني الإنسانية؟

خرجت إلى رحلتي بعد أن قبّلت يد أمي، لم أنس كلماتها أبداً، "في حفظ الله ياصغيرتي. لا تغضبي على الأطفال مهما حدث..." كم هو إحساسٌ جميلٌ أن تكون معلماً، وكم هو مدعاة للفخر، ربما لم أستطع أن أصبح أمّاً ولكني كنت أنفس الكنوز للمئات بل للآلاف من الأطفال. رغم شحوب وجهي إلا أنك كنت تفهمني وتدرك أن شيئاً ما لم يكن على مايرام. عندما أضحك تضحك عيناك، فينعكس لمعان الشمس على فؤادي. أنت بقلبك البريء ذاك لم تكن تريد خبزاً أو مالاً أو شيئاً آخر، بل كان كل ما تريده مني هو القليل من العطف والحنان. كنت كبيرةً في عينيك ونبيلةً لدرجة أن كلماتي كانت بمثابة قوانين في معجمك الصغير.. عند بداية الدرس كنت تنظر إليّ بإعجاب كبيروكأني لست مجرد معلمةٍ لك، بل بطلتك السرية. كنت أعرف وأفهم كل شيء، أشعر بأطفالي من نظراتهم... سامحني، أرجوك ياصغيري. فأنا لم أفهمك...

أتذكر؟ كان الثلج قد هطل على إسبارطة بندفات ضخمة، واكتست كل الشوارع بالبياض، الجبال والسهول كذلك. كم كان منظر جبل داوراز مهيباً وسط العاصفة الثلجية. إذا كانت يداك دافئتين وظهرك، فأخبرني من كان ليدري عن البرد الذي يستقر بعظامك؟

دخلت إلى الصف. تبادلنا التحايا كالعادة في كل مرة. كما تعرفون فنحن كمعلمين لا نجلس أثناء الحصة، فعلينا أن نوفي حق ما نتقاضاه من أجر.

شرحت الدرس واقفة، وأنت كنت تنصت إليّ من مكانك الذي كنت تجلس فيه ببراءة. طلبت منك أن تنهض إلى السبورة. لكن كانت تعلوك تعابير مختلفة هذه المرة. قلت: "لا أريد الوقوف!". لم أصدق ردك فغضبت و أمرتك بالوقوف مجدداً. امتلأت عيناك بالدمع لكنك لم تقف. كان مؤسفاً أن كبريائي هزمني، فأنا التي يفترض بي أن أشعر بتلاميذي لم أشعر بكبريائك الذي جمده البرد بسبب الفقر. نهضت، نعم نهضت وانحدرت دمعة على خدك، أتيت إلى جانبي ونظرت إلى عيني. لولا إصراري لما تكلمت، أعرف ذلك. اقتربت بأدب وهمست في أذني، لا أنسى ما همست به لي حتى اليوم: "معلمتي، حذائي متهتك وجواربي ظاهرة، أخجل من أن يراها أصدقائي..."

أتعرفون؟ قد تقتل الرصاصة الإنسان مرة؛ لكني حينها متّ ألف مرة.

الثاني على تركيا 2005/ مانيسا

لدي اعترافٌ لك

فيليز ناملي*

أيها الطفل الجميل الذي علمني معنى الحياة، أريد أن أكتب عنك الليلة...

مدّ القمر رأسه من النافذة قبل قليل؛ رفعت رأسي ونظرت إلى السماء. وحدتي على جنبي الأيسر، لم يكن لي غيرها، وذكريات السنوات الثمان التي تركتها قبل مجيئي إلى هنا. النجوم مرصوصة صفاً صفاً في السماء، كانت ليلة لامعة، تذكرت عينيك، وكلماتك التي تذكرني بالإنسانية. يا ملاكي الجميل، كيف لي أن أنساك؟! قد يكون ما سأقوله لك غريباً، ولكنك قد تكون أعظم معلم لي حقاً.

هل تذكرتني؟ في العام 1998، كانت تغمرني فرحة الحصول على شهادتي الجامعية، وبتعبير أمي، فرحة التحول إلى إنسان له اعتباره. هذا صحيح، لقد كبرت، درست وأصبحت إنساناً مستقلاً. جانب مني يرغب في كسب المال بما أني بلا عمل، والآخر يعيش فخره المستحَق لرغبته في خدمة الإنسانية. قد يكون هذا العمل هو أكبر هدايا الخالق لنا. رأس مالي هم أطفالي، لكن صدقني؛ أنا أيضاً كنت في هذه الحياة طفلةً صغيرةً مثلك على أقل تقدير. لطالما رافقني الشيء المر الذي يُدعى الحنين. تركت كل ما أحب خلفي وجئت إلى هذه المدينة. لقد كنا نشبه بعضنا كثيراً في الحقيقة؛ فقد كان لديك أحلام بما يخص المستقبل؛ آمالٌ تشبه حلوى التفاح. وأنا بقيت لي أحلامي بشأن كسب المال...

*ولدت عام 1975 في مدينة أنقرة. درست الثانوية في مدرسة صوقولو محمد باشا. وفي 1998 تخرجت في جامعة الجمهورية بتخصص الأدب الإنجليزي. باشرت وظيفتها الأولى في منطقة أغري بمحافظة إسبارطة. والآن مازالت تزاول عملها كمعلمة لغة إنجليزية في ابتدائية أحمد توتونجو بمدينة مانيسا.

لدي اعترافٌ لك

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

الثلج كأوزةٍ جريحة. وبعد مدة بدأت تشم رائحة الحناء من جديد. احمر جلدها وشعرت بدفء غامر في جسمها. كان دفئاً حلواً. رددت مرةً أخرى : "سوف أنجح... أنجح... أنجـ..". تكاثف الثلج الذي كان ينهمر متجمعاً فوق جسد زليهان. شعرها الأحمر استحال أبيض كاللثام. وسقطت خصلات شعرها المبتلة على وجنتيها الحمراوين. أحاطت حبات الثلج المتساقطة بجسدها من كل مكان كفستان عروس. وبقي الثلج يشاهد جسدها البض النحيل المتمدد وسط البياض دون حركةٍ لساعات. والليل جاء زاحفاً ببطء وغطاها.

عنها أكثر. لم تدرك أنها كانت تتبع خطوات نفسها هي. استمرت بالمشي في مكانٍ بعيد راسمةً دوائر في الثلج. إنها تعرف هذه الأماكن جيداً كما تعرف خطوط كفّها، فقد كانت تجمع أزهار النرجس والأقحوان والبنفسج هنا بينما نسائم السهول المنعشة تمسح على وجهها حاملةً معها رائحة أزهار البيتونيا. تجري تحت قوس قزح وتصعد فوق التلال. ولكنها الآن لا تستطيع قطع أي مسافة نحو مبتغاها. مع كل خطوةٍ تخطوها كانت المسافات تطول أكثر. لو استطاعت تجاوز هذه التلة الصعبة فلن يبقى شيء، آه لو تستطيع الوصول إلى معلمتها. لفتحت أجنحتها و ضمدتها وأدفأتها، ولم تكن لتجعل منها طعاماً للذئاب والطيور الجارحة. كانت ذراعاها تحميانها، لديها القوة لفعل ذلك، وهل من السهل تأمين قبول لها في مدرسة بأنقرة؟

لم يكن ثمة تربة ولو بحجم رأس الدبوس حتى تتشبث بها. فكل شيءٍ يرقد في هدوء تحت طبقة كثيفةٍ من الثلج. كانت الحفر التي تنزلق فيها قدمها تخلّ توازنها وتنهكها وتستهلك طاقتها أكثر. بعد مدة من المشي المتعثر لم تعد في ركبتيها أي طاقة للمشي. وهدير الرياح الذي لم يصمت أبداً جعلها تترنح. والرياح التي لم تسكن منذ بداية الطريق كانت تضرب جسدها البض النحيل باستمرار. لكن لم يكن هناك ما يثني عزيمتها. لم تفكّر بالعودة أبداً ولم تضع أي احتمالٍ لذلك.

على بعد مسافة ليست بالبعيدة كانت وقت الغروب المختنق بانتظارها، ومن بعدها سيخيم الظلام. ربما كان عليها أن ترتاح قليلاً، عندها ستستطيع أن تمشي بسرعة أكبر. أسندت ظهرها إلى جذع شجرةٍ مطحلب وجدتها أمامها. حاولت تغطية وجهها بالإزار على وسطها. في تلك اللحظة انتشرت رائحة حناء بقيت من شعر أمها داخل صدرها. فتحت أمّها ذراعيها الدافئتين واحتضنتها. قبلتها وشمّتها. لكن الريح العاصفة بددت كل ذلك. راحت زليهان تتنفس بعمق حتى تشم الرائحة وتعيش تلك اللحظة من جديد. أحسّت بداخلها يدفأ قليلاً. فتجدد أملها وقالت بصوتٍ مرتعد من البرد بينها وبين نفسها :"سوف أنجح." أصبحت تواجه صعوبة في فتح أجفانها. وعندما حاولت أن تعتدل في وقفتها لم يطاوعها جسدها. مازال أمامها طريقٌ طويلٌ لتقطعه، عليها أن تستجمع طاقتها وتكمل. سلمت نفسها لأحضان

سيأتون بعد سويعاتٍ لأخذها، سيأخذونها إلى مكانٍ لاتعرفه وسط أناسٍ لا تعرفهم. في ظرف يومٍ واحد سوف تصبح منتميةً لقومٍ آخرين وتنسى كل ماضيها. في ظرف يوم واحدٍ فقط سوف تنتزع من طفولتها وتصبح شخصاً آخر. ما الذي يمكن أن يمنحها حفل زفافٍ تقليدي بأصوات الطبول والمزامير والطلقات النارية، وزوجٌ هو أكبر سناً منها بكثير، وعائلة جديدة لا تعرفها ولا تعرف أعرافها وتقاليدها. لكن كان عليها ألا تقبل بذلك، عليها هي أن توجّه حياتها كيفما أرادت، وأن تستعيد مستقبلها المنهوب من قِبلهم. فكرت بضرورة تخلّصها من هذا الوزر الثقيل على أكتافها الصغيرة. ماذا لو فتحت هذه النافذة ونزلت متعلقة بهذه الشجرة المتسلقة وركضت إلى معلمتي، هل سيكون في هذا خلاصي؟ كانت تلك الفكرة كشرارةٍ قدحت في رأسها. أحست ولو لوهلةٍ بالثقل يخف عن قلبها.

مشت ذهاباً وإياباً أمام النافذة لمدة. رفعت شعرها خلف أذنيها بيديها اللتين مازالتا ترجفان. نظرت نحو الطرق التي تفكر في المشي عليها، كان الثلج المنهمر بحباتٍ كبيرة والبرد الكامن متربصاً سيصعبان من مهمتها ولكنها بعد عدة ساعاتٍ كانت ستبلغ وجهتها.

كيف فتحت النافذة الخشبية ثم تعلّقت بالشجرة هابطة من الدور الثاني، حتى هي لم تلاحظ. سقطت على ظهرها في الثلج وهي تحاول النزول. نهضت على الفور وتجاوزت سور الحديقة المصنوع من الطوب ثم راحت تمشي في الطريق الصعب. خطواتها تتسارع في الطريق الأسود القاتم و الموحل محاولةً ألا تنزلق.

مشت لساعاتٍ حتى ابتعدت عن البيوت تماماً، والجو كانت برودته تزيد رويداً رويداً مما كان يصعب عليها مهمتها أكثر. في الحقيقة لم تكن زلهان غير معتادة على البرد، فكم من المرات نظفت فيها سطح البيت من الثلوج، وكم مرة استيقظت في عتمة الصباح وغسلت السجادات بالماء البارد. لكن البرد المتراكم عليها في هذا المكان البعيد كان يؤثّر عليها بشدة.

في لحظةٍ ظنّت فيها أنها تاهت أخذت تتبع آثار أقدام وَجَدَتها أمامها. اعتقدت أنها بهذه الطريقة سوف تقطع طريقها بسهولةٍ أكبر ولكنها لساعاتٍ لم تتجاوز التلة التي كانت في مرمى نظرها، بل أحسّت بأنها أخذت تبتعد

"على المرء ألا ييأس أبداً في سبيل تحقيق أهدافه. أعرف أن الظروف التي تعيشون فيها في غاية الصعوبة. قد يضطر كثير منكم أن يعمل في مجالاتٍ أخرى خارج مجال الدراسة. الظروف الإقليمية والطبيعية صعبة في هذه النواحي. وإمكانيات مدرستكم محدودةٌ جداً. لكن لا تنسوا، مهما كانت الظروف والعوائق صعبةٌ أمامكم، تستطيعون بالعزيمة والإصرار تحقيق أي شيء. لأن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي خلق مؤهلاً لتحقيق ما يريد. فكّروا في نبتة الجعيدة وكيف تنبت في ظروف صعبة وقاسية وتخضرّ..."

تركز تفكير زلهان فجأة على كلمة "جعيدة" وجمعتها ذاكرتها بنبرة صوت أمّها. فسألت معلمتها:

"مامعنى جعيدة يامعلمتي؟"

سرّت معلمتها من سؤالها، التفتت نحوها ونظرت إلى عينيها اللامعتين. حاولت أن تجيبها بكل لطف:

"إنها زهرة جميلة الرائحة يميل لونها إلى البنّي الفاتح، ولها رائحة جميلة. وهي تنبت في الظروف القاسية. فحتى بذورها التي يذروها الهواء فوق الصخور تلتصق بذرّة تراب بحجم رأس الإبرة ساقتها الرياح ثم تنبت. تتفتح أزهاراً باللون الأزرق أو الأبيض. مع مرور الزمان تنتشر جذورها الدقيقة داخل الصخرة مشققة إياها، حتى إنها تسمى أحياناً "فالقة الصخر" لهذا السبب. تسمى أيضاً زهرة الألم لكونها تستخدم كمسكّن للآلام ومطيب للجروح. إن الجعيدة هي رمزٌ للإصرار وعدم فقد الأمل. لكونها تنبت في أشد الظروف حتى فوق الصخور وتسكّن الآلام أصبحت مصدر إلهامٍ للناس."

رائحة حناءٍ في الثلج

عند نظر زلهان من خارج النافذة كانت تحسّ بوجع الزمان المركز في أنحاء جسدها. ظنت حبيبات الثلج قد بقيت معلقةً في الهواء وبرّدت جسمها. لم يمر يومان على تعرّضها لأكبر خيبة أمل عاشتها. ورغم كل محاولاتها لإقناع أبيها إلا أنها لم تنجح، بل تعرّضت للتوبيخ الشديد وفقدت كل ما لديها من أمل.

"شاوري أهلك في الموضوع لأن علينا أن نحصل على موافقتهم، أنا سأذهب إلى المدينة غداً وأعود بمعلومات أشمل، ويوم الإثنين نتحدث من جديد." قالت المعلمة مضيفة.

انصرفت زليهان من المدرسة والفرحة لا تكاد تسعها، مشت نحو منزلها بخطواتٍ في غاية الثقة. ذهبت لتستقبل نهاية الأسبوع الذي سيحتضن لها حماستها وفرحتها. قطعت الأزقة الضيقة الواقعة بين المدرسة والمنزل في لمح البصر. طوال الطريق فكرت في مدرستها الجديدة ونسجت أحلاما بشأن مستقبلها. عند اقترابها من حائط المنزل غير (المليّس) سمعت أصوات جلبةٍ صادرة من الداخل تشي بحدوث شيءٍ غيرعادي. عند دخولها من باب الفناء رأت أشخاصاً لا تعرفهم ولم ترهم من قبل جالسين تحت المظلة. نهضت بعض السيدات حتى يستقبلنها ويقبّلنها. بقيت زليهان عند رأس درابزين السلم غيرفاهمةٍ لما يجري.

أخبرتها زوجة أبيها التي كانت في المطبخ الصغيرللبيت بما يجري. "ليجعله الله مباركاً، ويرزقك خيره ويكفيك شره، لعلها قسمة خير"

تجمّدت زليهان أمام ما تسمعه للحظة، لم تعرف كيف تتصرف. انطفأ بريق عينها الأخضر. شعرت بروحها تؤلمها. وأحسّت بالدنيا وكأنها راحت تدور بسرعة أكبر، ترنحت واستندت على الحائط الجصي حتى لا تقع. حاولت بلع ريقها الجاف حتى تحل عقدة لسانها وتنطق، بعد مدةٍ استطاعت أن تنطق بصعوبة. "لكنني أريد أن أكمل تعليمي" كان ذلك كل ما استطاعت أن تنطق به لكن ارتعاد نبرة صوتها كان واضحًا. قطبت زوجة والدها وجهها المنمش قائلةً:

"وهل سنجلس لنساوم معك هنا؟ هذا غيرمقبول! نحن نريد مصلحتك، لا تكترثي للمدرسة، فهذه القسمة لاتفوت. ثم ما الذي حققنه اللواتي درسن بحق الله؟ ألم يتزوجن في النهاية؟ لقد تدبرنا أمركل شيء، يوم الأحد القادم ستذهبين."

زهرة الألم

في ذلك اليوم كان جميع الطلبة ينصتون إلى شرح المعلمة باهتمام.

كانت زليهان بذكائها اللامع وعزيمتها على التعلم طفلةً فريدة. تمثّل مدرستها في المسابقات المحلية وتحرز فيها المركز الأول كل سنة. كانت صقراً مجنحاً في مدرستها؛ تركز على الهدف وتعمل بجد وحماس لتحقيقه، وتنتزع ما تريد الحصول عليه؛ لكنها بمجرد عودتها إلى البيت تنزع أجنحتها وتضعها تحت وسادتها. تنزوي إلى ركن كحمامةٍ خائفة وتبقى هادئة. لم يكن أبوها يهتم بنجاحاتها المدرسية. ولولا إلحاح أمّها المستمر لما سجّلها في المدرسة أصلاً. كانت زليهان طفلةً سعيدةً ومليئةً بالبهجة؛ لكن ضحكاتها كانت غالباً ما تصطدم بحواجز زوجة أبيها الصلبة فتتبدد. لكنها رغم ذلك كانت طفلةً متكيفة، تقبّلت زوجة أبيها كما هي بكل تصرفاتها السلبية مؤمنةً بأنه لا كامل إلا الله. كانت معظم شؤون البيت مسؤوليتها هي. تصحو قبل شروق الشمس، ترتّب البيت وتشعل المدفأة وتجهز الإفطار وتوقظ بقية أفراد الأسرة. كما كانت تتولى العناية بأخواتها الثلاث وحدها.

في يوم جمعةٍ موحلٍ قتمت فيه الغيوم وجه السماء، وفي وقتٍ يقترب من المساء سحبت معلمة زليهان إياها إلى أمامها وبشرتها وهي فرحة:

"أنت على وشك حصاد ثمرة جهودك يابنتي، لن يذهب شيءٌ سدى. لقد جاء وفدٌ من مدرسةٍ في أنقرة وسمع بنجاحاتك. إنهم يرغبون في أن تنضمّي إلى مدرستهم كطالبة داخلية مقابل أن يتكفلوا بجميع مصاريف دراستك."

كانت زليهان مشدوهة، سألت معلمتها عن معنى ماتقوله.

"اسمعي يابنتي، هذه مدارس تملك جميع الإمكانيات اللازمة، يتلقى الطلبة فيها تعليماً مميّزاً ويحققون فيها مع مدرستهم النجاح الأكيد، هذا يعني أنك لو درست في هذه المدرسة فسيكون بإمكانك في المستقبل أن تدرسي التخصص الذي تريدينه. طفلةً في مثل ذكائك و نباهتك لا تناسبها إلا مدرسةٌ كهذه. عليك أن تفكري في العرض من أجل مستقبلك. ونحن سندعمك طوال الطريق."

لم تصدق زليهان ماتسمعه، بقي فمها فاغراً من الفرحة. لقد أصبح بإمكانها أن تتلقى تعليماً أفضل وتصبح في المستقبل صاحبة عملٍ محترم. تذكرت أمنيات أمّها بشأن مستقبلها. وشعرت باقترابها خطوةً أكثر نحو هدفها.

كانت زليهان ماتزال طفلة في الثالثة عشرة من عمرها. عودها نحيلٌ طويلً ولها شعرٌ أحمر يتلون عند شروق الشمس. كانت تبتسم للناس بنظراتها المضيئة، وحين يقع شعاع على عينها الخضراء الزمردية يُظن بأن الشمس ظهرت بعد أمطار غزيرة. لها رموشٌ طويلةٌ سوداء تبدو كرماح ترتفع وتهبط تحت غرة شعرها.

كانت أمها تناديها "جعيدة"، تأخذ خديها الأحمرين بين راحتي يديها في الليالي وتمسح على شعرها كأنه أزهار القرنفل لتنام. كانت تثق فيها كثيراً. وتتوّقع منها الكثير.

كانت تردّد:

"جعيدتي أنا، ابنتي الحلوة وزهرتي البيضاء. ستتعلم وتحلّ مشاكل البلاد. وستكون قدوة ومثلاً أعلى لكل الفتيات."

أمّها سلطانة ولدت وترعرعت في قرية كائنة على منحدر جرف صخري. ولكونها أنثى لم تُرسل إلى المدرسة وهي صغيرة، ولكنها تعلّمت الكتابة والقراءة من كتب ودفاتر إخوتها الذكور. كانت تنتظر عودتهم من المدرسة بفارغ الصبر، وبعد عودتهم تذاكر معهم الدروس على ضوء الفانوس الغازي. لم تفهم عائلتها عنادها وإصرارها العجيب هذا على التعلم أبداً.

ترك فيها حرمانها من الدراسة عقدة. لذلك كانت مصممةً على تعليم ابنتها مهما كان الثمن. ورغم كل الاعتراضات إلا أنها سجلتها في المدرسة. في تلك السنة وعندما تعرفت على المعلمة التي عُيّنت في القرية تضاعفت لديها رغبة تعليم ابنتها. كانت تحفزها من أجل أن تستذكر دروسها كل يوم ولا تكلفها بعمل أي شيءٍ عدا ذلك. لطالما شعرت بالفخر من نجاحات زليهان حتى تُوفّيت في سنٍّ مبكرةٍ بسبب السرطان. لم تحظ بابنٍ ذكر أبداً. كانت أهم وصيةٍ تركتها لزوجها قبل موتها تتعلق بجعل زليهان وبناتها الأربع الأخريات يكملن تعليمهن. وعدها زوجها بأن يحقق لها ذلك ولكنه مع مرور الوقت سيهمل الوصية وينساها.

الصقر المجنح

الثالث على تركيا 2008 / أضنة - 2

نبتة الجعيدة

علي شان أوجي*

"دخل لص إلى طفولتي وزرع برداً في حِجري
نقصت خُطاي"

أخذت زليهان نفساً عميقاً، ونظرت إلى بياض الثلج الناصع الذي يمتد أمامها بلا نهاية ويخطف الأبصار. سرت بجسدها قشعريرة. كان الجو ضبابياً وقاسياً. وبينما كانت الرياح تدوي بشكلٍ مرعب كانت السماء برماديتها تبدو وكأنها ستنهار فوقها في أي لحظة. كونها وحيدةً في هذه الأرض الواسعة كان ينمو من خوفها. استمرت في التقدم غير آبهة بهطول الثلوج الشديد. كانت الثلوج الهابطة من السماء كحبات القطن رافعة مستوى الثلج على الأرض سانتيمتراً تلو الآخر تصعب عليها مشيها. كانت تشعر بالبرد الشديد، استحال لون يدها البيضاء إلى بنفسجي فاقع وامتلأت بالتشققات. محاولاتها لتدفئة يدها بأنفاسها الحارة أو داخل أكمامها بين حين وآخر كانت بلا فائدة. ندمت على عدم ارتدائها لملابس أثقل من هذه أثناء خروجها من المنزل على عجل. على ظهرها قطيفة بلون نيلي أزرق، وفوقها معطف خفيف لايكاد يقي من البرد، في أقدامها حذاء بشع وعلى رأسها شالٌ طويل.

*ولد عام 1973 في قرية باشاق التابعة لقضاء قيزيل تبه في مدينة ماردين. بعد أن أكمل تعليمه الأولي في قيزيل تبه درس تعلم الرسم والفنون اليدوية من جامعة دجلة وتخرج عام 1998. فتح ثلاثة معارض لرسوماته الخاصة، واشترك في أحد عشر معرضاً جماعياً. حالياً يعمل كمدرس للتكنولوجيا والتصميم في ابتدائية دده قورقوت بأضنة.

نبتة الجعيدة

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

الماضي عندما قبّلت يد جاري. كنت قد خبأتها كذكرى لاتنسى حفاظا على هذه الدلالة، دلالة الانتقال من عصر حلوى المصاص إلى عصر الحلوى الجيلاتينية. ربما لم تسمح لي نفسي بأن آكلها. كانت الحلوى تنتظر يوماً مميزاً، بداياته حبٌّ بريء يتبعه رسالة داخل ظرف وردي مهداة إليّ من قِبَل أول بناتي. هذه المكافأة الخاصة لا يستحقها سواك يا معلمي.

طرقت بابك مساءً كمطر البحر الأسود العنيف الذي اعتدتَ عليه. كان المطر والبحر والكمنجة الممتزجة ببعضها على نار الحطب والخبز الساخن والزبدة والجبنة والدبكة كلها تعني الحياة والرومانسية بالنسبة لك. لقد سبق أن أخبرتني عنها كلها لذلك أنا أعرفها. عندما قبلت يدك وحشرت فيها قطعتين من حلوى الجيلاتين الزرقاء ذهلت وسألتني: "ما هذه؟" فقلت لك:"سكاكر الضيوف يا معلمي؛ أنت أيضاً لا تعرف طعمها؟" "فهمت ولكن ما موضوعها؟" "أعطاني إياها جارنا فخبأتها. هدية لك في يوم المعلم..." عندها اتحدت أمطار الشرق والغرب وسالت السيول بلا توقف فلم يبق بيننا لا سد ولا صمت من يومها. في اليوم التالي أصدرت أول أمر منع "الهدايا ممنوعة منعًا باتاً!"

***

هل مازالت الحلوى التي ربطتها بربطة حمراء مع خرزة الزرقاء في مكانها التي علقتها فيه على الحائط يامعلمي؟

***

نسيت عمر الفراشة وأنواعها ونسيت بأي مكان في الخريطة تقع أمريكا وأول من حط على سطح القمر وأسباب الحروب ونتائجها... لكن لم أنس كون الخجل من الأيدي المبقعة بالسواد وعرق الجبين خطأً... لم أنس إمكانية تحول الليالي الزيتية إلى اللون الأزرق...

لم أنسك أنا، كما لم تنسك أمي منذ اليوم الذي كتبت اسمها في خانة رئيس البيت، رأسها مرفوع وجبينها مجعد، أمي صاحبة عصى جمع البندق.

من يعرف أين أنت الآن، ماذا تفعل وأي قلوب تدفّئ؟ إن كنت تتساءل في مكانك البعيد عني فدعني أخبرك أن يديّ مازالت سوداء ولكن جبهتي بيضاء، بل ناصعة البياض يامعلمي...

فرادة بصمة أصبعك. بعد زمن طويل عرفت أن أمك علمتك وأنفقت عليك من عائد حليب بقرة واحدة حتى أصبحت معلماً. وأن أفخم طعام إفطار مر بجوفك كان القويماق. كانت أمي عندما لاتجد زيتوناً أو جبناً، واللذان كانا لا يجتمعان على سفرتنا أبدًا، تخلط دقيق الذرة بالماء وتشبع بطوننا به. الفرق بين القويماق الخاص بنا والخاص بكم أن الذي كنّا نأكله ليس به جبن مالح.

في أهم أيام حياتي وأكثرها معنى، أعني اليوم الذي أصبحت فيه معلماً لم يكن ممكناً أن أقول لك: " معلمي دعني أطلي حذاءك!" بالطبع.

نعم، اليوم هو يوم زيتي اللون بالنسبة لي. ليس من المناسب أن أتحدث عن السواد في هذا العمر وأرتدي ملابس العزاء. فأنا مازلت في موسم حياتي الأخضر. لكن اليوم لونه زيتي مائل إلى السواد. اليوم هو يوم المعلم، 24 من تشرين الثاني. أول يوم معلم لي... عليّ أن أكون أول من يهدي هدية إليك. كما يجب أن تكون هدية لاتنساها. لكن البارحة كان اليوم ممطراً والأعمال كاسدة. حتى النعمة التي قلت أني سأصبح رجلا متعلماً له اعتباره لمعرفتي سعرها لم أستطع شراءها. واليوم لم أرغب للصبح بأن يأتي أبداً. لكن الليل مر بسرعة البرق، لأول مرة أتقزز من هتاف أمي :"هيا يا ابني، ستتأخر عن المدرسة!" أخبرتها أني مريض وتبدّى رفيقي الأبدي على وجهي من جديد. من يدري كم من الهدايا الزاهية الجميلة سيجيء بها زملائي ويقبّلون يد المعلم المباركة.

بعد الانصراف من المدرسة مرّ بي صديقي يوكسَل. أصبح أول شيء تفعله عندما لا تراني في الفصل هو أن تسأل عني. مع تعرفي عليك أكثر اتخذتك مثالاً لي. سوف أصبح معلماً مثلك. بل سوف أنافسك وأصبح أفضل منك في كل شيء. عندما علمت من صديقي يوكسل أنك سألت عني تقدمت عليّ بفارق هدف مجدداً. لكن أتعرف، لأول مرة أستمتع بالهزيمة.

أدركت ولو متأخراً أنه لم يكن من الصواب تركك وحيداً في أول يوم للمعلم. فقررت أن أجيء إلى منزلك. كم أردت أن أحضر لك بيدي الداكنة علب هدايا بيضاء. خطرت على بالي فكرة رائعة بعد مدة. نعم، لدي الهدية المناسبة لك تحت سريري. أول حلوى جيلاتينية أحصل عليها في العيد

وحرارتك ونظرتك المضيئة أدفأت بيتنا لأنني واقعي. لم نبدأ بالشعور بالدفء إلا عندما كتبت في خانة رئيس المنزل اسم أمي 'ذات اليد الممسكة بعصى جمع البندق'. شعرنا بالدفء جميعنا. وسرت قهقهاتنا عبر المدخنة إلى الشارع. لقد كانت أول مرة تعد فيها أمي، أتعرف ذلك؟ أخذت الدولة أمي على محمل الجد ومنحتها قدرها. من يومها وأكتافها المرتخية أصبحت أكثر انتصاباً وفخراً.

تعلمنا الأعداد في المدرسة. تعلمنا لغتنا والجبال والسهول والبحار، والأهم من ذلك كله، تعلمنا أن نحِبَّ ونحَبّ، أن نحترم ونكسب الاحترام. لا أنسى أننا تعلمنا ارتفاع قمة جبل آغري وقيمة باي... والسعرات الحرارية في اللحم والحليب والفيتامينات في البرتقال...

أتذكر عندما أخرجتني إلى السبورة وسألتني سؤالاً. كان سؤالاً لن أنساه أبداً:" إذا أعطتك أمك 20 ليرة واشتريت 4 خبزات من البقالة فكم ليرة تبقى لك؟" ضربت وطرحت ثم أجبت: "يبقى لي 4 ليرات." نهضت من مكانك بحماس ومشيت نحوي وأنت تكاد أن تطير، قبلت جبيني قائلاً: "أحسنت يابني، أنت تعرف سعر الخبز. سوف تتعلم وتصبح رجلاً ذا اعتبار!" عندها أدركت كوني رجلاً منذ زمن طويل. فقد كنت أعرف سعر الخبز مذ كان سعره مئة وخمسين قرشاً. كيف لي ألا أعرف. في يوم آخر سألتني:"لماذا يداك سوداوان ياولدي؟"... لطالما حاولت أن أنظف يدي لتصبح بيضاء كأيدي زملائي ولكن دون جدوى، فلم يكن الطلاء يخرج. حتى أني حككتها بالطوب الخشن. لكن بفضل ذلك السواد كنت أستطيع أن أجلب خبزاً إلى المنزل كل يوم. فقد كان أوفى أصدقائي خارج المدرسة هو صندوق الطلاء والطلاءات الداكنة، كان لها الفضل في تعليمي ثمن الخبز ومعنى التضخم.

كنتَ قد جئتَ من طرابزون. ومنذ أول يوم لك أدركتُ كونك مثلنا تماماً... فحذاؤك مغبر وضيق على قدمك كما أعتقد. أنا أفضل من يعرف ذلك، فأنا أحسّ. حتى معطفك كان وكأنه مستعار. يقول مولانا جلال الدين الرومي:" كم رأيت من ناس لارداء عليهم، وكم رأيت من أردية لا أناس تحتها." معطف مقزز وحذاء معفر... ليست مشكلة، فما أهمية كل ذلك؟ يكفيني أني أعرف أن تحت المعطف المستعار رجلاً. ضحكتك الذهبية كانت فريدة

فخامة. كنا ثلاثين طفلاً. وكنت أكثرهم هزالاً وسمرة وجفافاً. تدافع زملائي وتركوني في الخلف فسحبتني السيدات من الخلف المعزول إلى المقدمة. قبّلت إحدى السيدات جبيني وتركت ختم شفاهها عليها. بعدها ضغط المصور على زر التقاط الصور. أغمضت عيني وغطيت وجهي بيدي حتى لا يتعرف علي أحد. كان لدينا معطف وكنزة وحذاء، هذا ما يهم، أما ما سوى ذلك فهو لا يهم... كنت وكنا سعداء حتى جاء اليوم التالي. كما تعرف فإن أخبار الأعمال الخيرية تنال مكانها في الصفحة الأولى من الصحف، سواء في الماضي أو الآن. ولكل شيء ثمنه كما تعرف. في ذلك اليوم وعندما أشار زملائي في الصف إلى صورتي في الصحف وشعروا وأشعروني معهم بأنهم عمالقة كجبال هيمالايا بجانبي أدركت حينها خيانة وخبث اللون البنفسجي، أو كونه رفيقي الأبدي.

بعدها بزمن طويل جئت أنت. جئت في الوقت الذي كنت على وشك أن أنسى فيه ذلك اللون، اسم الخيانة وأخي الأبدي، والخائن والبئر العميق، لكن لم ينجح ذلك. كنا في صباح يوم أحد من شهر تشرين الثاني، وقد كان صباحاً بارداً، وياله من برد. في ذلك اليوم كان هناك إحصاء سكاني. دق جرس بيتنا العشوائي الذي كانت مدخنته تدخن أنفاسنا. فتحت الباب. أترى كيف يكسب الناس الموهوبون في الأرقام من اليانصيب مبالغ كبيرة من المال... لو شاركت أنا في ألعاب الحظ هذه فسيكون حظي الكثير من سندات الديون التي ستكفي لرهن مستقبلي كاملاً ربما. ليس ربما، بل بالتأكيد. كان من الشهور تشرين ثان زيتي اللون ومن الأيام يوم أحدٍ متعفن. والجرس المضغوط كان صدئاً. صوت كناريفهق. لابد أنه موظف الإحصاء. كان كما توقعت، لكن قمة التصادف أنك كنت أنت من سيقوم بالإحصاء. لم يقم بعدّي أحد غيرك حتى هذا اليوم، والآن ستعدّ عائلتي أيضاً. ليتك لم تكن أنت من عدّنا! عندما رأيتك بعد صرير الباب عاد إليّ رفيقي الأبدي مجدداً. كنت تشعر بالبرد. ترتعد وأنفك أحمر كالطماطم. قلت: "ألا تسمح لي بالدخول؟" لم يكن بإمكاني قول:"لا!" فاستقبلتك إلى الداخل.

لم يكن لدينا حطب أو فحم. والأرضية اسمنتية مغطاة بمشمع. والعرق الذي ينزح من ظهري يتحول إلى جليد. لا أستطيع قول أن ابتسامتك

الأول على تركيا 2006 / إسكيشهير

سكاكر الضيوف

وداد جيهان*

كان مساءً زيتي اللون. أفكاري وقلبي ومستقبلي، كلها لونها زيتي كذلك... مع أن ضحكتك بملء فيك ونظرتك المشرقة منعتنا من الزيتية. أعرف، لم يسبق لي أن استعملت كلمة "ممنوع!"؛ لكننا أدركنا من طريقة وقوفك وتصرفاتك.

أن تعتيم قلوبنا ممنوع. فباب قلبك كان مفتوحاً للألوان الدافئة. وكل شيء داكن ممنوع، حتى إن لم تصرح بذلك.

لو جئت إلى المدرسة اليوم لما استطعت النظر إلى وجهك، أعرف ذلك. كنت تقول عنا:" زهور لؤلؤية التي تتفتح في تشرين الثاني!" زهور اللؤلؤ تكون صفراء وحمراء وبنفسجية.

لم أكن أرغب في أن أكون زهرة لؤلؤ بنفسجية في عينك بصراحة. فلطالما كان البنفسجي لوناً مزعجاً بالنسبة لي. إنه لون أعرفه جيداً يا معلمي. لقد أدركت كونه أسوأ الألوان قبل سنة من مجيئك. أتسألني كيف؟ كان أحد فاعلي الخير قد عبرّ عن رغبته بكسوة الطلبة المدعوين بالفقراء. بورك فيهن، أخذنني أنا أيضاً حتى أغيرّ الحذاء مقاس 38 الذي كان في قدمي بحذاء من مقاس 34. سيدات متزينات ومتأنقات يرتدين معاطف من الفرو كسوننا وأحطننا بعطفهن. بعدها وقفنا في صف عند أكثر زوايا المتجر

*ولد في إسكيشهير عام 1971. درس في متوسطة عثمان غازي وثانوية التقنية المهنية. تخرج في جامعة قارادنيز التقنية، تخصص اللغة التركية وآدابها. بدأ مزاولة التعليم في ثانوية سورمنه. والآن يعمل مدرساً في ثانوية مظفر تشيل بإسكيشهير.

سكاكر الضيوف

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

ابتهاجي هذا الآن لا يعني أنني لا أفكر في تلك الجملة بين حين وآخر. أصبحت أنظر إلى هجرة الطيور بشكل رمزي.... فالأطفال لقالق يهاجرون حين يحين الميعاد. في نهاية كل سنة حين يتخرج طلابي أردد جملة كولشان هانم "انظروا كم هي جميلة هجرة اللقالق؟".

الشمس حمراء، والحياة تنسكب ماضية باتجاه الشمال، وهنا رسام جلس يرسم طفولتي الحية على قماش الرسم... في يدي طفولة... منظر مهتز... لكن كل الآمال... نحو الشمال.

السيد عطري و كولشان هانم... أرسلوني نحو الشمال... إلى عاصمة العلامات.

كيف لموقف لا تتعدى مدته دقائق معدودة أن يتجلى في جميع مساحات الحياة. هل مررت أنت أيضاً بموقف أثّر على حياتك بشكل مشابه في المرحلة المتوسطة؟ قد يتشكل هذا الموقف بنفس هذه الطريقة في حياة الجميع... صدف أو توافقات صغيرة قد تغير حياة إنسان بشكل لا تقدر عليه آلاف الكلمات. غيرني هذا الموقف إلى حد أنه جعل شخصية عازف الكمان تتواجد في أشعاري وقصصي نتيجة له.

أحد الأبطال الرئيسيين في إحدى قصصي هو عازف كمان، لا أعرف إن كنت قرأتها أم لا. سأرسلها لك إن لم تكن قد قرأتها. موضوعها باختصار كالتالي: عازف كمان يظهر من فراغ مجهول ويأتي إلى ميدان حي قاضي كوي ليعزف فيه. ليس للعازف ماض ولا مستقبل. لا يتكلم، ويكتفي بمشاركة الناس همومهم بنغمات أوتاره.

الأغاني الحزينة وحدها تستحيل لسانا للأشواق والأحزان. العازف، يعود إلى الصمت كما جاء منه. مجرد علامة صغيرة في ميدان قاضي كوي... علامة صغيرة في حياتي. دموع طالبتي هي علامة صغيرة أثناء كتابتي لهذا النص... والسنوات الثلاث التي قضيتها معك علامة صغيرة... وهذه العلامات الصغيرة ستتحول في يوم إلى علامات كبيرة.

الذكريات، آه من الذكريات كم توجع ياصديقي. تذكر معلمة اللغة التركية كولشان هانم، التي كنا نبقى صامتين أثناء حصتها رغم عدم غضبها... والتي كنا نخشى من زوجها لا منها هي... في عصر أحد الأيام وأثناء إملائنا بعض النصوص شاهدَت بالخارج سرب لقالق فهتفَت بصوت يرتعش من الحماس بفرحة طفولية: "انظروا اللقالق تهاجر..." جميعنا نظرنا إلى النافذة بانشداه واستفهام. كان سرب لقالق قد حلق طائراً نحو الشمال. والشمس لونها يميل إلى الأرجواني قليلاً، لقد كان مشهداً مدهشاً حقاً؛ لكن ما أثرفيّ لم يكن هجرة اللقالق بل تصرف المعلمة بطفولية وهي تهتف بفرحة. حيث إننا اعتدنا على رؤية الجانب الجدي للمعلمين فقط. لم يخطر في ذهننا أنهم يمكن أن يفرحوا ويبتهجوا أيضاً. كان ذلك ما أدهشني يومها، فالمعلمة كولشان هانم كانت تبتهج كالأطفال. بل إني متأكد أنها كانت ستقفز من الفرحة لولا وجودها معنا في الصف...

صديقي العزيز، لا أستطيع وصف السعادة التي شعرت بها عند هدوء الموسيقى. أظن أن جميعنا سُحر. (أتعرف، في مرة أخرى أيضاً أخبرني أنه كان عازفاً محترفاً في إحدى الفرق الموسيقية لقناة TRT. وعند سؤالي له عن سبب تركه لها أجابني "أحب الأطفال".) لم يستمر ذلك الانبهار طويلاً، وعاد الصف إلى فوضاه القديمة، أنت أيضاً شاركتهم، لكن فضولي كان عالقاً بآلة السيد عطري. رفعت يدي، من حظي أنه رآني لحظتها وألقى لي بابتسامة أدفأتني. (مع أن فصلنا وكما تعرف كان يفضل ألا يسأل المعلمين، لأن احتمال تلقي التوبيخ على السؤال كان حاضراً. هل سبق لك أن استوعبت درس العلوم مثلاً؟ أنا ورغم عدم استيعابي إلا أنني لم أجرؤ أن أسال السيد عدنان قط. لأنه كان عندما يدخل إلى الصف يتحول الصف إلى كابوس. كنا نفكر في نهاية الدرس أكثر من محتواه. هذا ما يسمى الجلوس على الشوك. ٨٠ دقيقة خانقة... منذ ذلك الوقت وعدت نفسي ألا أكون معلماً مثله.) لم يكترث السيد عطري لملابسي وحذائي وجاء إلى جانبي، شعرت بيده تلامس شعري الأشقر. ثم لمس وجهي قائلاً:" كم أنت طفل جميل، لدي ابن أخ يشبهك" جملة ولمسة، كان هذا كل ذلك...لم أنس تلك الجملة واللمسة... لم أعرف لحظتها أنني لن أنسى ذلك الموقف ما حييت؛ لكن علي الاعتراف أني شعرت بالاعتزاز... بعدها سألني عن سبب رفعي ليدي فأخبرته أني أريد معرفة اسم الآلة فأخبرني أن اسمها هو "كمان". ثم قال:" أتريد أن تعزف عليها؟ ما دمت تشبه ابن أخي فلك الحق في أن تعزف على كماني الذي لا أناوله أحداً!" أجبته بهز رأسي موافقاً بسعادة. ثم التفتُّ إليك وضحكت...

عندما تناولته بيدي شعرت بثقل. و بسلاسة موسيقيّ محترف موضعته عند رقبتي. وعندما مررت القوس على الأوتار صدرت أصوات غريبة وحادة. كأن الكمان يقول لي " توقف! ماذا تفعل؟" عاودت المحاولة لكن الصوت كان نفسه. لم أفلح يومها في إصدار نغمة صحيحة من الكمان. لا بأس، فهذا أول يوم أمسك فيه بكمان، كما أني أشبه ابن أخ السيد عطري. وهل هناك أجمل من ذلك؟! أتصدق يا صديقي، كلمةٌ ولمسة ألهبتا أملي الذي كان على شفا انطفاء... أحسست بكوني مهماً. كنت موجوداً؛ موجودا وجوداً لم يقدر على وصفه لا سارتر في وجوديته ولا ألبيرت كامو في "الغريب"...الآن أدرك

السوداء؟ وملابسي التي كانت أشبه بالخرق البالية؟ أنا لا أنساها؛ كان على السيد عطري معطفٌ متسخ مجعد يبدو أنه لُبس لسنين طويلة؛ قابلته بأحذيتي المنسوجة السوداء التي كانت تسحقني و تشعرني بالخجل. من الجيد أن ملابس جانصو لم تكن بذلك السوء. فهي ليست مختلفة عن ملابس زملائها في الصف... أما ملابسي فقد كانت أكبر مسببات غيظي... كنت حينها أعتقد أن الجميع ينظر إلى حذائي ويسخر مني. فكرت فيما إذا كانت جانصو تفكر كذلك؛ لكني لم أسألها خوفاً أن أؤذي مشاعرها. فكل ألمٍ يفتح جرحاً في الروح. أخشى أن أكون سبباً لذلك حقيقة. أخشى من أن أترك أثراً سلبياً في أي من تلاميذي، ويا لسعدي لو استطعت أن أترك أثراً إيجابياً.

لو استطعت أن أفعل كما فعل السيد عطري فسأكون سعيداً. أتذكر، بعد فاصل التعارف خرج السيد عطري وعاد وفي يده آلة العزف... طبعاً أنا لا أعرف من الآلات الموسيقية إلا المزمار والبزق الذي كنت أراه في الكتب. لكن هذه كانت شيئاً آخر. لم تكن تشبه البزق. وكان لها لون جميل. وضعها على الطاولة وبينما هو يتحدث مع الصف مسح عليها وقال "روح روحي". استغربت وقتها كيف لآلة أن تكون بمثابة "روح الروح" لأحدهم. ثم قال "هذه الآلة" وصمت لبرهة، ثم أتبع بنبرة شخص يعي ما يقول "نغمتها أقرب شيء لصوت الإنسان. يمكن استخدامها مع كل أنواع الموسيقى تقريباً. ولكون المسافات بين نغماتها كبيرة فلها القدرة على التعبير عن كل المشاعر كالحزن والسعادة والخوف." عند سؤاله :"أتريدونني أن أعزف؟" أجبنا، بصوت واحد وحماس :"نعم!" تناول بيده هذه الآله ذات الأربعة أوتار، والمصنوعة من المعدن أو من أمعاء حيوان، وبالأخرى أمسك بالقوس. وعندما حشر الآلة بين رقبته وكتفه أحسست بفضولي يتضاعف لمعرفة كيف سيخرج الصوت من هذه الآلة. مع أول لمستين انسيابيتين موجوعتين كنت قد سُحرت. كانت نغمات الآلة تتماوج في الصف كالأطفال المتصادقين. أدركت في ذلك الدرس أن ليس في مقدور المرء أن لا يتأثر. هناك في ذلك الصف شعرت مع سحر الموسيقى ذاك بعروق الشِعر في ساعديّ، لم يكن ممكناً وصف بهجة قلبي وقتها. ألم يقل سعيد فائق أن داخل كلّ منا شاعر؟

كأوراق رسمية... وهذا يزيد التعقيدات....

صديقي العزيز، أثناء إنصاتي لجانصو كنت أتردد على طفولتي. آه لو تعلم كم أسعدني قولها لي: "معلمي أنت تقدرني..." لا أدري، هل تذكر السيد عطري؟ هو أيضاً منحني التقدير الذي أمنحه لجانصو الآن في أول يوم جاء فيه إلى المدرسة... أنت لم تكن تحب الموسيقى، لذلك قد لا تتذكره، ولكني لن أنساه. فأنا كل مافعلته لجانصو هو الإنصات، أما ما فعله هو فقد كان لمسة ونطق جملة... هذا كل مافي الأمر...

عندما دخل السيد عطري إلى الصف بهيبته سكتنا جميعاً. من كان ليعرف أنه سيكون مختلفاً عن السيد عدنان أو معلم الجغرافيا؟ تصرفنا بحذر خوفاً من أن يغضب... لا أدري هل أثّر فيك أنت أيضاً؟ فتفاصيل ذلك اليوم عشعشت في ذاكرتي. أتذكرها بوضوح؛ استيقظت على صراخ السيدة مزيّن الذي يثقب الآذان. أنت كنت يقظاً دائماً بينما كنت أنام بين حين وآخر، مازلت أمازح طلابي في الصباح، أقول لهم:"لا تطيروا لي نومي ياسادة وياسيدات!" فيضحكون ويجيبون: "ولكنك مستيقظ يامعلم!" فأرد عليهم مبتسماً:"هذا ما تظنونه." ثم نكمل الدرس. (حدت عن الموضوع من جديد ياصديق، يبدو أن عادتي هذه لن تتغير...) في الساعة الثالثة والرابعة خرجتم أنتم ولكنني بقيت في الداخل؛ لأني كنت في غاية القلق والخوف. فالسيد خلوق معلم الموسيقى كان قد أخبرني ألا أجيء إلى المدرسة دون مزمار. لقد كان انتظاراً قلقاً. جميع الانتظارات مقلقة، ولكن هذا كان أشدها وطئاً... بعدها دخل السيد عطري وأراحني بعد نطقه بهذه الكلمات: "أنا عطري يوجَل معلم دروس الموسيقى، أتيت من إسطنبول. درست في المعهد الحكومي الموسيقي بجامعة المعمار سنان. وهذه ثالث سنة لي في مجال التعليم. الآن لنتعرف إليكم." بعدها ذكر كل منا اسمه ومهنة أبيه. لماذا كانت كل إجاباتنا بشأن عمل آبائنا هي العمل الحر؟ لماذا لم نكن نستطيع ذكر مهن آبائنا؟ لم نستطع أن نقول: "والدنا يزاول عملاً لا يكفي قوتنا." لماذا لم نستطع أن نقول: "شعر أبي أبيضّ في سنة حتى يستطيع أن يعيلنا." أكنا نخجل من قول ذلك؟ أتعرف، طفولتي تؤثر فيّ كثيراً. الانتظار أمام مديرية الضمان الاجتماعي، والأحذية المنسوجة... أتذكر تلك الأحذية

لفعلت. كنت أجيء إلى المدرسة بلا كتاب... تعرف، في المتوسطة لم يكن لدي كتاب مادة اللغة التركية حتى... تتذكر، كنت أتابع من كتابك أثناء قراءة النصوص، و أنسخ الواجبات في المدرسة من دفترك إلى دفتري في خمس دقائق... كان لدي دفتران روسيان، أحدهما أسود والآخر بُنّي، كم كانت الكتابة عليهما صعبة. كان ما أكتبه عليهما يمحى ويختفي بعد أيام. مازلت ألوم الدفاتر والواجبات التي كنت أكتبها على عجل على عدم حُسن خطي.

هكذا أضحت جانصو جسراً يمتد من سنوات تدريسي إلى سنوات طفولتي الصعبة. لم تكن تشبه التلاميذ الآخرين، فأنا لم أر في حياتي كمعلمٍ طفلاً ينعكس عليه ما يدور بداخله قدرها. فهي تعرف كيف تبكي كما تعرف كيف تضحك؛ وسرعان ما تنعكس أصغر حركة داخلها على وجهها. الفراق يهز أطفالنا عميقاً، وكم هو مؤسف أن الطلاق في زماننا أصبح شائعاً ومؤلماً! فكر في ذلك، ثمة الكثير من الأطفال ذوي العوائل المحطمة... جانصو كانت إحداهم، تحب أباها بقدر حبها لأمها؛ لذلك كانت نفسها متذبذبة بين الاثنين... وكان هذا الصراع النفسي يجرحها أكثر. فهي عندما تأتي بعد رؤيتها لأمها تستحيل شخصاً آخر، عندها لو ترى نظراتها ياصديقي، لامعةً مشرقة... عندها لا يُحرم الصف من ابتساماتها و ضحكها. لكنها في هذه الأيام لا تستطيع رؤية أمها، لذلك انعكس ذلك على حالها وتصرفاتها. إلى درجة أن جسمها يبدو وكأنه تقلص عما كان عليه في السنة الفائتة. ولم يبق فيها أي أمارةٍ للثقة بالنفس... قبل سنة كانت تمثل على المسرح. كانت تتمتع بموهبة التمثيل وحققت فيها نجاحاً جيداً. لكن مستواها الدراسي كان سيئاً. في اللغة التركية بالذات. فهي تعاني من صعوبات في تنسيق الجمل. ذلك بسبب أن والدها ووالدتها من أصل ألماني. كما أن والدها المشغول طوال اليوم في عمله، حتى لو حاول أن يعيرها اهتمامه فإنه وحده لا يمكنه أن يوفّي. في نصوص التعبير أيضاً كان لديها تعثر. في قناعتي أن أهمية ذلك هو من الدرجة الثانية. فالمهم هو الاستعداد لمواجهة الحياة. ألا توافقني؟ نحن نعمل على إغراق الطلبة بالمعلومات. لكن كم يكون جميلاً لو علمناهم السباحة فيها. إنه لمؤسف أن مناهجنا فيها بعض العيوب، نخسر الأطفال بالجملة عندما نحاول إضفاء بعض الرسمية ... فكر فيها، ننظر إلى الأطفال

الذي قرر أن يصبح طياراً بعد أن قرأ "الأمير الصغير" لإكزوبيري. (أعجب أشد الإعجاب بالكتاب، حتى إنه قال لي: "معلمي، هذا أول كتابٍ أستطيع قراءته حتى النهاية.") في لحظة وقع نظري على جانصو. كانت عابسةً تنظر نحو السبورة. أكان ذلك مجرد تحديق؟ لا أدري، كانت نظرات عميقة كأنها تخرق الجدار وتحاول الإمساك بشيء هارب بعيداً. عند نهاية الدرس كان سرحانها قد تبدد. استدعيتها في الفسحة إلى جانبي وسألتها :"ما بك يا ابنتي شاردة؟" في البداية قالت: "لا شيء معلمي". خمنت أن شعورها بالحرج ناجم عن وجود زملائها في الصف فأخذتها معي إلى غرفة الإرشاد. قلت :"هيا أخبريني، قد لا أستطيع فعل شيء، ولكنني أجيد الإنصات." صمتت بدايةً، ثم تبدت دمعتان في عينيها... آه ياصديقي العزيز، كان عليك أن ترى دمعاتها حقاً؛ متجاوزة لكل ما تقوله، تنحدر ببراءة جعلتني أدرك وقتها أن تحمل رؤية دموعها تنهمر ليس بالأمر اليسير أبداً. شعرت بأشياء بداخلي تتمزق وتذرى نحو الفراغ. رغم ذلك طلبت منها مجدداً أن تخبرني. عندها زفرت زفرة عميقة وقالت: "ليس بالسهل يا معلمي". "ماهو يا ابنتي؟". "حياتي مشوشة، لا أستطيع الاحتمال، لماذا كل شيء يقع عليّ أنا؟" قلت وأنا أعرف أن ذلك لن يواسيها: "كل منّا لديه آلامه المختلفة يا ابنتي. أتظنين أن الحياة دائماً جميلة وسهلة؟ لا يوجد شيء من هذا القبيل! ولو كانت كذلك فما المعنى من حياتنا؟ هناك صعوبات ولكن المهم هو أن نصبر ونقاومها. قالت: "ولكن يا معلمي أنا أعاني منذ كنت صغيرة، ومازلت أعاني، لم أعد أريد المعاناة أكثر." عند سؤالي لها: "ما الذي تعانين منه؟" حدثتني عن صعوباتها المادية. أدركت أنها بالغت في وصف مشكلتها لأن متوسط الوضع المادي للصف جيد. كانت تعاني من مشكلة عدم القدرة على حل الواجبات قبل المجيء إلى المدرسة، والعجز عن المساهمة في المبالغ التي تُجمع في الصف. نحن الكبار نرى ذلك وضعاً طبيعياً؛ لكن لكون طريقة تأثر الأطفال مختلفة فإنهم يحسون بالوجع في أعماقهم. عادت إليّ سنوات طفولتي أمام عيني. لم أظهر ذلك لا لك ولا لغيرك، لكني أنا أيضاً عانيت من نفس الذل والبؤس. عانيت منه حتى النخاع. أتذكر عندما كانت السيدة مزيّن تطلب الرسوم الدورية... وصراخها المزعج كالطنين. لو كنت أجد وقتها ثقباً أختبئ فيه

الجائزة الشرفية 2005 / إسطنبول - 3

اللقالق تمضي نحو الجنوب

محمد شاه أرينجيك*

لقد خطرتَ ببالي أثناء تفكيري فيمن أوجّه له هذه الرسالة ، لأنك وحدك من يستطيع فهم مشاعري بأفضل شكل، لذلك أوجه رسالتي هذه إليك... أنت تعرف أني قد بدأت أعمل كمعلمٍ في حي أوسكودار. إنه لعملٌ منهك حقاً، فالانشغال المستمر مع الأطفال ينعكس سلباً على حنجرتي وصحتي. أتذكر في مدرستنا المتوسطة عندما كان المعلمون يستاؤون من ضجتنا كانوا يدعون علينا: عسى أن تصبحوا معلمين يوماً وتعرفوا قدر معاناتنا! حدث ما كانوا يتمنونه على ما أعتقد... فأنا الآن، وفي الأيام التي أدرّس فيها لثمان ساعات بالكاد أستطيع العودة للمنزل من الإرهاق. فالتعليم يحتاج إلى نشاط وحيوية خارقة حقاً. الأطفال في غاية النشاط، ولا يبدو أن مجاراتهم في ذلك ممكنة. في الحقيقة أنا لا أكتب هذه الرسالة حتى أتحدث عن ذلك، لكنه خطر لي فذكرته.

اليوم عشت حدثاً أعادني إلى سنوات دراستي المتوسطة. قد يبدو حدثاً اعتيادياً في الحقيقة ولكنه هزني من الأعماق. صديقي العزيز؛ لدي طالبة هي جميلة الجميلات لو تراها. تحظى بابتسامةٍ تمنح المرء راحة وطمأنينة، من الممكن القول أنها تبتسم دائماً. كأن حماستي للتعليم تلتهب كل مرة تعلو ابتسامتها وجهها... اليوم كنا في الدرس كالعادة والجميع كان يضحك بسبب الدعابات والفكاهات المتولدة من جو الصف المعتاد. فلدينا الطيار أوزكور

*ولد عام 1980 في مدينة باطمان. بعد إكمال تعليمه العام بها درس تعليم اللغة التركية في جامعة مرمرة. نشرت كتاباته وأشعاره في مجلات مثل "دوش بارانتزي" و"دركنار" و"أوقونتو" و"قيرقلار" و"يدي إقليم" و"E". لا يزال يزاول مهنته كمعلم في إسطنبول.

اللقالق تمضي نحو الجنوب

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

كنت وأنا أحتسي الشاي الذي حضرته هي أفكر. لماذا كانت تعبس عند رؤية الأطفال حال دخولهم المدرسة بعد رنين الجرس في أيام الإثنين؟ أليست أمّ المدرسة، أليس من المفترض أن تسعد لرؤية أطفالها؟ ثم ضحكت بيني وبين نفسي، ألا تلقي الأم بـ (شبشب) على الطفل الذي يوسخ البيت الذي نظفته؟ كان غضبها نوعاً من غضب الأمّ ذاك.

أثناء الدرس رأيتها عبر باب الصف المفتوح تمر بهدوء. بقيت أتتبعها بنظري بصمت. كانت تنظر إلى الصفوف عبر النوافذ، ارتاحت تعابير وجهها التي كانت مشدودة في الصباح. كانت تعيش حبها للطلبة دون إفصاح. وكان قلبها كبيراً بما يكفي لإخفاء حبها.

أتدرون أنها أحياناً كانت تقفل دورات مياه الطلبة؟ وأنا كنت سعيدة لذلك. لماذا؟ لأن المعلمين لم يكونوا يقفلون دورات مياههم!.. كانت دورات المياه لاتكاد تصمد لفسحتين على الأكثر. بعد فسحتين كانت دورات المياه التي تنظفها بنفسها نهايات الأسبوع تتحول إلى كارثة!.. رأيتها يوماً توزع الشوكولاتا على عدد من الطلبة. كما لم تكن تقيم امتحانات، مامعنى ذلك؟ عرفت مؤخراً أنها كانت تكافئ الذين جعلتهم يجمعون قشور بذور عباد الشمس من الفناء. نعم، كانت المدرسة شغفها. كيف لها أن تذهب وتتركها بعد سنوات من العشق!

كم من معلمين وطلابٍ مروا من طريقها، بيتها وحياتها!.. أنا كنت أحدهم. عرفتها وعاصرت إدارتها!.. أعجبت بشغفها بالمدرسة دون أن تديرني، غضبت لإهمالها حياتها دون أن تديرني، واحترمت خيارها دون أن تديرني!..

الآن أفكر، ليته كان من نصيبي ملعقةٌ يوم رأيت العاشورية التي بدت لي سوداء وهي في الأصل غاية في البياض.

من الصوت الذي تسمعه عندما تمشي وسطه ولكن لاتخاف من عقاربه وثعابينه شعرت فقط بكونها موجودةً من أجل المدرسة فقط ولم تكترث لتهميش القرويين لها ومحاولات استغلالهم. تلقت رسائل تهديدٍ فبكت خوفاً من أن يصيب المدرسة ضرر وليس نفسها. معطفها اهترأ، لم تشتر غيره قبل أن تركب قضباناً حديدية على النوافذ. يوم السبت خرجت من بيتها إلى المدرسة وتناولت إفطارها هناك. باختصار، كانت قد وجدت دفء المأوى فيها. حظها العاثر جعلها تعمل في هذه القرية التي لا تولي أي أهمية للتعليم ولاتدعم المدرسة بأي شكل. وبينما من المفترض أن تتلقى الاحترام والتقدير إلا أنها أصبحت هنا شخصاً غير محترمٍ ولامرغوبٍ فيه. القرويون الذين لطالما نظروا إلى المدرسة كمكانٍ يتلقون فيه المساعدات صعّبوا عليها حياتها فوق ماهي عليه.

سابقاً كنت عندما أنظر إليها أشك بوجود قلبٍ لديها. أفي قلبها أحدٌ، أتحمل مشاعر فيه؟ لا أعرف عن قلبها ولكن في عقلها شيءٌ واحد ألا وهو المدرسة!.. تعلقت بالمدرسة كما تتعلق أمّ بطفلتها أو أبٌ بابنه البطل. كانت يداها السوداوان لاتعجز عن تحمل أي عبء مقابل حماية مدرستها.

كانت المدرسة أمّها. عند شعورها بالضيق تضع رأسها على مكتبها. كانت المدرسة أباها، كلما أصابها غمّ فتحت بابها. كانت المدرسة طفلها، تكاد تفقد عقلها وهي تفكر باحتمال تعرّضه لضرر. لماذا كل هذا الحب؟ كانت وظيفتها وبيتها الذي لم تستطع أن تراه. كانت المدرسة بالنسبة لها بيتاً. لم يكن إحساسي مخطئاً عند دخولي لأول مرة.

كان الخطأ الوحيد هو أنها ليست سيدة المنزل. فمراتٍ تكون صاحبته ومراتٍ تكون خادمته أو حتى بستانيته!..لكنها لم تكن سيدته. مديرته، هكذا كان يراها الجميع من الخارج. حتى أنا رأيتها كذلك من الخارج عندما دخلت، لكن ماذا عن الداخل؟.. لم تكن الإدارة وإلقاء الأوامر والتسلط عملها. عملها كان الحماية والتنظيف والمحبة والإصلاح. لماذا كل هذا الحب والشغف والعشق؟ أتتطلب الإدارة والقيادة ذلك؟ لو كان مديروا المدارس مثلها هل ستكون هنالك حاجة لقدوم المفتشين؟ وهبت قلبها وعقلها لهذه المدرسة. وهل يمكن تفتيش مشاعرها هذه؟

ولكن ليس لي ملعقة. أكنت أرغب بواحدة أصلاً؟ لا لا أريد. أأعود أدراجي وأذهب، لا عليّ ألا أفعل. لم أستطع أن أقاوم فضولي:

- يداك.

- ماذا بها.

لم أصدق ماسمعته، كانت هي من تشعل المدافئ. بينما كنت مشدوهةً وحانقة كانت هي هادئةً ورزينة. كنت قد أقنعت نفسي بألّا أتوتر أمام المدير الذي سيقابلني حال دخولي من الباب. فقد كنت أتوّقع رجلاً مستصحاً ذا شوارب ونظراتٍ عصبية وبزة رسمية وأحذية لامعة.

نعم، هذه مدرسة قروية. لم تكن لدي آمالٌ كبيرة عند مجيئي إلى هنا. فكرت في شكل المدرسة فقط ولكني لم أفكّر كثيراً في مديرها. عندما أقول مدير لاتحضر في ذاكرتي الكثير من الوجوه. وكأن المديرين كانوا دائماً نفسهم. ينقسمون إلى قسمين؛ الناجحين والفاشلين. لم أعرف بوجود قسم للمضحّين أيضاً. نعم هذه مدرسة. عند النظر بدقة لاحظت وجود دفتر المناوبة بجانب طبق العاشورية. لم تتم ماكانت تكتبه فيه عن الوثائق الجديدة. سيدة المنزل!.. لا بل مديرة المدرسة!.. قبل قدومي كانت هنا تتناول العاشورية وتسجل في الدفتر، وعند قدومي كانت قد ذهبت إلى غرفتها. نعم، لها غرفة فيها حاسوب ومكتب ودولاب وكرسيّان. نادراً ماكنت أراها على مقعد المدير، فلم تكن من مهووسي المناصب. كنت أظن أن المقعد ليس مهماً بالنسبة لها لكني سأعرف كوني مخطئةً لاحقاً.

كانت مديرة!.. كسبت الإدارة معناها لديها من جديد لكنكم لاتعرفون ذلك. لايمكنكم معرفة ذلك دون رؤيتها تنظف دورات المياه وتمسح ردهات المدرسة بنفسها وتحضر البيض بالخضار للمعلمين في أول فسحة. حتى أنا لم أعرف عند أول دخولي من الباب وخجلت من أفكاري حينها لاحقاً.

كانت أول مديرة أتعرّف إليها، لكني لم أر مثلها لافي الأفلام ولا في المذكرات المحكية. كانت معلمةً عاشقة لمدرستها!.. في الحقيقة كانت قد عُيّنت مديرة في أول سنة تبدأ فيها العمل وقبل أن تتذوق متعة التعليم. وهي حوّلته من مجرد وظيفة إلى مفهوم للحياة. أثناء معيشتها في بيتها الذي تخاف

الجائزة الشرفية 2007/ غازي عنتاب

عاشورية سوداء

قدرية أنلار*

كان على المائدة سبع ملاعق وطبق عاشورية واحد، كان لونها أسود قاتماً. أهكذا تكون العاشورية؟ كأنما كانت رائحة المكان وملابس الأطفال غير النظيفة غيرت لونها. كل مكانٍ كان نظيفاً لكن الرائحة لا تقول ذلك. ماشأن العاشورية في هذه المدرسة؟ وفي غرفة المعلمين وفوق المكتب؟ كأنها ليست مدرسة بل منزل. بحثت عيني عن أصحابه الذين يعيشون فيه، وقبل أن أعتقد بأنه منزل مهجور ظهر شخص عند الباب. لابد أنها عاملة نظافة المنزل، لا، يداها مسودة، لابد أنها عاملة في غرفة التدفئة؛ لكن لايمكن أن يكون المنزل بلا امرأة. وقبل أن أقرر بشأن عملها قالت: "أنا مديرة لمدرسة، أهلا بكم!" لابد أنها سيدة المنزل. لو فكرت ليس لسنة بل لمئة سنة لما حزرت أنها مديرة المدرسة.

مدرسة كبيرة جداً تُركت لسيدة نحيلة سمراء ضعيفة. تبدو بدورها قد انسحقت من الحِمل على ظهرها ولكنها مازالت تقف بشموخ. تساءلت بمثالية من بدأت العمل للتو، كيف لهذا أن يحدث. أليس لدينا مسؤولون ومفتشون ومديرون أكفاء؟ أتستطيع هذه المرأة تحمل كل هذه المسؤولية؟ لقد نست نفسها وفقدت أنوثتها!.. حل مكان ذهولي حنق، الملاعق!.. ركزت نظري على الملاعق؛ سبع ملاعق. قالت "لدينا ستة معلمين" أنا السابعة

*ولدت عام 1980 في قضاء أراغلي بمحافظة قونيا. أتمت تعليمها الابتدائي في مدرسة سومروالمتوسط في متوسطة الجمهورية والثانوية في ثانوية 19مايو النموذجية بمرسين. درست تعليم الرياضيات في جامعة 9 أيلول. والآن تعمل كمعلمة في ابتدائية غازي أردم أوغلو في عنتاب. متزوجة وأم لطفل.

عاشورية سوداء

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

تسمح لأحد أن يلمسها، تجيب كل سؤالٍ بإيماءاتٍ من رأسها، ولكني كنت طالبة مثابرة ونظيفة كما علمتني، أتصرّف باحترام وأؤدي واجباتي. أصبح لي حزامٌ أيضاً ولكني لم أرتده قط. اضطرت أمي إلى أن تثبت زيي بمشبك كبير كل يوم. لم يكن غيري يحاول الطيران قبل خروجه من الشرنقة. بينما كان زملائي قد تركوا ذلك للزمن. ينتظرون الوقت الذي تقوى فيه أجنحتهم على حملهم. أما أنا، الفراشة التي لم تكتمل، فقد كنت أحلم بالطيران وبأن أصبح شرنقةً مثلها. وهي ستكون النسيم الذي يحملني، كنت مؤمنةً بذلك.

في العام 2015

في شهر أكتوبر. كان صباح يوم أحدٍ بارد وغزير المطر مجدداً. بعد عدة أيام سيكون مر على اليوم الذي تحولت فيه الشرنقة إلى بذرة 16 عاماً بالتمام. ستتفتح أزهار جميلة في التربة التي هي فيها مجدداً. وأنا، الفراشة التي لم تكتمل، سوف أتخرج هذه السنة وأصبح شرنقةً لفراشةٍ أخرى. سأصنع أجنحةً لفراشاتٍ جديدة وأكون لها نسيماً.

لن تكون قادرة هي على أن تهمس ذكريات سنواتها كمعلمة لأحد، وأن تحكي عن القلوب التي لمستها. لن يستطيع أحدٌ آخر أن يحكي عنها غيري. أما أنا فسأحكي عنها وأجعل ذكراها حية. سأحكي عن ماجعلتنا نعيشه في زمنٍ قصير، عن لمساتها الحنونة لقلوبنا... سأخبر الجميع كيف عندما يذكر اسمها في قريتنا يقال "لم تأت معلمةٌ مثلها."، وكم كانت تستحق هذه الكلمة. كما أهديها ما أكتبه الآن.

إلى ذكرى أول معلمة لي، إلى نسمة هوائي، عائشة ألقان...

الملونة، وأجنحتنا المزينة اللامعة، والملاعق الخشبية في أيدينا والتي سنصدر بها صوت خفق الأجنحة... كل شيءٍ كان جاهزاً، ننتظر شرنقتنا فقط. لكنها لم تأت يومها. ولم تأت بعدها أبداً. قيل لنا شيءٌ واحدٌ فقط:

"لن يتم تأدية العرض."

كيف لقلب طفلٍ أن يفهم الموت؟ كان الموت وقتها عبارة عن مرادف لكلمتي "لن يؤدى العرض" في عقولنا التي دأبت تلك الإنسانة الجميلة على تنميتها.

غداً 29 أكتوبر، ونحن كنا سنصبح فراشات. لكن شرنقتنا تركتنا قبل أن نصبح كذلك. توقعت منا أن نتحدى الرياح والسماء قبل أن تكتمل أجنحتنا. أما هي فقد ذهبت لتكون زهرة توضع في التراب متحدية الأرض. ذهبت لتزيّن التراب مع الورود بدل أن تكمل أجنحتنا وتصبح نسيماً لها.

لم يكن هناك إنسان ولا رياحٌ مثلها يجعلنا نعيش تلك الأيام من جديد ويجعل أمطار شهر أيلول تنهمر في أعيننا بعد مرور كل هذا الوقت.

وضعت يدي على حقيبة ظهري وقلت وعيني دامعة "أريد نَفْسَ هذا." مررت يدي على نقشات الحزام التي طرزتها بنفسها مرة أخرى. لابد من حزامٍ أزرق لزيي المدرسي الأزرق ولكن من يصنع لي مثله؟ وحتى لو فعل أحدهم، هل ستكون يداه مثل يديها؟ أثناء خياطته له هل سينظر بتركيزٍ كما فعلت عيناها، ولو ابتسم أثناء ذلك، هل ستشبه ابتسامته ابتسامتها؟

بدأت أدرس في الصف الأول. كان أبي قد علّمني كل شيء من قبل. بالنسبة لبعض جوانبي التي لم تكتمل كانت معلوماتي بالنسبة لذلك الصف كافية مما يجعلهم يقبلونني على الفور. كان أول ما بحثت عنه عند دخولي إلى الصف هو طاولتها. بعدها بحثت عن سجاداتنا وزاوية ألعابنا وجواربها الملونة وتمسيدات الرأس التي استحالت إلى ما يشبه الطقوس اليومية وأشياء أخرى. لكن لم يكن أي منها موجوداً. كنت في عالمٍ آخر، وفي الأيام الأخرى كنت بدل أن أختلس النظر إلى السبورة بعينين خائفتين أطرق ناظرة إلى الأرض بتعابير وجه يوشك على البكاء. لا أتذكر وجه معلمتي أبداً. أشعر وكأني سأخون الشرنقة التي احتضنتني إن نظرت إلى وجهها. وإن تكلمت فسيفسد السحر بيننا وأنساها. أصبحت طالبة وجهها مطرق، لا

تكتب. وكأن أصابعها كانت توجّه الرياح. قصت القماش الذي يذكر بالأزهار بيدها التي كانت ممتلئة بالنسبة لوجهها. أمسكت يدها بيدي الصغيرة أثناء مناولتها قطعة القماش لي. عندها شعرت بأنها قد لمست حياتي. لمست أحلامي ومستقبلي. كان لها نظرة إلى عيني منعت نفسي بصعوبة من البكاء أمامها. لم يكن ذلك بسبب الحزن ولا من الخوف، لو قلت أن سواد عينيها هو السبب أكون أجحفت بحق عينيها الدافئتين. لا أفهم حتى الآن، لكنني كنت سعيدة. لم رغبت بالبكاء؟ اقتربت مني وهمست في أذني "اخبري أمك أن تجعل تنورتك مكسّرة، حسناً؟ إنها تليق بك أكثر." عندها تخيلت نفسي أميرة في فستانٍ منفوش أحمر جميل. كنت أنا سيندريلا وهي عفريتتي الطيبة. لمستني بيديها وجملت أحلامي. لم تكتف بذلك بل ساهمت في صنع زيي المدرسي. طرزت حزام زيي بيديها وألبستني إياه، من بعدها لم أستغن عن حزامي ذاك أبداً. أيمكن لمس حياة طفلة قروية بهذه الرقة والجمال؟ وهل هناك هدية أجمل من ذلك؟ لا يمكن لتصرُّف رقيق وحنون وظريف مثل هذا أن يصدر إلا عن ملاك. كنت أجد نفسي أثناء عملها على الحزام أتخيل شكله النهائي في مرات عديدة. كنت أسعى لأن أشبهها في كل شيء؛ لا أريد مشاركتها مع أحد، وأشعر بالغيرة إن كلّمها أحد غيري. أحببناها بقدر ما يستطيع قلب طفلٍ أن يحب. لكننا كنا متأكدين أنها تحبنا أكثر.

مرّ شهر. كان دخول شهر نوفمبر قاسياً هذه السنة. كنت أمشي مع أبي غارزين أقدامنا في الأوحال والحفر. أمسك بيدي جيداً، وأنا أمشي بحذر حتى لا تتسخ أطراف تنورتي بالوحل في هذه المنطقة التي أعلن فيها الوحل الحرب بل وانتصر. في أول لعبة نلعبها في المدرسة لففنا أنفسنا بخيوط، فنحن عبارة عن يرقات، وهذه الخيوط ستجعل منا فراشاتٍ كالتي تبشّرنا بالربيع وتذكّرنا بجمال الألوان ، وسنرفرف بأجنحتنا نحو المستقبل. كنا مؤمنين بذلك.

كيف ليرقة لفّتها شرنقة بعناية واحتضنتها، شرنقة بإمكانها بلمستها أن تغير العالم، كيف لها ألا تصبح فراشة وتخرج لتغيّر العالم..

كان يوم 28 أكتوبر. كنا ننتظر بحماس قدوم شرنقتنا من أجل أداء بروفة العرض الذي سيؤدونه في المدرسة. كل منا سيصبح فراشة، بثيابنا الحريرية

مكانه في اللحظات التي انتشرت فيها روائح السيميت والمعجنات في الأرجاء، واندمجت فيها أصوات العصافير تدريجياً بأصوات البشر وساهمت أصوات فتح الدكاكين في اللحن المتكون. وراح يمشي في اتجاه الدكان الذي كان بادياً من خطواته وثباتها أنه كان قد قرر الذهاب إليه من قبل. الهواء الحار الذي ضرب وجهي أول دخولنا إلى الدكان دوخني وجعل جميع الدم في جسدي يهجم على وجهي. أصبح وجهي محمّراً بقدر أخف الأشياء وأكبرها قدراً في حقيبتي، أول حزامٍ لأول زي مدرسي لي. وضعت يدي على حقيبة ظهري وبردت جميع الذكريات المتعلقة به من جديد. ذكريات جميلة، موجعة، حزينة...

كان هذا قبل الحدث بشهر ونصف.

استؤنفت الدراسة. كانت معلمتنا ماتزال في شبابها. لا أذكر عمرها لكنها لم تتخط الخامسة والعشرين بالتأكيد. أما أنا فقد كنت في الخامسة، لكني أتذكر بعض الأشياء بدقة ووضوح. يستحيل لي أن أنسى ابتسامتها التي تبذر بذور السلام في داخل المرء، ومسحها بيدها على شعرها الأسود القصير. كان اسمها عائشة. كان اسم عائشة بالنسبة لي كمشاهدة انسكاب الحليب في كأسٍ آخر، كالطمأنينة في اللحظة الفاصلة بين اليقظة والنوم، كانت بمثابة كل مايذكر بالبراءة والطيبة لي. عندما يذكر اسمها في البيت كنت أعير كل انتباهي للمتكلم فجأة، وفي الصف كنت كأنما أريد أن ألتقط الكلمات التي تخرج منها في الهواء قبل الجميع. هي بدورها وبقلبها الطيب الدافئ شعرت بي وحببتني لها. كانت تقول لي "درة مدرستي" لكن الحقيقة أنها كانت هي درة مدرستنا.

في مدرسة قريتنا لم يكن يُفتح صف لطلبة الحضانة في كل سنة. والذين يصادف أن يفتح لهم صف حضانة يعتبرون أنفسهم محظوظين. في تلك السنة ولحظِّنا تم تعيين معلمة جديدة وفتح صف حضانة لنا. بالنسبة لها كان أول مكان تعمل فيه، وأول فرحة لها هي صفنا. اشترت أقمشة أزيائنا الحمراء بنفسها. سجلت في دفتر عليه صورة شجرة بشكل مفصل أي نوع يليق بأي منا وكم من القماش يحتاج كل واحد ومن تستطيع أمه أن تخيط ومن لا تستطيع. كأن أوراق الشجرة كانت تهتز مع كل حركة ليدها وهي

الجائزة الشرفية 2015 / أماسيا

أنا الفراشة التي تركتها شرنقتها قبل أن تكتمل

جنة قوزوجو*

كان البرد يفرض نفسه رويداً رويداً. احتلت المظلات بألوانها المختلفة أماكنها على واجهات المحالّ كزينة لا يمكن التخلي عنها. كان الذهاب إلى العمل في كل صباحٍ مشياً على الوحل شيئاً لا يمكن تفاديه. والوقت المقضي في مشاهدة أكثر موسم يذكر المرء بالقهوة والكتب، الخريف، وهو ينتهي لهو وقتٌ ليس ضائعاً أبداً. أبي أيضاً كان مقتنعاً بذلك. حيث أنه ودونما اكتراث بالبرد، أجلس الرياح بجانبه وألقى نظرة مغرورة نحو السحب. أسند ظهره على جذع شجرة حزينة أسقطت أوراقها أكثر مما فعلت أشجار المسجد الأخرى؛ كأنه يسعى إلى تخفيف آلامه وآلامي ومواساة الشجرة.

العام 1999، في أول يوم أحدٍ لشهر نوفمبر والذي اشتهر بشدة برده. بقي القليل على عيد ميلادي ولكن لم يكن هذا سبب مجيئنا إلى مركز المدينة. كنت في ذلك الصباح قد وضعت سبب مجيئنا في حقيبة ظهري بعناية. كنت أنانية بعض الشيء كأي طفل آخر، والشيء الذي كنت أحمله في حقيبتي كان أكبر أنانية لي. رغم اعتراض والدي إلا أني أحضرته معي واضطررت لحمله طوال اليوم، لكني لم أره حملاً ثقيلاً ولا تذمرت بكلمة واحدة بأني متعبة. كنت أنظر إلى كل شخصٍ تقع عيناه على حقيبتي بفخر فأشعر بثقة تنعكس على مشيتي وأنا أفكر بأنهم يرون ما بها. أما الابتسامة على وجه أبي والتي لم أكن أفهم سببها حينها أصبحت أفهمه الآن جيداً. نهض أبي من

أنا الفراشة التي تركتها شرنقتها قبل أن تكتمل

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

فكرت في دمعات سلمى التي ذرفتها لأن معلمتها نزعت حجابها، وبكت.

/.../

وسقطت قطرة حليب على الأرض...

لم يكن المكان المفترض أن ينتهي بها المطاف إلى الأرض...

قطرة بيضاء بقدر بياض سن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي سقط يوم معركة أحد

بقدر طهارته،

وبنفاسة حبة اللؤلؤ تلك...

التقط جبريل السن الشريف قبل أن يقع على الأرض.

أما قطرة نور الرضيعة خديجة، فلا يُعرف إن كان التقطها أم لا...

إليها. اختلطت دموع خديجة وأمها ببعضها بعضاً.

- ربي! إني أترك حق كل قطرة حليبٍ أسكبها لك. أترك لك شهقات ابنتي الجائعة!

/.../

لم تستطع أن تتحمل أكثر. قبل أن تكمل طفلتها عامها الأول قدمت طلب استقالتها إلى المدرسة....

كانت تظن أنها لن تحتمل، لكنها ودون أن ترتعد يدها أو تذرف عينها دمعةً واحدة طلبت من مديرها وزملائها وزميلاتها وتلامذتها أن يسامحوها إن كان بدر منها شيءٌ يضايقهم. كل ما في الأمر أنها فوجئت لحزن المدير لاستقالتها. ودعها تلامذتها وعدّة من زملائها عند الباب...

كان طلَبتها يأتون لزيارتها بين حينٍ وآخر. واللواتي غضبن منها لنزع حجابها ندمن وجئن لرؤيتها. كانت تصلها أخبار من المدرسة دائماً.

أما أكثر ما أحزنها فقد كان ترك سلمى للمدرسة في الصف الثاني ثانوي (بعد استقالة معلمتها بسنة)، التي كانت ستدرس الطب بعد الثانوية...

بكت لأيامٍ من أجل سلمى، اليتيمة المسكينة. بكت وبكت وبكت...

لم يسبق لها أن سكبت هذا القدر من الدموع من قبل.

لكنها فكرت في سلمى.

بكت كلية طبها.

فكرت وبكت.

في أمها الأرملة، فكرت وبكت.

فكرت في إخوتها الأيتام.

بكت.

- خذي مضخة حليب من الصيدلية واشفطي حليبك به لهذه الليلة وألقي به في القمامة، فهو مضر للرضيعة.

هذا ماقاله لها الطبيب. كانت نتائج الأشعة عادية. زوجها كان منهاراً. المسكين لم يعرف ما يمكن أن يفعل. مروا بالصيدلية. واشتروا الجهاز. استمع زوجها لتعليمات الاستخدام من الصيدلي. لأن المعلمة زليخا لم تكن قادرة على الإنصات.

عند وصولهم إلى البيت أخبرتهم جليسة الأطفال بأن محمداً منذ الصباح وهو يردد بأن أمه في المستشفى. وعندما علمت أن هذه هي الحقيقة ذهلت. أما محمد فقد أدرك أن الأمور قد اتخذت منحى سيئاً من جديد. نظر إلى أمه بنظراتٍ فاحصة وخائفة.

- أنا بخير ياعزيزي. لكني أحتاج إلى النوم. العب أنت وأختك مع خديجة. سأنام أنا قليلاً. قالتها ورمت نفسها على السرير. لم تكن المعلمة زليخا تذكر كم ساعةً نامت. لم تستيقظ إلا على إيقاظ الجليسة لها بهدوء.

- إنه وقت ذهابي إلى بيتي يا أختي. لقد أطعمت الأطفال. لكن خديجة تريد أن ترضع. هل بإمكاني أن أذهب الآن؟

نظرت المعلمة زليخا إلى الجليسة لمدة حتى تستوعب الوقت ثم نهضت جالسة بصعوبة.

- أوه! بالطبع، اعذريني لقد أخرتك اليوم أيضاً.

بجهد جهيد ودّعت الجليسة. كان محمد يشاهد التلفاز. أما خديجة فلم تعد تتحمل. ألقت بنفسها على حضن أمها كطفل لم يرضع يوماً كاملاً. اتخذت المعلمة زليخا وضعية الإرضاع في شرود، لكنها فجأة تذكرت الإبرة المهدئة. لا تستطيع إرضاع خديجة. أحضرت الجهاز الذي أخذته من الصيدلية. لم يكن زوجها قد عاد بعد. وهي لا تعرف كيف تستخدمه. أخرجت ورقة التعليمات وراحت تحاول أن تقرأها. عندها كانت خديجة قد زاد بكاؤها. أخذت تهدهدها على ساقيها. في نفس الوقت تحاول استخدام الجهاز لإخراج حليبها. بعد عدة محاولاتٍ فاشلة بدأت أول قطرات الحليب في الخروج. مع امتلاء الزجاجة كان بكاء خديجة يزداد، تحاول الوصول

لم تعد المعلمة زليخا تتحمل إزعاج الأطفال في البيت. أصبحت توبخهم باستمرار.

لكن خديجة كانت ماتزال صغيرةً، لم تتجاوز الستة أشهر. كانت تصرخ عليها إذا لم تنم وتخيفها. أما محمد فقد انطوى على نفسه بسبب توبيخ أمه المستمر.

قبل عدة أيام ولإدخاله يده في ماء التنظيف صرخت عليه أمه فتجمد مكانه. منذ ذلك اليوم وهو يتأتئ عندما يتكلم.

/.../

أضحت المعلمة زليخا كأنها جثة تمشي. تتشاجر مع زوجها على أتفه الأسباب وتثير المشاكل من لا شيء. بمجرد سماع أصوات شجارهم كان محمد يذهب إلى غرفته ويرقد على بطنه في سريره، ويتعرق جسده بشكلٍ مفرط. في مراتٍ كثيرة كانت المعلمة زليخا تجده نائماً على هذه الوضعية.

كانت المعلمة زليخا تزداد خشونة وقسوة بسبب تأنيب الضمير. لم تعد تدعو طويلاً بعد الصلوات كما كانت تفعل. كان سؤال "هل يستجيب الله دعاء من لا تطيع أوامره؟" يشعرها بالذنب وينخرها من الداخل. بعد الانتهاء من الصلوات كانت تترك السجادة مطرقةً وجسمها مبتل بالعرق. تعتقد أن الله غاضب عليها ولا تدري ماذا عليها أن تفعل.

- ألو، السيد علي، أنا أحمد من مطعم بيتزا مارغاريتا. أتذكرتني؟ لا أريد أن أخيفك ولكن السيدة المعلمة جاءت مع صديقاتها إلى المطعم، أعتقد أنها ليست على مايرام. أتستطيع المجيء؟

كان المطعم الذي كنّ فيه لأحد أصدقاء زوجها. خرجت إليه مع شريكاتها الثلاث في القدر لبعض التغيير. وأثناء تناولهن للطعام ساءت حالة المعلمة زليخا. بعد مدةٍ قصيرة جاء زوجها وذهب بها إلى المستشفى، من جديد.

- كأنما حدث انفجار عند أذني، شعرت كأني أهوي من مكانٍ مرتفع.

هذا ما كانت تقوله وهي مغمضةٌ عينيها بإحكام. كانت تقول إنها تشعر بدوار مستمر. تم تصوير أشعة للدماغ. أعطوها مسكناً، وإبرةً في الوريد.

-لكن لدي رضيعة، أنا أرضعها.

- أشكركن أيتها المعلمات. لقد خلصتموني من موقف صعبٍ حقاً. سوف نمنحكن غرفة الدروس الخاصة في الدور العلوي. اجلسن فيها. كما لستن مضطراتٍ لنزع حجابكن في فناء المدرسة، تستطيعن فعل ذلك في دورات المياه.

كم كانوا متفهمين ومراعين! غرفة عزل ودورات مياه... هذا ما رأوه لائقاً بهن. الثلاث معلمات كن في كل صباحٍ يدخلن إلى المدرسة من السلالم الخلفية ويذهبن إلى أعلى طابق، الطابق الثالث. ينزعن حجابهن في الغرفة أو في دورات المياه. وبعد أن يدخل الجميع إلى صفوفهم يمشين جنباً إلى جنب في الممرات إلى الصفوف. وعندما يرن جرس الفسحة وتكتظ الممرات يمشين على عجل إلى الغرفة العلوية.

كانت لديها طالبة يتيمة تحبها. وكانت تبادلها نفس الحب. كانت الطفلة هذه والتي لم يكن وضعها المادي جيداً الأولى على المدرسة، تدرس بالصف الأول ثانوي. كانت المعلمة زليخة تتكلم معها دائماً. وتستعلم عن أحوال عائلتها. سلمى ترتدي حجابها كما ترتديه معلمتها زليخا تماماً. تتخذها قدوةً في كل شيء. مؤخراً اشترت معطفاً طويلاً كالذي ترتديها معلمتها تماماً، فأصبح من يراها من الخلف يخلط بينها وبين معلمتها. كانت تشارك معلمتها أحلامها وطموحاتها. وتتحدث عن رغبتها بأن تصبح الأولى حتى تدرس الطب وتؤمّن مستقبلاً أفضل لأمها وإخوتها. الوقت يمضي بسرعة كما هو معروف، فما بين غمضة وانتباهتها تنتهي الثانوية وتنتهي كلية الطب أيضاً. ستشتري لأمها التي لا تحظى بملابس جديدة أبداً ملابس جديدة وكل ما يلزم إخوتها من أغراض. ستأخذهم إلى البقالة وتشتري لهم كل ما يرغبون به. سيسكنون في حيٍ أنظف وأفضل، وسيكون لهم بيتٌ فيه مدافئ ساخنة.

عيناها البارقتان بالأمل أضحتا مطرقتين نحو الأرض. أصبحت تربط شعرها بإحكامٍ من الخلف كمعلمتها زليخا ولا تخرج من الصف أبداً. عندما تلتقي عيناها بعيني المعلمة زليخة تنتشر ابتسامة خجولة على عينيها الدامعتين، كانت عيناها دائماً رطبة. انكفأت على نفسها تماماً. لم تعد تتحدث عن أحلامها. ورغم كل محاولات المعلمة زليخا إلا أنها لم تستطع أن تعيدها إلى حالها الأول.

لا، يبدو أنها لن تفعلها. أسندت ظهرها إلى جدار الممر. يداها تنزان عرقاً. كأنها كانت في بعدٍ وجسدٍ آخر، تشاهد مايحدث من بعيد وكأنها ليست هي من تعيشه. وعيها يحضر ويختفي. تخشى من أن تفقد عقلها. قامت بآخر طاقةٍ في جسدها بحلّ مشبك حجابها. أحسّت بنفسها وكأنها عارية. تعرف أن الرجال ذوي البزات الرسمية والمدير يراقبونها من رأس الممر. فتحت باب الصف بهدوء. كان صف الصف الثالث ثانوي، كانوا مشدوهين عندما رأوها تدخل وحجابها في يدها. الطلبة الذكور شدوا قبضة أياديهم وأطرقوا برؤوسهم. أما الإناث فقد كنّ ينظرن في ذهولٍ غير عارفاتٍ بما يجب عليهن فعله. اتجهت المعلمة زليخا نحو طاولتها. دفنت رأسها بشعرها المربوط من الخلف كذيل الحصان في طاولتها وراحت تبكي وتشهق..

- أرأيتم؟ لقد حسرت المعلمة زليخا عن رأسها. هذا إن كانت هي من فعل ذلك!

- لابد أنهم أجبروها. ماذا بيد المسكينة!

- أهذا سؤال بربك؟ كان عليها أن تقاومهم.

/.../

كان ذلك غيض من فيضٍ مما سمعته المعلمة زليخا. وطلبتها المتدينات كففن عن الحديث معها، أينما رأينها يقفلن في وجهها الباب بعنف. لا يشاركن في الدروس، يضعن رؤوسهن على الطاولات ولا يرفعنها حتى نهاية الدرس. أثناء مرورها بجوارهن ينطقن بكلماتٍ مؤذية بصوتٍ عال. لم تكن تعرف المعلمة زليخا إلى أي حدٍ كانت تستطيع تحمل كل هذا. فبعدها هي وزميلاتها بدأ استدعاء الطالبات المحجبات. وتم إجبارهن على نزع حجابهن. بكاءٌ وصراخٌ يتردد في الردهات وشهقات. والمعلمات الطيبات اللواتي أردن أن يهدئن من روع البنات لم يستطعن أن يفعلن ذلك مع الجميع. أما ثلة المعلمات اللواتي أخذن يرددن في الردهات بصوتٍ عالٍ لم يكن أحد يستطع إسكاتهن وإفساد فرحتهن.

استدعى المدير الثلاث معلماتٍ من جديد.

في أواسط الحصة الثالثة كان الطالب المناوب يستدعي المعلمات مجدداً. فتحت أبواب ثلاثة صفوف وخرجت منهن ثلاث معلمات.

شاهدن عدة رجالٍ ببزاتٍ رسمية يخرجون من غرفة المدير وينظرون نحوهن بوجوهٍ عابسة وهم يمضون في مشيةٍ كلها خيلاء واستعلاء. الوضع يبدو وخيماً. وَلَجنَ إلى الغرفة بخطواتٍ مترددة وخائفة. كان المدير يبدو في غاية العصبية، ووجهه أحمر ممتقع.

- ماذا قررتن أيتها السيدات. إنني أتلقّى التوبيخ باستمرار بسببكن. لقد انتهى كل شيءٍ اعتباراً من هذه اللحظة. إما أن تخرجن من الغرفة هذه بلا حجاب، وإما سأتخذ قراراً زيادة على التحذيرات والملامات السابقة. سأكتب محضراً بحقكن وأفصلكن.

- أُسقط بأيدي المعلمات، تبادلن النظرات بذهول وعجز.

لقد أرعبهن اضطرارهن إلى اتخاذ قرارٍ بهذه السرعة.

شعرت المعلمة زليخا أن ساقيها لم تعودا تقويان على حملها. تسارعت نبضات قلبها، واشتعل وجهها كلهيب النار.

- الآن، هنا؟

هذا ما استطاعت أن تنطق به.

- نعم أيتها السيدة. الآن وهنا! فهذا يكفي! فهذه ثانوية أناضول... فيها زوجات وأطفال ضباط. هذا يعني أننا نتعامل مع الجيش أيضاً. أتعرفن أنه في كل يوم يتم رفع تقرير بشأنكن؟ كل خطوة تخطونها مراقبة. أرجوكم الآن اخرجن وأكملن دروسكن ورؤوسكن مكشوفة. وإلا...

لم يستطع أن يكمل كلامه...

خرجت الثلاث معلمات من الغرفة. لم يسبق لهن أن تكلمن فيما يجب عليهن فعله في مثل هذه الحالة. ربما خفن من فعل ذلك. تمنين للأمور أن تهدأ لا أن تتفاقم. لكن كل شيء يمضي عكس ما أردن الآن. كل ما فعلنه هو تبادل النظرات. ثم اتجهت كل واحدة إلى صفها. امتدت يدا المعلمة زليخا المرتعشة إلى مشبك حجابها.

من الغرفة وذهب. ولأنها أم مرضعة لم يصف لها دواءً. ركبت مع زوجها السيارة بنفسية شخص مذنب. رمت نفسها على المقعد الأمامي كظل. كانت تدرك أنها أحزنت زوجها أيضاً. لكن ليس بيدها منع ما يحدث. وعند عودتهما إلى البيت الذي كانا في زيارته بدأ مَن هناك بالكلام أيضاً!

- عزيزتي أنت أيضاً مثل الجميع. فكّري بأطفالك! فكّري بزوجك!

- هذا مايتطلبه النظام. اكشفي رأسك وارتاحي. والذنب سيقع عليهم هم...

- لا لا تكشفي رأسك! ارتدي باروكة!

- انظري إلى حالك! تبدين كالميتة! حتى جليسة الأطفال أكثر اعتناء بمنظرها منك!

/.../

نظرت المعلمة زليخا لمن حولها بنظرة ملؤها الشفقة. أهؤلاء هن اللواتي اتخذتهن قدوة عندما ارتدت الحجاب؟ كانت قد قررت ذلك عند ولادة محمد؟ وهؤلاء اللواتي يحاولن ثنيها عن موقفها لم يكففن عن مدحها وتشجيعها يومها. حتى إنهن نظمن ندوة قصيرة عن أهمية الحجاب. قررت المعلمة زليخا غير عارفة بما يجب عليها فعله أن تسلم نفسها لما سيحدث.

في اليوم التالي ركبت باص المدرسة محملة بما عاشته في الليلة الماضية. لم تفق من الصدمة بعد. شكّت فجأةً فيما إذا كانت قد ارتدت تنورةً طويلة أم لا. تحسست معطفها بيدها، حمدا لله، لقد ارتدته! "ماذا عن جواربي؟" انحنت تنظر إلى قدميها دون أن تلفت أنظار أحد. مررت يدها على حجابها أيضاً لا إرادياً، الحمد لله أن كل شيءٍ في مكانه.

ما الذي يجري لي. هل أصبت بالجنون؟ فكّرت بينها وبين نفسها. إنها تشعر بالضيق الشديد هذا الصباح. "لابد أنه تأثير ليلة البارحة" هكذا قالت وهي تحاول فتح جفنيها الناعسين. أخذت نفساً عميقاً ثم صعدت درجات السلالم بصعوبة. ابتسمت وحيّت من رأت من زميلاتها على مضض. كان لديها صديقتان مثلها. هن أيضاً كانتا لا تبدوان في حالة جيدة. فقد كانتا تعيشان كل يومٍ نفس التجارب السيئة. ومن يعرف ماذا تخبئ لهن الأيام القادمة؟

- هل يأتي زوجك إلى المدرسة؟ هل يصلي في مصلى المدرسة؟

- لا. فمبنى مدرستنا جديد. هو يأتي أحياناً لأخذي من المدرسة ولكنه ينتظرني في الفناء. كما أنه لا يعرف مكان المصلى.

- حسناً، بإمكانك الانصراف.

في اليوم التالي علمت أن من استعدى المفتشين عليها كانتا عاشقتي واللواتي كن أيضا زوجات لضباط في الجيش، مدرّسة الرسم ومدرّسة العلوم.

لقد شكوا زوجها بأنه يأتي إلى المصلى وينظفه. ذهلت المعلمة زليخا للشكوى. كانت تفهم من يشكونها، لكن لماذا يشكون زوجها؟ عرفت السبب من مدير المدرسة. تذكرت كلام المدير السابق بشأن الفصل من العمل. فقد قال بأن جميع أفراد العائلة سيتعرضون للفصل من أعمالهم واحداً تلو الآخر.

/.../

لم تعد تذكر المعلمة زليخا عدد مرات ترددها عليهم. فقد كانت تدور كبكرة خيطٍ بين البيت والمدرسة ومديرية التعليم! أضف إلى ذلك زيارات المستشفى... بعد الحادثة بعدة ليالٍ وأثناء تواجدهم في زيارة لمنزل أحد المعارف شعرت بالدواروخدرٍ في الوجه نقلت على إثره إلى طوارئ المستشفى. سأل الدكتور المناوب عما إذا كانت قد تعرضت لصدمة نفسية في الأيام الأخيرة، بعدها تم استدعاء الطبيب النفسي من منزله إلى المستشفى. لم يكن بيد المعلمة زليخا منع تفاقم الأحداث بهذه الطريقة. وجدت نفسها عند الطبيب النفسي بمعية الممرضة.

راح الطبيب الذي بدا جلياً عليه انزعاجه من استدعائه من منزله في هذه الساعة بتوجيه أسئلةٍ غريبة إليها. "بماذا تشعر الآن؟ هل تراودها أفكارٌ بشأن إضرار نفسها أو أطفالها؟ هل سبق لها أن حاولت الانتحار؟" وغيرها من الأسئلة!

لم تكن المعلمة زليخا تستطيع الإجابة عن سيل الأسئلة المندفع. ما الذي يقوله هذا الطبيب؟ حتى ماكان لا يخطرعلى عقلها كان يجعلها تفكربه. أي انتحار؟ وأي اعتداء؟ كأنما كل جرمها هو حجابها الذي لا يتجاوز طوله المتر. أخبرهم الطبيب أن لديها أعراض اكتئاب ثم وبنفس التعابير الباردة خرج

المدير. قال بنبرة باردة:

- تفضلي بالجلوس.

- أهلا بكم ياسيدي. هذا ما استطاعت أن تنطق به المعلمة زليخا.

كانت تنتظرها أسئلة وأجوبة روتينية.

- شكراً لك. سوف أدخل في الموضوع مباشرة يا سيدة. سوف أسألك عدة أسئلة وبعدها بإمكانك الانصراف.

- هل تفكرين بكشف شعرك؟

- لا سيدي.

- لماذا؟

- لأنه أمر الله. لا سبب آخر.

- ماذا لو فُصلتِ من عملك؟

- زوجي يعمل.

- ماذا لو فُصل هو الآخر؟

- لنا عوائل تدعمنا. لن نشرد أو نجوع.

- حسناً. هل تؤدين الصلاة في المدرسة؟

- لا سيدي. لا أعرف حتى مكان المصلى. لأنني أصلي عندما أذهب إلى بيتي في ساعات الإرضاع. لا يفوتني وقتها.

- هل تمارسين نوعاً من الضغط على من حولك حتى يرتدين الحجاب أو يؤدين الصلاة؟ هل تمارسين تصرفاتٍ تؤثر سلباً في الأطفال؟

- في أي عصرٍ نعيش يا سيد؟ هل يمكنني أن أجبركم على عمل شيءٍ؟ لقد وهب الله الجميع عقولاً. وكل شخصٍ حرّ في قراراته وتصرفاته. أليس هذا هو سر الامتحان والمحاسبة؟ أما بالنسبة لسؤالك الثاني، فقد تم اختياري السنة الماضية كمعلمة مثالية وفزت بمكافأة مالية. أيمكن لي أن أكون معلمة ذات تأثير سيء؟

- بدل أن المفتش الثاني سرّ لإجابات المعلمة هذه، كان يؤيد هازّاً رأسه بينما تتحدث. سُرّت هي أيضاً لردات فعله لكن هذا لم يجعلها تطمئن تماماً.

التقت عيناها بالفتيات اللواتي صمدن ولم ينزعن حجابهن حتى الآن، عيونٌ شاخصة وملأى بالخوف...

دون أن يرى أو يلاحظ أحداً أخذت المعلمة زليخا تردد الدعوات بينها وبين نفسها...

كان طلبتها يحبونها. لاحظت ارتفاع أكف بعضهم للدعاء. أخذت نفساً عميقاً وخرجت.

- لابد أنك رأيت ضباط الشرطة الذين دخلوا بعدك أيتها السيدة المعلمة. لقد بدأ اتخاذ إجراءاتٍ بحقك. واليوم في الساعة الثانية ظهراً سيكون مفتشون بانتظارك في مديرية التعليم. سوف تؤخذ إفادتك.

/.../

- مرحبا بك يا معلمة. تفضلي بالجلوس رجاءً. لقد أعلمني المدير بموضوعك. يبدو أنك تحرضين طالباتك على عدم كشف رؤوسهن. كما تم تنظيم مسيرة اعتراضية صغيرة من دون تصريح سابقاً. قالوا إنك كنت بينهم.

- هذا مستحيل أيها السيد المفتش. لقد علمت عن الحادثة في اليوم التالي.... كنت في المنزل أستخدم إذني اليومي كمرضعة لإرضاع طفلي. هل يمكن لأحدٍ أن يتواجد في مكانين في نفس الوقت؟ تستطيعون سؤال السيد المدير والتأكد منه عن إذن إرضاعي.

- أحقاً ماتقولين؟ إن ماتم نقله لنا عكس ماقلتيه تماماً. حسناً إذاً، تستطيعين كتابة أقوالك على الورقة أمامك والانصراف.

بعد ذلك الموقف بقدر أسبوع اتصل عليها مدير المدرسة في يوم ليس لديها فيه دروس. كان يخبرها بضرورة قدومها إلى المدرسة بسبب قدوم مفتشين من الوزارة لأن هنالك شكوى بحقهم. ذهبت بعجلة وارتباك إلى المدرسة. استدعوها إلى غرفة المدير. كان هناك مفتشان في الغرفة. أحدهما كان عابس الوجه لأقصى درجة، يبدو من حاجبيه المقطبين إنه من أولئك الذين يرون أنفسهم على حق منذ البداية، صاحب أحكام مسبقة. أما الآخر فكان أكثر ودية نحوها. هل هذه أحد تكتيكاتهم أيضاً؟ كان عقلها مشوشاً. رغم ذلك وجدت المفتش الثاني ودوداً. ذو الوجه العابس كان جالساً على مكتب

في لحظةٍ قصيرة فكّرت بأخيها الكبير الذي يعمل في الجامعة و أخيها الأصغر الذي يدرس في نفس الجامعة، وبعدهم بأقاربها الذين يدرسون في الجامعة وأبنائهم... وبينما كانت تسأل نفسها "ماذا لو كانوا سيفعلون لهم شيئاً حقاً؟" قاطع السيد المدير أفكارها.

- تدريجياً سيبدأون باتهامهم بتهم غريبة لا تعد جرائم في العادة وسيبعدونهم عن وظائفهم.

شعرت برأسها يدور وداهمت معدتها تشنجات مؤلمة. أحسّت أن لونها تغيّر. لم تتحمل أكثر فاستأذنت وخرجت من الغرفة.

قابلها شرطيان مدنيان عند الباب بنظرات باردة كالثلج. كانت قد قابلتهم من قبل في غرفة وكيل المدير.

كانا ينظران باشمئزازٍ نحو زليخا المعلمة!

بعد خروجها طرقوا الباب ودخلوا.

- لقد جاءا من أجلي مجدداً.هل علي أن أعيش نفس الشيء كل يوم إثنين؟ إني أشارك في طابور الصباح. وأردّد النشيد الوطني من قلبي. ماذا يريدون أكثر من ذلك؟

أثناء ترديد نشيد الاستقلال الوطني صادفت عدة معلمات يردّدن نشيد السنة العاشرة ...*

لم تفهم، أكُنّ يفعلنَ ذلك لكونها بالقرب منهن فقط؟ دخلت إلى غرفة المعلمين في ضيق.

هناك أيضاً تلقّت عدة نظرات غير مريحة. رددت بينها وبين نفسها " نفس مايحدث في كل مرة" وجلست على مقعدها.

عند رنين الجرس ألقت بنفسها نحو الصف بصعوبة. وفي منتصف الدرس عندما أخبرها أحد الطلبة المناوبين أن المدير ينتظرها، وصل الضيق والاستياء عندها حده.

*نشيد كُتب احتفالاً بالسنة العاشرة على تأسيس الجمهورية التركية. (المترجم)

المعلمة زليخا بابنها بين ذراعيها بقوة أكبر... لطالما كان محمد ولداً حساساً وعطوفاً. كان لايزال في الخامسة من عمره ولكن الكلمات التي يستخدمها كانت تذهل أباه وأمه. كلمة جهنم كان لا ينطقها جيداً بعد. حتى عين زوجها امتلأت بالدمع. زرعت زليخا المعلمة قبلةً على رأس الطفل الملتصق بذقنها.

- حسناً، لن أبكي. لن أبكي من أجلك أنت، أيرضيك هذا؟ هيا هلم بنا نطعم خديجة، لابد أنها جاعت. ولنجلس بعدها على السفرة.

تراخت ذراعا محمد وهو يحضن أمه بعد أن اقتنع أن كل شيء عاد إلى طبيعته.

لكنْ عيناه لم تقتنعا بعد؟ لم يكن يبعد نظراته عن عين أمه. وطوال الليل راقب أمه بعينيه فاحمتي السواد من الكنبة التي يستلقي عليها. كوّن طرقاً سرية من رموشه الطويلة تصل إلى الغرف الأخرى والمطبخ وسرير أخته... زليخا المعلمة التي نوّمت خديجة استلقت بجانب ابنها.

- ألم تنعس بعد؟ هيا لننم الليلة معاً. التقت يدا محمد الصغيرة بيدي أمه. كانت تفخر بابنها الذي يتصرف بتصرفاتٍ أكبر من سنه بكثير.

- هلا قصصت علي قصة؟

- سأقص عليك أطول قصة.

تمسك بأمه بقوة في سريره.

واختلطت نبضات قلبيهما ببعضها.

/.../

- استدعيتني أيها السيد المدير.

- تفضلي أيتها السيدة المعلمة إلى الداخل. بدأ المدير الكلام بضيق.

- تعرفين الموضوع. إنهم جادّون بشأنه. إذا لم تكشفي شعرك فسيمطّون الموضوع ليشمل زوجك وإخوتك واسم عائلتك. حتى أبناء الإخوة والأخوات وأبناء العمومة ممن يدرسون في الجامعة سيشملهم الضرر. فإذا كنت لا تفكرين بنفسك فكري بهم.

الجائزة الشرفية / باطمان

قطرة حليب

زينب أوزلم سويم*

ما قيمة الحليب بالنسبة لرضيع يصرخ من الجوع؟ أيّ أمٍ تستطيع التحمّل أمام منظره وقد جفّت شفتاه وارتعدت وهو ينتظر قطرة حليب؟ ما الذي تعادله قطرة حليب عندك يارب، قطرة واحدة فقط؟ وما جزاء من تضنّ على رضيعٍ معدته بقدر معدة عصفورٍ بالحليب؟ هل هناك أظلم ممن يمنع رحمة الله المقدمة إلى القلوب الصغيرة في شكل قطرات حليب؟

أخبرينا يا أيتها النعمة التي تنزل علينا من أقدس الأماكن، أخبرينا بحق من جعلت الجنة تحت أقدامهن ولحب من أرسلك للشفاه العطشى "هل سيأتي يومٌ تقفين أمامنا لتقاضينا فيه؟"

/.../

- أنتِ أيضاً كالجميع. ألا ترين أنك تعطين الموضوع أكبر من حجمه؟

- (...)!

- لو استمررت بالبكاء هكذا دائماً... فسيتأثر الأطفال سلباً. فهم يحزنون كثيراً لرؤيتك هكذا، بل ويعتريهم الخوف فيلتصقون بك، ألا ترين محمداً؟

- لماذا تبكين يا أمي؟ لسوف يجزي الله الكبار الذين أبكوك بما يستحقون. لا تحزني. سوف يلقي بهم في جهنم، سترين. كان يؤكد على ذلك بإيماءات برأسه وهو يتكلم ويرسل إلى أمه نظراتٍ مقنعة بعينيه الواسعتين. أحاطت

*ولدت عام 1966 في سيلوان بمحافظة دياربكر. أنهت دراسة تخصص اللغة الإنجليزية وآدابها في جامعة دجلة. تعمل حالياً في ثانوية الأئمة والخطباء كمعلمة لغة انجليزية. متزوجة وأم لثلاثة. نشيد كُتب احتفالاً بالسنة العاشرة على تأسيس الجمهورية التركية. (المترجم)

قطرة حليب

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

سهرك على راحتي، وكونك لي ذراعاً وقدماً. إحضارك لأدفأ وألطف المواسم بيدك الغليظة القاسية. ثم تلقينك لي أهم درسٍ في الحياة:

- المعلم لا ينسى تلاميذه، فهم أجنحته. يحتاج إليهم حتى يستدل على طريق دنيا الحكايات.

6.العنقاء

"طائر عملاقٌ وأسطوري. يصدر أصواتاً مختلفةً من منقاره كثير الثقوب كلما هبت الريح. مزيّن بألوانٍ وأشكالٍ كثيرة. عندما يصبح عمره عاماً يجمع الأغصان والقش ثم يصعد فوقها ويغرّد. مع انسجامه وانطرابه مع التغريد يضرب بأجنحته فتشتعل الأعشاب من موجات الهواء التي تسببها أجنحته فيحترقون جميعاً في لهب لامع. تخرج بيضة من الرماد المتبقي ويفقس منها فرخ صغير. يقال أن علماء الموسيقى الأوّلين اخترعوا علم الموسيقى بناء على صوته." أنت معلم ومدير. كطائر عنقاء تولّد الغد من رمادك. تعجن تلاميذك بروحك في كل نواحي البلاد حتى يتفتحوا زهوراً. طيور العنقاء بمعيتك تضيف أصواتًا جميلة إلى ديار الوطن وترابه. أنت معلم...

تنسى تلاميذك. أنت لا تنسى، أنت جبل من الوفاء!.. أنت معلمي. كم تعلمت أشياء كثيرة بشأنك في أيام المستشفى هذه. عرفت أنك تلعب دور الأب ليس لطلبتك فقط بل للمعلمين أيضاً، وأن تعابيرك الخشنة لم تفارق وجهك منذ تُوفيّت زوجتك التي تحبّها؛ فتاة القرية التي تزوّجتها تلك، بعد أن أحضرتها إلى المدينة طارت فاردة جناحيها نحو اللانهائية.. كما عرفت أشياء أخرى..

5.أوزة

أتعلّق بك من جديد. أؤمن بما كنت أعرفه عنك من جديد. تجددت حياة سكاكري معك مجدداً. وتستحيل المدرسة كل ما أملك. كأن السحر ينحل عند خروجي منها. وتشحب ألوان البيوت. أجيء إلى المدرسة بأقدامي المجبّرة بالجبس. تأخذني إلى الصف بنفسك، وعندما يدق الجرس تخرجني إلى غرفة المعلمين. تطيل النظر إلى وجهي كما في الأيام الخوالي. وكأنك تبحث عن زينب ابنة الحاج راسم في تلك القرية الواقعة بين جبلين. ثم تخجل وتطرق برأسك. كيف لخطوط وجهك أن تحتوي مشاعر الفخر والخجل والغضب في آن واحد.

أتنزّه معك بعد الانصراف. لا ندخل إلى بعض الشوارع لأن في ذلك الشارع طالبنا الفلاني يعمل بالطلاء وفي الشارع الآخر يعمل طالب مع أبيه في دكان ما، قد يرؤْننا فيخجلون.

أحمد، الطفل الأشقر الذي غذيت له حلمه بأن يصبح لاعب كرة قدم يتقاضى مصروفه منك. ووالد عائشة عندما بقي في المستشفى عاجزاً عن دفع مصاريفها والخروج دفعتها عنه يوم استلام راتبك دون أن تأخذ منه قرشاً. وصناديق الكتب التي ترسلها إلى مدارس القرى.!.. كان عليّ أن أتحدث مع الكثيرين حتى أعرف عن كل ذلك. في كل مرة كان يزيد إعجابي وذهولي. كم تتصرف برقة ومراعاة تجاه الطلبة في المدرسة التي أنت مديرها. وجهك الجاد الذي يخفي أصالة وطيبة عريقة... ألوان وجدت فرسانها من جديد لتقود خيلها في أوردة قلبي. آه يا تلك الطيور...

أصبح الطفلان ذوا الملابس المهترئة جناحيك، وأخذا يطيران بك نحو جبل القاف.

4. حمامة

عدا عن المحادثات الرسمية، كانت تلك المحادثة الوحيدة التي دارت بيننا. ثم حلّت تلك الحادثة! كنت أبكي فقط. أطنان من الأثقال على قدمي، أطنان من الألم، أبكي. عيني مغمضة. متأكد من كون عيني مغمضة، أحسّ بيد خشنة تمسح على رأسي وتعبث بشعري. أصوات مختلطة... محادثات مجهولة الأطراف... لا أستطيع تمييز الأصوات. والخدر في وسطي يُعلّمني بطول مدة استلقائي. أفتح عيني فتغمضها أنت!.. أسأل: "ماذا حدث لي؟" فتضحك. وأبي بالقرب منك يضحك هو بدوره ويقول: "الحمدلله، صحيت من نومك الثقيل. المعلم – مشكوراً - لم يتركنا وحدنا. هو من أسرع بك إلى المستشفى."

كنت أبكي فقط. ولا أستطيع تحريك قدماي. في طريقي إلى المدينة من البلدة تعرض الباص لحادث. كان أبي يحدثني بما صار بانشراح من بُشِّر بخبر سارٍ بعد وقت طويل من الخوف والقلق. والسيد المدير هرع إلى موقع الحادث فور سماعه بالخبر وأسرع بك إلى المستشفى قبل أن يصل الإسعاف. أصيب السائق وأنا الجالس خلفه بجروح بالغة. أما بقية الركاب فقد خرجوا سالمين بخدوشٍ بسيطة. تدحرجنا من فوق منحدر. حتى السائق نجا من الموت. لم ينقطع أبي عن الكلام وكأنه سيخسرني لو سكت. لاشك بأنه يتذكر صمت أختي.

كنت أنت تضحك أيضاً. انقشعت سحابات التعابير الجدية في وجهك وأشرقت الشمس فيه من جديد. تقول لي "أيها الشقيّ الصغير، حبّك للمدينة هذا هو سبب المشاكل"

أنخرط في البكاء عندما أعرف أن يدك الخشنة هي ماكانت تمسح على وجهي. أبكي بجانبك دون خجل. معنى هذا أنك قلقت عليّ أيضاً. قضيت أياماً ولياليَ بجانبي لم تفارقني. وأنا الذي كنت أتهمك قبل عدة أيام بأنك

مكتبك؟ مشيت ذهاباً وإياباً لمرات ثم عدت إلى بابك. طرقت بابك بعد أن جهّزت سبباً أقوله لك في رأسي ودخلت. كنت على مقعدك. رائحة الغرفة لافندر. وعلى الكراسي طالبان كبيرا الجثة بملابس قديمة. كم كانا مرتاحين في جلستهما!.. بينما كنت متوتراً حتى وأنا واقف. ترحب بي قائلاً: "تفضل أيضًا السيد المعلم" ينهض الطالبان شاكرين وخارجين بهدوء. ما الحب الذي كان يكبر في عينيك كلما أطلت النظر إليهما؟ كم أنا متلهف لمعرفة سبب كونك قريباً من هؤلاء الأطفال مهترئي الملابس أكثر مني.

- هل نسيتني يامعلمي؟ لكوني تدربت عليها مراراً في البيت خرجت من فمي بسهولة.

- المعلم لا ينسى تلاميذه، هم أجنحته. وهو يحتاج إليهم حتى يستدل إلى طريق دنيا الحكايات.

حكايات وأجنحة... كانت تلك كلماتك. عاد الزمن إلى الوراء فجأة. عاد بسرعةٍ حيث جاءت كل الأغاني الشعبية التي أنشدت في الطيور من القرية الواقعة بين جبلين وحطت على أذني. في الحدائق المنزوية وقفت أشجار البرقوق للإزهار. في ساعة مبكرةٍ من صباح الرابع والعشرين من أكتوبر اصطف أطفال بوجوه داكنة وأزياء مدرسية سوداء أمام المسكن الأصفر وقبّلتهم جميعهم على خدودهم، حتى حليم ذو النمش. كم سعدت والأقلام الملفوفة بأوراق التقويم ذات صور المناظر الطبيعية تُمدّ إليك. لماذا كانت يداك ترتجفان وأنت تضع الأقلام في درج الدولاب الخشبي في صفنا؟ لم أكن قد دخلت بين الطلبة في الصف. أحضرت الهدية التي اشتراها أبي لك ملفوفة بأوراقٍ جميلة وليس بأوراق تقويم. لماذا تغير وجهك عند رؤيتك لهديتي وأنت الذي قبلت هدية الأطفال المتسخين. قبّلتني كما قبّلتهم ولكنك قلت "لتكن الهدية لك، احتفظ بها عندك لي." كما أنك ألقيت بأوراقي المزينة في القمامة. عدلت أوراق تقويم الأطفال المتسخين ووضعتها في الدولاب الخشبي. لم يفز أيٌ مما أحضرته بحق الدخول إلى الدولاب. ثم أخذتني تحت ذراعك. ونظرت إلي مطولاً. أمسك طفلٌ صغير بيد والده ومشى متقدماً نحو الباص الذي سيأخذه إلى المدينة. كادت أمي أن تهتف لنا من شرفة البيت "أيها المعلم، سيذهبون ويتركونني."

الناقلة للأخبار. أخبرك باسمي. وبكوني معلم اللغة التركية وآدابها الجديد. أريد بذلك أن تعود إلى وجهك تعابيره المؤنسة القديمة. تعبر النوارس مروراً بداخلي وهي تصرخ. لا يتغير وجهك، جامد، ربما مستخف بعض الشيء!..لا تنساب من شفاهك سوى "مرحبا بك" وصوتك آه من صوتك، نبرته صلبة. مختلف عن صوت الهدهد الذي حملته في أذني لسنوات. والذي حمل لي أجمل حكايات الطيور. وأنت كما فهمت كنت تارة تصبح الملك المقتدر سليمان وتارة ملكة الملكات بلقيس.

أتعرف أيضا، يطلقون على الهدهد عندنا اسم طير الشاووش. لابد أنك تعرف. كما لابد أن لديك حكاية هدهد تحكيها لي هنا. لم تحك لي شيئاً. رن هاتفك. أشرت بيدك أن عليّ أن أذهب. مازلت أفكر بالطيور وأنا أقرأ اسمك على لوحة مكتبك.

خرجت محبطاً من المدرسة ذلك اليوم. إلى أين أذهب؟

كيف أنزل، أين أمشي، أي درجات أستخدم وأنا أصعد، لا أعرف. لا فائدة لمعرفتي. فلا لزوم لمعرفة ذلك بعدك.

في هذه الدنيا الباردة صوتك بصوره اللانهائية وألوانه وانسكابه المختلط بصوت أمّ تجمع لسنوات داخلي. نعم، كنت أراقبك. المسكن الأصفر، سكاكر النبات، وعبارتك: "أنتم أيضاً ستكبرون وتخدمون المواطنين"، والطيور، نعم الطيور في الأكثر... والآن أنت تهدم بيدك القلاع التي بنيتها بنفس اليد. تنتزع مني مقدساتي وألواني.

لا أتطرق في الحديث مع أبي عن كونك مدير مدرستي الجديدة. ربما لأنني لم أكن متأكداً مما إذا كان سيحزن أم يسرّ بذلك. لم أخبر أبي عنك أبداً. بدلاً عن ذلك رحت أنظر إلى أسطح البيوت والسقوف وحواف النوافذ علّي أجدك فيها. لم تكن هناك، ولم يكن لك أي عذر لعدم كونك هناك.

أراك أحياناً تصلح الأبواب والنوافذ وفي يدك مطرقة أو كماشة. أمرّ دون حتى أن ألقي سلاماً. حتى أثناء الحديث في الاجتماعات والمراسيم بقيت صورة وجهك جدية التعابير. وعناداً لك كنت دائماً أبتسم.

تمرّ الشهور. وأقرّر أخيراً أن أكلمك. كيف استجمعت الجرأة لدخول

إن كانت قرية أو مدينة، المهم خدمة هذا الوطن" دور الشعاع الذي ينير طريقي، لم أعرف.

ثمة طيور، غرانيق، غرانيقنا...

3. الهدهد

كان أيلول مجدداً...

المطريهطل ويغرق الشوارع بطولها. أنزلني الباص أمام المدرسة مباشرة. لابد أن للمطر علاقة ما بك. لأول مرة أربط موقفاً بذكرى أخرى وبشكل واضح. فالمطر الهاطل بخفة في أول يوم أكون فيه معلماً ألهمني ورَسَم صورة الرجل صاحب الشعر الأسود الخارج من المسكن الأصفر راكضاً نحو المدرسة رغم المطر، والذي لم يذُب رغم انتظاراتي الطويلة. أدخل إلى غرفة المدير. أليس هذا أنت؟ تقاسيم الوجه هذه هي تقاسيم وجهك. تلك النظرة التي تسعى لرؤية أعماق المرء هي نظرتك!..

لكن البياض في شعرك، والجلسة العصبية؟ ماهذا؟ هل أنا في حلم؟لا يمكن أن يكون هذا أنت... فأنت تزوجت من امرأة من قريتنا واستقررت فيها. كانت جدتي تخبرنا بذلك عندما تأتي إلى المدينة من القرية. وأنت كنت كالقرويين تهتم بالحديقة وتدخل إلى غرفة اجتماعات القرويين وتتحدث عن مشاكل القرية. الجميع تقبلك كأحد أفراد القرية. ماذا عن وجهك المبتسم دائماً؟ كنت رجلاً كالملاك بالنسبة لجدتي.

تلك اللحظة جاءت أسراب من الطيور. طيور بُعثرت أعشاشها ولا تحمل معها أخباراً. كان ذلك أنت بالتأكيد. فاسمك مكتوبٌ على لوحة المكتب الصغيرة، الاسم الذي اعتدت سماعه من أبي والذي لطالما علّمتُه الأطفال في المدرسة. كم كنت أشعر بالفخر وأنا أعلّم الأطفال ذوي الوجوه المتسخة والملابس القديمة اسمك وكأنني أعرف أكبر سرّ في العالم. كما أنني اعتدت مع مرور السنوات على ثقافة حكاياتك المتعلقة بالطيور.

كان ذلك أنت!... ها أنا ذا أمامك من جديد. هذه المرة كنّا وحدنا. كم جمعت الكثير من الكلمات التي أردت أن أقولها لك في داخلي. تجمعت عناداً للطيور

شديد ولكن تغلبه الشفقة والعطف.

-المهم هو خدمة هذا الوطن، لايهم إن كان ذلك في مدينة أو قرية.

ماذا كان يعني ذلك؟ كنت تحسدني أليس كذلك؟ أنا ذاهب إلى المدينة وأنت ستبقى هنا. مت بغيظك. حتى أختي سآخذها وأذهب. ستبقى أنت وحيداً، احتفظ بالعصافير لنفسك.

2.طيور الغرنوق

ها نحن نذهب. لاشك أنّ أبي كان يرغب بأخذ أمي معنا أيضا. لكن ذلك لم يحصل. المكان هنا قد أصبح أكثر استحالة على العيش، في كل مساء يقول لجدتي ذلك. كان بإمكان جدتي أن ترتاح عند عمتي أيضاً. قدمنا إلى المدرسة حتى نودعك برفقة أبي. بم كان يمكن تفسير الابتسامة التي كانت على وجهك؟ رغم نظري إليك هذه المرة أيضاً إلا أنك لم تمسح على رأسي. كان بداخلي إحساسٌ غريب. رغبة بالبكاء. أعرف بأني لو بكيت أمامك كما أبكي في المباريات التي نلعبها أنا وحسين فستسخر مني كما يسخر حسين. ستقول عني بأني طفلٌ مدلل، أو لم يفطم بعد.

تعلمت من بعدك حكايات عن الطيور. طيور تأتي بالأخبار من الأماكن التي تقع خارج الجنة. تعلمت عن طائر الغرنوق في الأكثر. طائر الغرنوق يساعد أمه وأباه عند كبرهما وعجزهما عن تلبية احتياجاتهما بنفسيهما. أنا بدوري عليّ أن أصبح غرنوقاً وأرعى أبي وأختي. عليّ أن أكمل تعليمي. بمرور السنين كان الغرنوق داخلي يكبر أيضاً. أردت أن أرسل لك قلبي الذي يميز أصوات الطيور محولاً إياه إلى غرنوق. كان الغرنوق طائراً ينقل الأخبار. الغرنوق الذي تموت زوجته يهبط إلى جانبها ولا يفارقها. هذا ما تقوله الكتب. أما أنا فلم أعرف لقلبي زوجًا غير أمي وأنت، وقد خلّفتكما وراءي في القرية المحشورة وسط جبلين دون وداعٍ أو فراق. بل بالرحيل فقط!..

مدارس وجامعة وتعليم. هل كان لك دور ياترى في جعلي أرغب أن أصبح معلماً؟ أكنت كامناً في إحدى زوايا عقلي بينما كنت أقرأ حكايات عن الطيور بلا توقف؟ لم أعرف.

أصبحت معلماً، تم تعييني في بلدة وليس في قرية. ألَعبت جملتك "لا يهم

الذين شُفوا وأصبح بإمكانهم النطق والسماع. كنت أستمع إليك جالساً على كرسيّ الأحمر. لم أكن أريد لأختي أن تسمع، كان علي أن أخبرك بذلك. وكان علينا أن نكون وحدنا من أجل ذلك. كنت دائماً ماتتحدث عنها، أما أنا فتمسح على رأسي فقط.

بدأت الذهاب إلى المدرسة في أيلول. أصبحت تلميذك الآن. تلميذك رغم كل خطط والدي بشأن المدينة. فهذه ديار أجدادي في النهاية. كنت أطيل النظر إليك أثناء الحصص الدراسية. عليّ أن أكون متميزاً. لأنك مسحت رأسي لمراتٍ كثيرة، كما أن الفتاة التي تحدثت عن إمكانيات علاجها هي أختي الكبرى. أريدك أن تفهم ولكن لا تفعل. إنني أكره سكاكر النبات.

تربطنا وفاة أمي ببعضنا. بعضاً فأنت دائماً بجانبي، تمسح دموعي الصغيرة بيدك، تحكي لي عن الطيور وتخبرني بأن أمي لم تتركني. "إنها تراقبك وترسل لك مع الطيور أخباراً. أتسمع: يوسف!.. يوسف!...

لكن اسمي ليس يوسف.!اسم كل أطفال الجنة يوسف. حسناً ولكن ما أدراني أن أمي تناديني؟ سوف يخبرك هذا!

كان قلبي هو مالمَسته. أنت من أعلمتني بوجوده أيضاً. قلت:"انظر هذا مكان قلبك" وضعت يدي. معنى ذلك أن قلبي يميز أصوات العصافير. سوف يخبرني بصوت أمي. لم أبك بعدها أبداً وأصبحت في كل مرة أرى فيها عصفوراً صغيراً أبيض أقرب أذني من قلبي وأبحث عن صوت أمي.

لم تضجر أبداً من سرد حكايات الطيور علي. كنت دائماً ما تحدثنا عنها. أثناء سردك لإحدى الحكايات رفعت إصبعي كما علمتني. لم ترني، ربما تجاهلتني. لربما كنت لا تريد لأحد أن يحول بينك وبين العصافير. لكن إصبعي كان مصمماً. "قل ماعندك!" قلت. لم أكترث بالعصبية في صوتك حتى.

- سوف أذهب إلى المدينة يامعلمي.

أغضِبت أم ماذا، اكتست وجهك تعابير غير مفهومة. تساءلت لسنوات عما إذا كانت تعابير غضب أم لا. بقي كسؤال غير مجاب عنه يركض في عقلي لسنوات. ثم نطقت، كان صوتك يشبه صوت أمي وهي تحرث حديقة المنزل.

جديد بسرعة على الأقل. كما كان يقول كأننا لم نكن ننتمي إلى هنا.

أنت أيضاً لم تكن تنتمي إلى هنا، أعرف ذلك. كنت طازجاً أنت كذلك. أتيت من المدينة كسكاكر النبات تماماً وستختفي مثلها هنا. هذا المكان هو بمثابة جهنم بالنسبة لإنسان متعلم. هذا ما كان يقوله أبي. أتعرف أيضاً، كنت في تلك الأيام أشعر بسرور خفي كون أختي صماء، فقد كنت أنا فقط من أسمع جدتي عندما تقول "أحضرت لكم سكاكر نبات طازج" أما أختي فلا.

في اليوم التالي كنت أركض إلى المدرسة مبكراً لأني أرغب في رؤيتك. كان ذلك في أول أيام نيسان. أقاربنا يتحضرون لـ 'مزحة الأول من نيسان'، هكذا تحدثوا بينهم في المساء. لم أكن أفوّت أي كلمة تقال في البيت، عناداً لأختي كنت أريد سماع كل أصوات العالم. كان يوماً ممطراً وكان الأطفال يدخلون إلى المدرسة من باب الفناء بوجوههم المتسخة والقديمة. قد تكون مرت مئات السنوات منذ منعني أبي من اللعب معهم. لقد كانوا أطفالاً سيئين لأنهم يسبون ويشتمون.

تَخْرج من المسكن الأصفر الذي تعتّق داخله ببطء لسنوات. أراقبك من خلف الحائط. في داخلي خوفٌ أحمر! كانت سكاكر النبات الحمراء هي المفضلة لدي، كأنها ستذيبك في يوم ممطر. لكنك لا تذوب، بل على العكس، تدخل من بوابة المدرسة ركضاً. سكاكري أنا لا تركض.

ثم كان بعدها لقاؤك بأبي وقوله عنك "طفل مؤدب ومثقف. سيكون هذا مؤسفاً بحقه." كأن كل أصوات العالم تتجمع عندك، أو أن كلماتي التي حشرتها في صندوقي الخشبي الصغير تهرب وتأتي إلى أذني من أجلك. حبة سكر نباتي تصغر وتصبح طفلاً يمسك بيد أمه السكّرة ويمشي معها في الطرقات، عند الانصراف من المدرسة في طرق القرية، دون توقف، رغم كل مخاوفي وحتى في الأيام الممطرة.

ازدادت زياراتك إلينا. وفي كل مرة، وقبل أن تخرج من عندنا كنت تمسح على رأسي. لم تكن تحادثني، بل تبتسم لي فقط. كان لدي أسئلة لك؛ لكن كان علينا أن نكون وحدنا، وأن تكون أختي معنا أيضاً. كنتَ دائماً تتحدث مع أبي عنها."لابد أن هنالك حلاً." وكان أبي يخبرك بالمدن التي جابها والأطباء الذين ذهب إليهم باحثاً عن علاج. وأنت كنت تحدثه عن الأطفال

الأول على تركيا 2007 / زونكولداق

متحف الطيور القديمة

سنان داولجو*

1. يوسف الصغير

آه كم أذكرك بذكريات طازجة. في ذلك الزمن كانت كلمة طازجة تعني السعادة التي كانت تحضرها جدتي مع حلوى سكاكر نباتها التي كانت كبيرة بقدر أفواهنا عند قدومها إلى المدينة. لقد توافق قدومك مع تلك الأيام. كانت جدتي قد ذهبت إلى المدينة وستعود بسكاكر طازجة في المساء. ستجمعني أنا وأختي حولها وتخبرنا بأنها أحضرت سكاكر طازجة. أحقاً كانت تقول لنا ذلك أم أن نافذة الذاكرة التي أفتحها تعكس لي صورة ذبلت وتغيرت، لا أعرف. كانت أول مرة تتحدث فيها جدتي عنك ذلك المساء. فبينما كنت أنتظر بشرى سكاكر النبات الطازجة قالت "لقد جاء معلم جديد طازج ماشاء الله." فنزع هذا الخبر سحر سكاكر النبات وأبطله. فجأة أضحى الجميع يعتريه الفضول بشأنك. قالت عنك جدتي "طازج" فأصبحت من يومها مرتبطاً في ذهني بسكاكر النبات.

لم أكن قد بدأت الذهاب إلى المدرسة بعد. كان أبي يريدني أن أدرس في المدينة. أمّا جدتي فقد كانت مصرة على "ديار الأجداد". تشكل المدينة باب أمل من أجل أختي الخرساء الصماء. جال مدناً كثيرة من أجلها ولكنه لم يجد لها علاجاً. لكنه كان يقول أننا في المدينة يمكننا السماع بأي تطور

*ولد في بلدة كيليملي الواقعة في محافظة زونكولداق. بعد أن أنهى المرحلة الإبتدائية في مدرسة محمد عاكف أرصوي والثانوية في مدرسة محمد تشاليكل تخرج في قسم اللغة التركية وآدابها بجامعة قارادنيز التقنية. تم تعيينه كمعلم للغة التركية وآدابها بثانوية بارتين أربت متعددة البرامج. حالياً يعمل كمعلم في ابتدائية غازي. متزوج وأب لطفل واحد.

متحف الطيور القديمة

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

معاً؟ بيت عليك وبيت علي!" وافق ثم كتب البيت الأول وترك الورقة والقلم أمامي. فكّرت ملياً ولكني عجزت عن إيجاد بيت يوافق البيت الذي كتبه. مددت له القلم والورقة طالباً منه أن يغير البيت الأول. وبعد أن عادت الورقة إليّ ببيت مختلف عجزت مجدداً من أن أكتب شيئاً. فكّرت وفكّرت وفكّرت...لم أوفّق في إيجاد شيء وأعدت نفس الطلب من معلمي فسحب الورقة والقلم من أمامي بسرعة قائلاً "فهمت، لا أمل منك، يبدو أني سأكتبه كاملاً بنفسي" ولم يرفع رأسه من الورقة حتى نهاية الدرس. عند رنين جرس نهاية الحصة طوى الورقة ووضعها في جيبه قائلاً: "سوف أكمل كتابتها في البيت." ثم اختفى عن الأنظار. وفي أول فسحة في اليوم التالي قدم لي شعراً بعنوان "أمسيّة أيلول" كان شعراً جميلاً جداً ومكوّنًا من صفحتين. وبمجرد دخولي للدرس قرأت الشعر بسرعة وكأني أشربه.

وفي آخر أيام الدراسة. كان الطلاب يوّدعون معلميهم وبأيديهم شهاداتهم. الضاحكون والباكون، الفرحون والحزينون... أمام غرفة المعلمين أمسكت بيد معلمي علي وقلت: "لديّ هدية لك يامعلمي" ساحباً إياه نحو أحد الصفوف الفارغة. أخرجت أوراقاً من جيبي حاشراً إياها في يده. ذهل عندما فتحها. نظروكأنه يستفهم "ماهذا؟" فقد كان شعره: "أمسيّة أيلول" قلت له: "أرجو منك أن ترى إنْ كنت قد حفظتها" ورحت أقرأ الشعر عليه. عند انتهائي تعانقنا عناقاً يستحق أن يشاهد حقيقة. قال لي: "هذه أجمل هدية تلقيتها في حياتي." فلم أستطع أن أقول شيئاً. عند خروجنا لم أكن أدرك أنني عشت ذلك اليوم لحظات لن أنساها ماحييت. لو حدث ذلك اليوم لقلت لمعلمي عندما أخبرني أنها كانت أجمل هدية تلقاها: "هذا أقل مايمكن إهداؤه لأجمل إنسان دخل حياتي..."

إليها، لم يقلها بنبرة غاضبة وآمرة بل بحنان الأب وعطفه.

بعد أيام قليلة جاء إلى البيت حطب وفحم بما يكفينا طوال الشتاء. أمي التي أخبرتني أن أبي اشتراه وأرسله إلينا. اعترفت لي بعد سنوات بالحقيقة. كان ذلك من تدبير معلمي علي، هو من طلب منها ألا تخبرني. كنت عندما عرفت الحقيقة أدرس في الجامعة، عندها أذكر أني سرحت وتذكّرت معلمي وكلي احترام وتقدير له وامتلأ قلبي بمشاعر الامتنان نحوه، قبّلت يده المباركة في خيالي.

قطعت خطوة من الطفولة نحو الشباب. كنت في الصف الثاني ثانوي وكنت عاشقاً هائماً. الغريب في الأمر أني أنا الذي لم أجرؤ على مفاتحة من أحبها في حبي أفصحت عن حبي ليس لها ولكن لمعلمي علي. لم أكن أعرف كيف ستكون ردة فعله ولكني احتجت لمساعدته. شعرت وكأني سأختنق إذا لم أخبر أحداً، وكان على ذلك الشخص أن يكون معلمي علي. استمع إليّ دون مقاطعة... في البداية قال هذه الكلمة التي لا أنساها حتى الآن: "على المرء أن يحافظ على كرامته في الحب كما يحافظ عليه في كل شيء. كرامته وكرامة من يحب." اليوم أدرك إعجابي بتفهّمه أكثر. فبدل أن يظهر لي الحب كغول ويفزعني فضّل أن يشرح لي ماهيته وكيف علي أن أحافظ على كرامته. أخبرني بأني من المستحيل أن أعود إلى الماضي بعد سنوات، لذلك قد يكون من الأفضل لو ذهبت وتحدّثت إليها الآن بدل أن أندم في المستقبل.

ذهبت وتحدّثت معها فرفضتني بعبارات مواساة من قبيل: "لنبق أصدقاء فقط"! هرعت إلى معلمي وأنا منهار من الرأس إلى أخمص القدميْن، فتبسم وأمرني بأن أكتب. نظرت إليه مستفهماً فقال: "اكتب عن حبك" ومن يومها بدأت أكتب. عشقت الكتابة بعد أن كتبت بإسهاب عن حبي. والآن أكتب عن صاحب القلب الكبير الذي أمرني بالكتابة. أحسّ بأن كلماتي لن تكون كافية وبأن قلمي سيرهق لو حاولت الدخول إلى التفاصيل.

كنت في الصف الثالث ثانوي في الأيام الأخيرة للدراسة. الأغلبية العظمى من الطلبة لم تأت، والمعلم علي أعطانا الإذن بالانصراف مبكراً. الكثير من زملائي بدأوا بالمذاكرة للامتحانات. جلس المعلم بجانبي وبدأنا بالحديث. لا أدري من أين خطر على بالي، قلت لمعلمي: "معلمي مارأيك أن نكتب شعراً

رغم مرور سنوات طويلة على الحادثة إلا أن تلك النظرات مازالت حية في ذاكرتي. الآن أصبحت أقرأ تلك النظرات بشكل أوضح. كانت نظراته مهيبة وقتها إلى درجة أنها أذابت يأسي وخوفي وحزني معها.

عند اجتيازي إلى المرحلة الثانوية أصبح معلمي لمادة الأدب، لكن في المتوسطة كان معلمي للغة التركية، واسمه كان علياً. لا أعرف كيف فعلها ولكنه خلصنا. ونحن على وشك الخروج من المخفر سمعت صوت امرأة تبكي، كانت أمي. وكان من يواسيها هو المعلم علي أيضاً.

عند خروجي من المخفر المجاور للمدرسة كانت هنالك مفاجأة أخرى تنتظرني. فقد كان الطلبة الذين سمعوا باقتياد الشرطة لنا إلى المخفر قد اصطفوا عند جدار المدرسة، جعلني ذلك أتمنى لو أن الأرض تنشق وتبتلعني. ابتعدت من هناك دون أن أرفع عيني عن الأرض وذهبت إلى المنزل وأنا أبكي. كان أأمن مكان أختبئ فيه هو النوم، ألقيت بنفسي على الفراش وتغطيت جيداً. قررت ألا أذهب إلى المدرسة مجدداً. قبل أن أغط في النوم جاءت أمي وحاولت أن تحادثني. أخبرتها أني تركت المدرسة. لا توجد قوة تستطيع أن تعيدني إليها بعد الآن. كنت لصاً ولم أكن لأحتمل التواجد بين الأشخاص الذين نظروا إلي بنظرات مستحقرة. غطيت في النوم.

استيقظت على يد تهز كتفي، كانت يده. التقت عيني بعينه مجددا ولملمت نفسي. كان مبتسماً. أمي التي قلقت عندما أخبرتها أني لن أذهب إلى المدرسة رجت منه أن يأتي ليكلمني. تحدث لي عن طفولته وعن سرقته الكثير من الحلويات من البقال، بل حدثني عن مرة سرق فيها أوزة جارهم. كان يضحك أثناء سردها عليّ ويحاول إقناعي أن كل تجربة سيئة تتحول إلى ذكريات مضحكة. لم يكن في نظراته أو جلسته أو ضحكته أو كلماته أي شيء يشعرني بالخجل. كلما أسهب بالكلام أرتاح أكثر. بعد أن أخبرني بأن مافعلته خطأ وبأنه متأكد بأني لن أكررها مرة أخرى أخبرني أنه ارتكب أعمالاً أشد فداحة في طفولته. حال معلمي سداً أمام هذا الخطأ ومنعه من أن يمتص كل طاقتي وأملي في الحياة ونشوتي ويقطع يداي وقدماي وأن يفرج الباب لأخطاء أكبر وأفدح وأقنعني أن أذهب إلى المدرسة. قال بأنه سينتظرني غداً عند باب المدرسة وبأنني إذا لم آت سيأتي إلى البيت ويجرني

بابنا أو يرن هاتفنا يرزح على صدري وزر ثقيل ويأخذ قلبي بالخفقان بشدة. كان المتصل في العادة إما محامياً أو دائنًا يتحدث بنبرة متغطرسة وحادة ومخيفة أو شرطياً. أتذكر أني سررت لانقطاع صوت الهاتف بنفس القدر الذي حزنت به لانقطاع الماء والكهرباء. كنت أدخل المفتاح في قفل البيت بهدوء شديد وأدخل إلى البيت كشبح دون حتى أن أشعل النور حتى لا يكتشف صاحب البيت مجيئي ويباشر بإزعاجي "أين أبوك، متى يأتي. ادفعوا الإيجار وإلا سألقي بكم جميعاً خارجاً."

وجاء الشتاء! لم يكن في البيت غير فُرشٍ أرضية وبطانيات ومدفأة قديمة لا تصلح لشيء لعدم وجود وقود لها. كنت وحتى لا أرى أمي وأخي جالسان وهما ملتحفان بالبطانية في الظلام أقضي معظم وقتي في الخارج، ألقي بنفسي إلى الشارع حتى أبتعد عن بكاء أمي وأتسكع حتى وقت متأخر. في ليلة قررنا أنا وأعز أصدقائي أن نسرق بعض قطع الخشب من خشاب قريب. عند تنفيذنا للخطة وحملي للشوال المليء بالخشب على ظهري كنت لا أفكر في شيء سوى فرحة أمي وأخي عندما يرونه. كان ما سأقوله لأمي هو أننا ساعدنا الخشاب وكانت هذه مكافأته لنا!

قُبض علينا!

بينما كنا نخرج والشوال على ظهرنا رآنا الخشاب. رآنا واستطاع التعرف على صديقي. في اليوم التالي وعندما تم استدعائي من صفي كانت الشرطة تنتظرني في مكتب المدير. كان الخوف والعار والقلق الذي شعرت به وقتها لايمكن التعبير عنه.

عند ذهابي أنا وصديقي إلى قسم الشرطة لم نكن ندري ما سنفعل. أصبحت الآن أشعر بالخذلان والخوف أكثر من العار. قلة الحيلة والذهول. مخابرات الشرطة اللاسلكية تطن في أذني. عندما سألوني كيف فعلت ما فعلت انعقد لساني. لم أستطع أن أتكلم حتى.

فجأة رأيته. انبثق أمل داخلي مع خجل. التقت عيني بعينه أثناء ولوجه إلى الغرفة المقابلة للردهة. كان في نظراته تفهم، فيها "جئت من أجلك" فيها "أنا هنا لأني أهتم لأمرك، لا تقلق، سوف أحل الموضوع، سوف أخلصك" وفيها "لماذا فعلت شيئاً كهذا يابني، ليتك لم تفعل وتوقع نفسك في هذا المأزق"

الجائزة الشرفية 2006/ إسطنبول -1

أمسية أيلول

أنور أيدن*

تتقدم بهدوء ومتانة نحو المستقبل مخلفاً سنين الماضي خلفك. تتأبط الماضي كدفتر ذكريات وتصعد على التلة للاستماع إلى أغنيات النسيم. تفتح الدفتر وتقرأه بشهية بعد مشاهدتك لوطنك والمدينة التي عشت فيها ورفاقك وطلابك بابتسامة. أن تكبر خطوة خطوة وتنتقل من الطفولة إلى الشباب ومن الشباب إلى الرشد؛ بعدها لابد أن تكون أكثر هدوءاً ورشداً وعمقاً.

في إمكان المرء أن ينظر إلى الماضي ويشاهده بشكل أوضح. وحتى تبدو الأحداث أوضح للرؤية عليها أن تتخمر متحولة إلى ذكريات خلال الزمن الماضي بسرعة وأن تنتظر أن يُنظر إليها عبر نوافذ السنوات التالية. أكثر التفاصيل التي لم ننتبه لها تغمز لنا باسمة في اللحظة التي نمد فيها رأسنا لننظر من نوافذ السنين. ألسنا نذهل أحيانا أمام بعض المواقف فلا ندري أنضحك أم نبكي، هذا الشعور الغريب يعتريني كلما جلت بخاطري نحو الذكريات. التبسم في اللحظات التي يهجم فيها الحزن بثقله كالجاثوم...

الآن عندما أعود إلى سنوات خالية وأفكر في معلمي الذي وجه حياتي وأحدث في بالغ التأثير بأخلاقه الأصيلة وتصرفه كمثل يحتذى يغمرني نفس الإحساس الغريب. كنت طالباً في آخر سنة للمرحلة المتوسطة. كانت أعمال أبي قد كسدت وفقد عمله ورزح تحت أثقال من الديون واختفى لمدة طويلة. رُفعت ضده دعوى وخسرنا كل مافي بيتنا. في كل مرة يُطرق

*ولد في صقاريا عام 1976. أتم دراسة المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية فيها. تخرج عام 1998 من جامعة مرمرة بتخصص التربية البدنية. يعمل كمعلم حالياً في ابتدائية كونشلي كمعلم للتربية البدنية.

أمسية أيلول

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

بقي معلمنا معنا، فضّل البقاء معنا على أن يذهب مع عائلته، لم يتركنا، اختار أصعب مجالات التعليم؛ التعليم في قرية... بعد سنين سيخبرنا أنه كان يترجى زوجته: "سنة أخرى فقط، من بعدها نذهب، يجب أن يتعلم هؤلاء الأطفال، بينهم الكثير من الأذكياء، سيكون إجحافاً بحقهم لو تركتهم، لنصبر سنة واحدة فقط." ولكنها لم تطاوعه. بقي معنا، أخذنا إلى الاختبارات المجانية والتي نجح فيها الكثير من طلبته الذين عقد آماله فيهم. قد تكون تلك السنة أول سنة تخرّج فيها قريتنا هذا العدد من الطلاب الناجحين. سالم ابن عائلة مميك السمين منتفخ الوجنتين الأشقر درس مبتعثاً في كندا وأصبح بروفيسوراً في الهندسة الغذائية. وقادر النحيل صاحب الأذن الكبيرة درس الطب في جامعة حاجت تبه وعمل في المجال الأكاديمي حتى أصبح بروفيسوراً. وسمراء أصبحت استشارية في أمراض النساء. وصديقتي أوموش (والتي عرفت في وقت متأخر أن اسمها هو أميهان) درست الماجستير في انجلترا وأصبحت من ضمن أعضاء التدريس في الجامعة. والعديد الآخرين من زملائي الذين لم أذكرهم هنا بلغوا مراتب أخرى جيدة أيضاً. لأن معلمنا عمر منحنا عزيمة التعلم وساعدنا، أمسك بأيدينا وأظهر الجواهر المكنوزة فينا؛ غرس في تربتنا الجافة بيديه اللتين تستحقا التقبيل باحترام العديد من الفسائل.

أما أنا فقد دخلت التخصص الذي أتممته بدرجة متفوقة، ربما كان بإمكاني أن أدرس تخصصات أخرى لكنني رغبت في أن أصبح معلمة. أصبحت معلمة في مدينة كثيرة المطر والأشجار من أجل الرجل الذي جاء مع المطر، معلمي، وحتى أسقي غراساً أخرى بالماء. معلمي عمر وبعد تخرجنا بقي سنة في القرية ثم رحل إلى مكان آخر. توفي قبل مدة على روحه الرحمة ولذكراه الخلود. والسلام على كل المعلمين من أمثاله.

المعلم: "في هذا الصف أطفال سيصلون مراتب عليا، كلكم اذكياء، كلكم سأراكم في مراتب جيدة." كانت كلماته هذه تحفزنا فنجدّ ونجتهد أكثر.

في السنة التالية انتظرنا معلمنا بنفس الأمل والحماس. وكما وعدنا جاء يوماً مع المطر. وبجانبه زوجته وطفل رضيع. أصبح له طفلٌ صغير اسمه جيحون. أحببناه هو أيضاً. في أواسط السنة ازدادت تعاسة واضطراب معلمنا كثيراً. حتى وجود طفله لم يعد يسليه. في يوم انتشرت إشاعة صدور أصوات شجار من سكن المعلم. في الحقيقة كنا نحن الأطفال نشعر عند ملاحظة شرود معلمنا بأن شيء ما ليست على مايرام. ولكننا كنا نهرب من القول لبعضنا بعضاً أن معلمنا الجديد تعيس وأنه سيذهب. بعد سنوات طويلة وعندما التقيت مع زملائي اعترفنا بذلك.

في يوم جاءت شاحنة إلى مقابل مسكن المعلم، وحملت في هدوء قسماً من الأثاث والأمتعة. لم أساعد هذه المرة في حمل شيء. جلست في مكان أتفرج في صمت ويدي على ذقني. في داخلي رغبة بالبكاء تتعاظم ولكن لم تكن بي طاقة للبكاء حتى، قلبي الصغير انكسر، تألمت. كل ثقتي اهتزت وانطفأت بهجتي، أبتلع ريقي باستمرار. كنت أظن أن معلمي سيذهب ولكن الذاهب كان زوجته وابنه. بعد أن رحلت الشاحنة تفرق الجميع. كان الظلام على وشك الحلول. لم يعد المطر يسعد أحداً منا الآن. بينما كنت عائدة باتجاه المنزل حتى لا تغضب جدتي استدرت فجأة، كنت أستطيع الإحساس بمقدار حزنه. كنت سأدعوه ليأتي إلينا "تعال إلينا، جدتي حضرت لك شوربة الزبادي التي تحبها." في الحقيقة لم أكن أعرف ماذا حضرت جدتي، إن لم تكن قد حضرت شوربة الزبادي فسأقول أني ظننت أنها فعلت، اقتربت من منزله وأنا أفكر بما سأقوله. لم أجرؤ أن أطرق الباب، فتجولت حول البيت، فكرت بأن أناديه من النافذة، دنوت من النافذة وعندها رأيت مشهداً لن أنساه ماحييت. كان معلمي عمر يجلس على كرسي في غرفة نصف فارغة يبكي. تجمدت مكاني. لأول مرة أرى معلماً يبكي. معلمي الناجح في كل شيء، الذي علمنا حب الحياة، وجعلنا ننشد الأناشيد ولعب معنا الكرة وحفظنا الأشعار، الذي ضحك معنا وأضحكنا، يبكي. هنالك سقطت أسفل النافذة وبكيت. وبكيت وبكيت... حفظت ذلك السر في قلبي الصغير لسنوات ولم أبح به لأحد.

أصبحنا كلنا منتظمين في المدرسة لكني لم أكن أستطيع أن أطرد السؤال الذي يراودني: "هل سيرحل يوماً؟" لأننا ولثلاث سنوات درسنا بشكل متقطع وغير جيد، فالمعلمون لايبقون هنا طويلاً في العادة. كان معلمنا عمر يذهب نهايات الأسبوع أحياناً ولكنا كنا نعرف أنه سيعود مساء يوم الأحد، ننتظر عودته بأمل مشوب بالخوف.

في صباح أحد الأيام حدث شيء لم نتوقعه، نزلت من الباص مع معلمنا عمر امرأة. امرأة شابة سمراء ورقيقة شعرها مجعد. وفي اليوم التالي جاءت شاحنة محملة ببعض الأمتعة والأثاث. كانت تلك المرأة الجميلة زوجته. امرأة تتأمل كل شيء من مسافة وعلى شفاهها ابتسامة باردة، لا تتكلم كثيراً. المؤسف أن تغيّر معلمنا عمر علينا كان ملاحظاً بعد مجيء زوجته. فلم يعد كما كان في السابق؛ انطفأ البريق الذي كان في عينيه، أصبح سارحاً شارداً، بل وأحياناً عصبياً. لايصرخ أو يرفع صوته علينا أبداً ولكن يؤثر علينا بنظراته، عندها ندرك أنه غضب ونضبط أنفسنا. أخذت أحواله هذه في التكرار أكثر فأكثر. كنت بعقلي الصغير أحسّ أن معلمي لم يكن سعيداً. أشعر بالحزن كثيراً وأحنق على تلك المرأة، كيف لها أن تحزن رجلاً مثله، كيف تجرؤ، عقلي لا يستوعب.

عرفت سبب تعاسته من المحادثات الدائرة بين جدي وجدتي. نحن الأطفال نبدو وكأننا لا ننصت ولكننا ننصت لكل شيء ونحلله في عقولنا. لم تكن زوجة المعلم سعيدة في هذه القرية، تريد الذهاب، وهذا مايعكر مزاج المعلم. هذا ما كانت تقوله جدتي لجدي. كان لهذه الكلمات أثر الصاعقة عليّ، فمعلمي سيذهب بدوره أيضاً ويتركنا. حتى الآن وفي كل مرة يرحل فيها أحد أحبتي إلى مكان بعيد أشعر بنفس الوجع الذي حل بي يومها. كان وجعاً مختلفاً، وجعاً لا يهدأ يسببه اليأس وقلة الحيلة... لا تستطيع فعل شيء، فتتفرج فقط، ليس بيدك شيء، تدعو الله فقط ألا يذهب...

أنهينا تلك السنة رغم كل شيء. علمتني تلك السنة الكثير، بل علمت كل الأطفال. علمتنا كيف يمكن لإنسانٍ أن يكون متعلقاً بعمله ويؤديه بحب وإخلاص، وأن لكل مشكلة حلاً، وعلمتنا حب الإنسان؛ علمتنا كيف نتعلق بإنسان دون انتظار مصلحة ما. كلنا اجتزنا إلى الصف التالي. في يوم قال لنا

في كل مرة أذهب إلى فناء المدرسة على أمل أن أكون أول الواصلين وأجد السمين ابن المميك منتفخ الوجنتين الأشقر، وقادر نحيل الجسم وصاحب الأذن الكبيرة وابنة خالي صفية الشقراء يتعكر مزاجي فأنسحب إلى زاوية أنتظر فيها مجيء معلمي ليفتح باب المدرسة. رويداً فرويداً أخذ كل أطفال القرية يتجمعون في فناء المدرسة. قريتنا تولي أهمية للتعليم وترغب بتعليم أبنائها ولكنها في نفس الوقت قرية فقيرة أبناؤها لايستطيعون دراسة أكثر من المرحلة الابتدائية بسبب قلة الامكانات.

بعد مدة جاء المعلم عمر مبتسماً وبيده مفتاح المدرسة. منّا من حاول أن يتوارى من خجله ومنّا من تجمع حوله حتى يراه قبل الآخرين. جعلنا نصطف في طابور على حسب أطوالنا. كان هنالك ما يزعجني وهو أن بعض الأطفال حضروا دون زيّ مدرسي. لم أكن أستوعب معنى الفقر بعقلي الصغير وقتها. منهم من لم يكن لديه المال ليشتريه. كنت أعتقد أن على كل طفل أن يكون له زيّ مثله. لم يكن المعلم عمر يغضب على من ليس لديهم منه، لكني كنت أغضب منه. بعد بدء الدراسة بفترة قصيرة أصبح لكل منا زيّ مدرسي أسود وياقة بيضاء. كيف؟ كان المعلم عمر يذهب إلى خياط في المدينة ليجعله يخيط للأطفال الفقراء أزياء للمدرسة بسعر مخفض. واشترى لنا جميعنا كتباً مخفضة مستعملة. وأخذنا أقلامنا من دكان الخال إسماعيل. دفاترنا أحضرها معلمنا عمر من المدينة. لا أعرف كيف فعل ذلك، لكنه لو أراد أن يحضر لنا الدنيا بأكملها لفعل، ألم يحضر معه المطر سابقاً؟

وبدأنا في تلقي الدروس. نستذكرها بكل مثابرة واهتمام. كلنا كنا في الصف. نعمل ما بوسعنا حتى نسمع كلمات المعلم المشجعة "ممتاز! هذا هو الطالب المثالي" كنت طفلة أحب الدراسة كثيراً. كان يعطيني أنواعاً من القصص المختلفة. في المرحلة الابتدائية كنت قد قرأت معظم الكلاسيكيات العالمية؛ البؤساء، حلوى البرتقال، عمر سيف الدين، سعيد فائق،...

كل شيء كان جميلاً، ارتبطنا برابطة وثيقة مليئة بالحب مع معلمنا عمر. كان في الفصل مدفأة وكان كل منّا يحضر حطباً من بيته وهو قادم. وكان المعلم يجمع المال من القرويين ويزيد فوقه ثم يسلمه للعم حمدي الذي كان عامل المدرسة الذي يشعل المدفأة.

أبيه كما يدعي... لم أكن أصدقه، فقد وعدني معلمي أنه سيأتي. في ليلة وبينما كنت أحاول النوم بصعوبة في فراشي سألت جدتي جدّي عن المعلم فكتمت أنفاسي حتى أسمع ما سيقوله. لأنني كنت أكثر من الأسئلة مثل: "لماذا لا يأتي معلمي أو متى سيأتي" حتى ضجروا مني فأصبحوا يوبخونني ويسكتونني. أجاب جدي: "لاتوجد حياة اجتماعية هنا لذلك فالحياة مملة لهم، ليس من السهل أن يعيشوا في قرية فقد اعتادوا على حياة المدن." عندها فكّرت في معنى الحياة الاجتماعية. هنالك مادة في الصف الرابع اسمها علوم اجتماعية، هل لها علاقة بها ياترى؟ ما هذه الحياة الاجتماعية التي دونها يشعر الناس بالملل؟ قررت أن أحتفظ بالسؤال لحين مجيء معلمي حتى أسأله عنه. معنى هذا أنه لم يكن هناك غيري ممن يؤمن يقدوم المعلم القريب. كان ذلك يقهرني أكثر.

وفي صباح نزل المعلم من الباص، هذه المرة كانت يداه ملأى بالأغراض؛ العديد من الحقائب والعلب والأكياس. كلنا، أطفال كل القرية كنا نركض فرحاً، حتى زكي ابن عائلة بدركان يركض وهو يمسك ببنطاله الذي لم يسبق أن استقر على خصره أبداً. كنت أول من بدأ بالركض، هذه المرة كنت مستعدة، فقد ارتديت أحذيتي المطاطية. جميعنا كنا نركض مسرعين نحو المدرسة وفي أيدينا أكياس وحقائب وصناديق. وكلمات الخال إسماعيل المشجعة كانت تثير حماسنا أكثر. ننقل مابأيدينا إلى المدرسة ونحن مبتلّون بالعرق. يومها تعلمت أن بإمكاني أن أثق بوعد إنسان؛ تعلمت الثقة والإيمان، كان ذلك أول ماعلمني إياه معلّمي عمر. هنالك شيء آخر فاجأني يومها، فقد جاء شيء آخر كنا ننتظره؛ المطر... المطر الذي كنا ننتظره لأشهر... استمر في الهطول طوال اليوم، فانطفأ شوق الأرض للمطر وشوقنا للمعلم.

وضع المعلم عمر الأشياء التي أحضرها في أماكنها ودعانا إلى الحضور في اليوم التالي. استعددنا للمدرسة في فرح وسرور. كان شعري طويلاً جداً، تؤلمني جدتي عندما تمشطه، فمشطها دقيق وأطرافه مدببة حتى ينظف جذور شعري فتتساقط القملات والبراغيث. الآن في كل مرة أتألم وأنا أمشط شعري أتذكر تمشيط جدتي لشعري في كل صباح قبل المدرسة.

أقترب كثيراً خشية أن يقولوا أني أزعجهم، لكني أحضرت الكثير من الماء.

في كل يوم كانت عائلة تحضر الطعام للمعلم ولكني كنت أتمنى لو يأكل كل يوم عندنا أو نكون نحن من يجهز طعامه. لأني كنت أفكر في أن سبب ذهاب المعلمين السابقين قد يكون عدم إعجابهم بالطعام أو عجزهم عن تحضيره بأنفسهم. كنت ألبس جدتي حذاءها وأقطب جبيني كل يوم مصرةً على أن نذهب إليه بطعام.

مرة وبينما كنا ننتظر بحماس العودة إلى الدراسة بعد أن تنتهي الاستعدادات رأيت المعلم وهو ينتظر الباص في ميدان القرية أمام القهوة. شعرت بالدنيا تنهار على رأسي. هاهو يرحل بلباسه الذي جاء به وحقيبته السوداء في يده. داهمت الدموع عيني وشعرت بثقل رهيب على صدري. اقتربت منه لكن ليس كثيراً، لم تكن لدي الجرأة لأسأل حتى، لكنه رآني فدعاني إلى جانبه. اقتربت منه وأنا خجلة دون أن أنظر إلى وجهه، لأني لو نظرت فقد أبكي، سألته :"معلمي هل أنت راحل؟" فأجابني :"نعم، ولكني سأعود، هنالك بعض الأشياء التي علي أن أشتريها للمدرسة من المدينة، كما علي أن أحضر أغراضي" عندها استطعت أن أنظر إلى وجهه. بعد سنوات أخبرني معلمي أن أحد الأسباب التي ربطته بهذه القرية هي نظراتي المستعطفة والمليئة بالحب أمام القهوة ذلك اليوم.

لم أكن أحب سالم ابن عائلة مميك السمين منتفخ الوجنتين الأشقر، لم أكن أحبه لأنه دائماً مايسخر ويستخف بالفتيات ويفسد علينا لعبنا. لكن أدركت في تلك الأيام أنه يحب المعلم عمر وينتظره بشوق قدر انتظاري له. فبينما كنت أنتظر أنا عودة المعلم عمر من المدينة كان هو ودون أن يُشعر أحداً ينتظر كذلك. كنّا أنا وأعزّ صديقاتي أوموش ونسرين وسمراء ننتظر عند رأس الطريق قدوم الباص الذي يحمل معلّمي. لم يكن مفهوم الزمن قد تطور عندنا كأطفال، لذا لا أعرف قدر المدة التي تأخر فيها عن المجيء، لكنه كان وقتاً طويلاً بالنسبة لنا. حتى إنني عندما كان يأتي الباص ولاينزل منه المعلم أتكدر وأشعر باليأس. لكنني لا أنسى قوله "سأعود" وهو ذاهب. قادر ذو الجسم النحيل والأذن الكبيرة كان يقول: "لن يأتي معلم إلى هذه القرية، سوف نذهب إلى مدرسة في قرية أخرى." ناقلاً هذه الكلمات من

ومسحه على رأسي قائلاً: "لا، أنا المعلم الجديد" عاش جميع الأطفال صدمة لحظية. حينها نسوا أن يسخروا من توقّعي ورغبوا في أن يركضوا إلى بيوتهم حتى يبشّروا بالخبر الجديد بمن فيهم أنا... كان الخال إسماعيل وجدي وبعض القرويين قد جاءوا لرؤية المعلم الجديد.

بقي علينا نحن الأطفال أن نركض حتى نبشر بالخبر الجديد. كنت يومها قد ارتديت صندلي مع أني أرتدي أحذيتي المطاطية في العادة، شعرت بالحنق لأني لن أستطيع أن أركض وأسبق سالم السمين الأشقر. وضعت الصندل في يدي وركضت بأقصى طاقتي نحو المنزل وأنا أصرخ "جدتي، جهّزي زي المدرسة، جاء معلمنا!!!!!" هرعت جدتي خارجة نحوي وهي تمسح يديها في ملابسها تظن أن مكروهاً أصابني.

يومها كنت وجميع الأطفال نعيش فرحةً فريدة. لم تكن الفرحة تسعني. أردت أن يحل الغد بسرعة حتى أذهب إلى المدرسة، فهذه السنة سوف أكون في الصف الثالث. كنت بالنسبة لي ولجدتي أكثر طلاب المدرسة مثابرة. أريد أن أستمر في ذلك. لكننا لم نستطع الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي لأن المدرسة كانت تحتاج إلى إصلاحات والمعلم كان يحتاج إلى أن يستقر في مسكنه. ليست مشكلة، أنا راضية بذلك، المهم ألا يذهب معلمنا، أستطيع الانتظار لعدة أيام. كان زي المدرسة قد أخرج وغسل ونظف والآن ينتظرني حتى نذهب سوياً إلى المدرسة.

جدي كان ينادي المعلم بالمعلم عمر بيك، نحن بدورنا كنا قد أحببنا المعلم وتمسكنا به، فهو معلمنا نحن، الرجل الوسيم الباسم صاحب النظرات المليئة بالحب، الحنون الشجاع. حبّب نفسه إلى القرويين في فترة قصيرة. كان يذهب معهم إلى المسجد ويتبادل الحديث ويمازحهم. عمل على إصلاحات المدرسة بكل جد، طلاها ودهنها وجهزها، أخرج الطاولات وجعل القرويين يصلحونها. ونحن بدورنا كنا كالطيور نلعب حول المدرسة ونتنافس بيننا حتى نتقرب منه أكثر. لكن كان يعترينا خوف نخاف من أن نخبر به أحداً أو حتى أن نعترف به لأنفسنا، وهو أن المعلم سيرحل يوماً ما كما رحل غيره... عدة قرويات نظفن المسكن، وأنا ساعدتهن، أحضرت لهن ماء وخرقاً نظيفة. في الحقيقة كنت أريد أن أساعد وأشارك أكثر ولكني لم

كان يمر بهذا الميدان باص صغير كل عدة أيام. وكل باص يأتي كان يجلب معه أخباراً جديدة ورجالاً جديدين وأحداثا جديدة. كنا نرى مجيئه من مسافة بعيدة. نركض نحوه بأقصى ما فينا من طاقة والكلاب تتقدمنا، أخيراً كان أحدنا أو بعضنا يجد مايفرحه يخرج من الباص. يأتي أبو أحدهم أو قريبه. لكن في هذه المرة أحضر لنا الباص رجلاً نحيلاً ضعيف الوجه متوسط الطول وشعره أسود كثيف وعيناه بنيتان واسعتان. في يده حقيبة سوداء. تجعد بنطاله البني من الرحلة وابتل ظهر قميصه قصير الأكمام من العرق. كان رجلاً بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمره. عندما ترجّل من الباص رفع شعره الأسود الكث إلى الخلف بيده اليسرى، عندها حدث شيء فاجأني؛ كانت يداه بيضاء وأصابعه طويلة ومتسقة. لأول مرة أرى يدًا جميلة على رجل. فيدُ جدي غليظة وأصابعه ممتلئة وخشنة. ليس يدُ جدي فقط بل أيدي كل رجال القرية كانت كذلك، وأنا كنت أعتقد أن أيدي كل الرجال كذلك. خطر على بالي معلم السنة الماضية وفكرت فيما إذا كانت يده كذلك أيضاً. لكني لا أذكر وجهه حتى عوضاً عن يده فهو لم يبق لدينا مدة طويلة. نظر القادم الجديد إلى وجوهنا واحداً تلو الآخر. مسح على رؤوسنا بنظراته. كنّا بين عشرة وخمسة عشر طفلاً، كنا ننظر إليه بفضول وحياء.

فكرت: "هل هذا المعلم الجديد ياترى؟" ولكنني لم أخبر أحداً. اكتشفت لاحقاً أن الجميع فكر بأن هذا القادم هو المعلم الجديد لكن لم ينطق أحد خوفاً من أن يُسخر منه إذا كان مخطئاً. لذلك رجحت أنا أقوى الاحتمالات وهمست في أذن صديقتي المقربة أوموش أن "المطهر الجديد جاء" وهي بدورها نظرت إليّ بعين تشي بأنها لم تفهم وقالت "كنت أعرف". حيّانا القادم الجديد "مرحباً يا أطفال" ولكن لم يصدر منا صوت. في الحقيقة كلنا بادلناه التحية في دواخلنا ولكننا لم ننطق بها. كنا خجلين. فجأة نطق ابن عائلة المميك سالم السمين منتفخ الوجنتين: "مرحبا،" عندها دافعت الأطفال متقدمة إلى الأمام ثم قلت: "مرحبا، هل أنت المطهر الجديد؟" عمّ الصمت المكان، الجميع ينتظر الإجابة بفضول. زفر زكي ابن عائلة بدر زفرة حزينة، لأن الجواب القادم كان يهمه أكثر من غيره. بمجرد تقدم المعلم

المدرسة قد بنيت على أرض للحاج قاسم أو لأنه لم يأخذ حقه من الدولة، شيءٌ من هذا القبيل، فأصبح يهدد قائلاً: "هذه المدرسة تعتبر ملكي، من حقي تفجيرها بالديناميت إن أردت" جاعلاً مختار القرية، الخال إسماعيل يخرج عن طوره. وأرعبنا نحن الأطفال أيضاً. حتى حفيده النحيل ذو الأذن الكبيرة كان يمشي في المدرسة مختالاً وهو يقول: "هذه المدرسة لنا" لماذا إذًا كان مكتوباً على باب المدرسة ابتدائية "وزارة تعليم الجمهورية التركية"؟ في ذلك الوقت لم أستطع حل هذا اللغز كما لم أستطع فهم سبب كون قريتنا نادرة الأشجار. كان بجانب المدرسة مباشرة مسكن للمعلم. من المفترض للمعلم القادم أن يقيم فيه لكن لم يسبق لمعلم أن بقي فيه من قبل. فالمعلم الذي جاءنا السنة الماضية مثلاً كان يبقى لعشرة أيام ثم يذهب، ثم يأتي ليبقى شهراً ويذهب من جديد، ثم يعود ليبقى مدة بسيطة ثم يختفي مجدداً لشهرين. ولاختفائه المتكرر لم يجد زماناً ليبقى في المسكن. حتى إنه ذهب دون أن ينتظر نهاية السنة ويسلمنا شهاداتنا. استلمناها من موظف لوزارة التعليم جاء لاحقاً. خلاصة الأمر أن هذا المسكن كان على شفى أن يصبح مهجوراً خرباً بسبب قلة الاستخدام. نحن الأطفال كنا قد قطعنا أملنا من قدوم معلم جديد، نلعب في الشمس الحارقة غير منتظرين لقدوم أحد. والخال قاسم كان يستخدم المدرسة والمسكن كمستودع لأغراضه.

مهما كنا نحن كأطفال نبدو وكأننا لا نأبه بالعودة للدراسة من جديد إلا أننا كنا في الحقيقة ننتظرها بفارغ الصبر. كان في التقويم الذي اشتراه جدي من المدينة صورة لمدرسة، كنت أنظر إليها خفية أحيانًا؛ طلاب مصطفون أمام المدرسة، طفل آخر يلقي شعراً، ومعلمون... مدرسة جميلة، كل شيء في الصورة كان يبدو في غاية الجمال بالنسبة لي. لكني كنت أعرف أني لم أكن من أولئك الطلبة.

في صباح مثل كل الصباحات المعتادة تجمعت الغيوم وتلبدت مذكرة إيّانا بالمطر ولكنها لم تلبث أن انقشعت وظهرت الشمس بكل هيبتها وشعاعها. في ميدان القرية كان دكان للمختار إسماعيل يبيع فيه كل شيء وقهوة يتجمع فيها رجال القرية في المساء، وعلى مسافة قريبة من القهوة كان مسجد القرية، أما مدرسة القرية فقد كانت في منطقة مرتفعة تعتبر خارج الميدان.

الجائزة الشرفية 2006 / طرابزون

الرجل القادم مع المطر

نباهت أيوب أوغلو*

كان آخر أسابيع شهر أغسطس. لم تنزل قطرة مطر واحدة تبرد جباهنا ولم تهب نسمة هواء تنعش صدورنا. وكل مايخرج من الأرض، كالأعشاب والأعواد والحشرات المختلفة رفعت رأسها في البداية نحو السماء، وعند عدم قدوم ما كانت تنتظره أطرقت وكأنها تلوذ إلى التربة. كنت في ذلك الوقت أعتقد أن الأشجار في كل الدنيا قليلة وأن كل الناس يعيشون في مناطق أرضها يابسةٍ متشققة وبرارٍ متعطشةٍ للماء، لم أكتشف خطأ اعتقادي هذا إلا بعد سنوات. وكالكثير من الأشياء التي تعلمتها وأدركتها لاحقاً... أدركت أننا نحن، الأطفال المترعرعون في الأراضي الجدباء، بأقدامنا الحافية وشعورنا الشعثاء ووجوهنا وأيادينا المعفرة المتسخة ووجناتنا المتشققة من الشمس، أدركت أننا كنا نعيش أحراراً وبعيدين عمّا يدور في العالم إلى أبعد حد.

رغم بقاء القليل على بدء الدراسة إلا أنه لم يكن ثمة ذاهب أو قادم إلى قريتنا. واجهة المدرسة التي تم تليسها لمرات عديدة لم تستطع مقاومة الظروف الخارجية فراحت تتساقط من الحرارة والبرد.

النوافذ المتسخة والصدئة تذكر بخرابة مهجورة. كان لمدرستنا تلك حكاية غريبة، كنت حين إنشائها طفلةً لا أدرك مايدور حولي. توترت الأوضاع لكون

*ولدت عام 1966 في مدينة قيرشهير. أتمت تعليمها الابتدائي في قرية قيزيلجاكوي التابعة لقيرشهير. درست المتوسطة والثانوية كطالبة داخلية في مدينة إزمير. تخرجت في ثانوية قيرشهير. درست اللغة التركية وآدابها في جامعة أتاتورك عام 1989. بدأت مزاولة التدريس بأنقرة عام 1994. عملت لسنتين في ثانوية أرتفين. والآن تعمل كمدرسة للغة التركية وأدبها في ثانوية طرابزون. متزوجة وأم لطفلين.

الرجل القادم مع المطر

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

أطفالي الذين تعرضت أحلامهم للتحطيم ونُفوا إلى اليأس والإحباط... نصبي التذكارية الفاضلة التي لا يجد الحقد ولا السوء إلى قلوبها سبيلاً... الذين كلما نفوا إلى أرض بوارعادوا وبأيديهم باقاتٍ من الورد. بعد كل نهار هناك ليل يترقب. تكتسح الظلمة كل شيء فجأة. لا يتوقع أحدٌ أن القمر سيخرج معانداً لظلام الليل بابتسامته ومحولاً المخاوف إلى آمال. رغم كل شيء إلا أن الكثير منهم مازال مداوماً على الدراسة في الجامعة. ومن لديه قدرة مادية منهم يدرس في الخارج. وقسم منهم يكمل تعليمه العالي رغم عدم وجود معاهد تليق به. منهم من أنهى الجامعة ومنهم من هو في التجنيد الإجباري. لن يجعلوا غيرهم يعيشون ماعاشوه هم من معاناة. لأن أفضل من يقدّر الرحمة هو أكثر من حُرم منها.

مر على مروري الأول من نفق جلدي قيصيك أربع عشرة سنة بالتمام. أضحت هذه المدينة ذات الرائحة المعدنية والقابعة في ظل جبل قاندمير بعد انطباعي الأول عنها لا أقل من جنة أزهار. من يعلم كم من قافلة حطت ثم رحلت من هذه المدينة. إني متأكد أن كل قلبٍ مرّ من هنا علقت به زهرة.

الذهاب إليها. أفكر في العام الماضي وكيف كنت أذهب إليها ركضاً. أضحت الفصول والردهات والحديقة فارغة. لم يعد بالحديقة لا لاعبي كرة ولامعلمين يثرون الحوارات. وكأنك كنت أنت من يجمعهم. لم يعد أي من المعلمين يخرج ويجلس حول حوض الماء. إنا نذكرك دائماً عندما نتمشى مع الأصدقاء تحت أشجار الصنوبر. تهربنا من الدروس ومبادلتنا الحديث معكم.... كل ذلك بقي في الماضي. كم أنا مستعدة أن أعطي كل ما أملك مقابل أن أعود إلى السنة الماضية ولو لمدة قليلة. لكن لا إمكانية ولو بسيطة لحدوث ذلك. شعرت في أول أسبوع للدراسة بأني غريبة عن المكان وكأني أجيء إليه لأول مرة. فليس لدي معلم أستطيع أن أذهب إليه و أحادثه. بل إني في ظرف هذا الزمان القصير كرهت هذه المدرسة التي التحقت بها معاكسة لرغبة أهلي ومحيطي. المرء يعتاد مع الوقت على كل شيء بالطبع. لقد قلت في آخر يوم للمدرسة "ستعتادين" نعم نعتاد ولكن أي اعتياد هذا؟ من يدري كم من الدموع انهمرت حينها من عيون زهرة البنفسج (بتعبيرك).

لم أعد أرى أي شيء منطقياً. بقيت وحدي وجهًا لوجه مع حياة مملة روتينية. ولم أعد أجد حتى وسيلة صغيرة لإيناس نفسي. الجميع في الفصل هكذا في الحقيقة. في أول يوم للدراسة كانت الأماكن الشاغرة في الصف تحدق فينا ونحدق فيها. وكأن الذاهبين مازالوا يجلسون عليها مبتسمين. لكننا مع مرور الأيام أدركنا الحقيقة المرة.

فالذاهب لايعود، و لايستطيع العودة (مثلك). أكثر ما أشفق عليهم هم ثلاثة أولادٍ في صفنا. يشعرون بالملل أكثر منّا، وحتى عندما يشتهون لعب الكرة لا يستطيعون لقلة عددهم.

ربما كان في كل ذلك خيرٌ للجميع. فنحن وعندما لم نجد شيئاً ننشغل به منحنا وقتنا للمذاكرة. أتمنى أن نحصد ثمرة جهودنا في المستقبل ويدخل كل منّا الجامعة التي يتمناها. ليس لدي أمنية أخرى حالياً، هذا ما أتمنى أن يحققه الله لي.

لايمكن أن تنقضي فسحةٌ دون أن نتحدث فيها عنك. نتمنى أن تظهر فجأة أمامنا يومًا ما. ونرجو ألا يكون هذا اليوم بعيداً.

نسرين

كثيراً. وجدتها بين دفات كتابي فأردت أن أرسل إليك نفَسَاً من قارابوك. قد تكون جافة ولكنها قد تعيد لك ذكريات حية.

أخيراً أحب أن أبلغك كثير السلام من أمي وإخوتي. أرجو منك بدورك أن تبلغ ديلارا سلامي وتحياتي. قد لا تتذكرني بالاسم ولكن لو ذكرتها برحلاتنا إلى بحيرة أبانت ونومها في حضني و محادثاتنا سوية سوف تتذكر.

سأذكركم بالخير دائماً.

ليكن الله في عونكم. طالبتك المحبة.

فاطمة شانكول

1999.10.03

من قلب يائس وحزين, مع كل المحبة...

لم أكن أرغب بالبدء بجملة كهذه. لكن ليس ثمة فائدة من إنكار الحقيقة. وما من بصيص نور يعيد إليّ أملي وبهجتي. لقد تناقص عددنا بسبب العوائق التي وضعوها في طريقنا, وسيستمر في التناقص. عدد الطلبة في الصف هبط إلى النصف. لقد فوجئت عندما سمعت بصدور قرار تعيينك في مكان آخر. كنت أنتظر مترقبة، لكن قرار تنفيذ النقل كان وقعه أسوأ. كنت أدعو في صلواتي الخمس يوميا كي لا يصدر قرار نقلك لكن بلا فائدة... لعله خير. متأكد أنك كنت ستحزن بدورك لو رأيت حالنا. لقد أطفأوا سعادتنا بفصلنا عن زملائنا.

لا نعرف ماذا سيحصل لمستقبلنا. أشعر كأني في انتظار بائس. في كل مرة وأنا في طريقي إلى المدرسة يفسد مزاجي وأنا أسأل نفسي "هل ينتظرني حدث ما اليوم يا ترى؟ هل سأستطيع دخول المدرسة بملابسي التي اعتدت عليها؟" لم تعد بي رغبة في مذاكرة دروسي حتى. ولا أعرف إلام سيستحيل مصيري... فكيف لي أن أذاكر؟

تمنيت لو لم أتطرق إلى مواضيع سيئة كناقل الأخبار المشؤومة لكني أعجز عن إيجاد موضوع جيد. المدرسة هذا العام مملة جداً لدرجة أني أستصعب

قبل قليل كنت أقلب في دفتر مذكراتي. ألقيت نظرة على كتاباتك وكتابات زملائك. ملأت عيني الدموع، ملأتها وطفحت. صورتكم ماثلةٌ أمامنا. صورة المحبوب الذي كان لنا معلمًا وأخاً أكبر وأباً وقائداً... تنهمر عدة دمعات من عيني مجدداً. وأتذكر هذه الكلمات: "الشوق شيء جميلٌ لو أن في قدرنا لقاء..."

أود أن أذكّرك معلمي إلى أني مازلت أنتظرك لشرب الشاي، لم أنس وعدك لي. لكني لا ألومك لأني أعرف أنه لو كان باستطاعتك لجئت.

أخبرني عن المكان الذي أنت فيه. هل استطعت تكوين صداقات هنالك أيضاً؟ ألديك طلبة يثيرون استياءك مثلنا؟ نحن لم ننسك يامعلمي، نتمنى أنك لم تنسنا أيضاً.

عندي لك خبر لا يسر؛ أخي إسماعيل لم ينجح في اختبار القبول الجامعي. لعل في ذلك خيراً له. الآن هو وأخي عاكف يستعدان للاختبار مع أنه من الصعب لهم أن يدرسوا في هذه الدولة... فحتى لو ذاكرت ونجحت فمن الصعب أن تحصل على عمل. نحن نرى مايحصل؛ تحرز 99 إجابة صحيحة من 100 سؤال لكن هذا لا يكفيك للقبول. وحتى لو قبلت ودرست فسوف يرفضون توظيفك لحجج واهية كثيرة. ليس بأيدينا إلا الصبر. ربما كما يقول الشاعر محمد عاكف؛

أليس لهذه الليلة المشؤومة صباح يارب؟

أم أن يوم المحشر فقط هو نهاية الكرب

قد يكون خلاصنا في المحشر فقط. لكني رغم ذلك مازلت أؤمن بانبثاق الصبح بعد الليل المظلم وأنتظره مع أن صبري بدأ ينفذ.

لدي مخاوفي بما يخص المستقبل. هل سأتمكن من الدراسة بحجابي؟ هل سأحصد نتيجة جهودي؟ في مقابل الأحداث الحالية عزيمتي تتلاشى.

غداً ذكرى ليلة المعراج. الليلة التي دعا فيها الله نبيه إليه وواساه في أكثر سنوات حياته كدراً وحزناً. نحن أيضاً ننتظر المواساة. ليلة معراج مباركة يامعلمي. لعلها تكون وسيلة خير لنا ولكم ولجميع الناس.

وضعت لك يامعلمي وسط الظرف ورقتي شجر جافتين. كانتا قد راقتا لي

آخر في ظلال أشجار الحور الباردة، بجانبه التراحيب.

نجلس لنستريح في الأسواق. وتكبر هنا الحكاية التي سوف يكتبها صديقنا علي: "آخر تلاميذ السوق"*

في نهايات الأسبوع بالذات لم نكن نستطيع تجاهل نداء أماكن التنزه القريبة. فمرة نذهب إلى كيتشات أوران الواقعة بالقرب من اسكيبازار، ومرة إلى منطقة اشكدوزو الواقعة على طريق قصطامونو. وكورليلك وأعماق الغابات البكر الواقعة في طريق أواجيك هي أيضاً من ضمن الأماكن التي نزورها. نشارك بعضنا الأفراح والأتراح، نحزن ونشتاق لبعضنا بعضاً.

عام 2005 كان عامي السادس عشر في مجال التعليم والسادس في مدينة كيريك قلعة. أصبح عندي أبناء. من بين أبنائي الثلاثة كان الأكبر يدخل الصف الثامن. على وجهي تعب السنين وفي قلبي حدائق من ورود الذكريات....

على منضدتي كومة من الرسائل، الكثير منها مؤرخ بين عامي 1990 و 2000. كلها رسائل طلبتي الذين تركتهم في قارابوك... أطفالٌ سحقت أحلامهم وتم سوقهم مبكراً لصعود طريقٍ مرتفع وعر. لكونهم خريجي ثانوية الأئمة والخطباء فإن السد الذي كان يقف أمامهم كان يشكل نهاية لأحلامهم ذات عبير الورود. كنت حزيناً لطلبي الانتقال وتركي لهم في الزمن العصيب الذي كانوا فيه. بعدها أصبحنا نلجأ إلى القلم والورق لنتراسل. رسائل تساقطت عليها الدموع... ورسائل امتصت آهات المظلومين...

1990.11.04

إلى معلمي القدير:

أنا فاطمة من قارابوك. كنت ومنذ فترة طويلة أرغب في الكتابة إليك ولكن يبدو أنه كان مقدراً لي أن أكتب اليوم. المكان هنا كما تركته... لكن هناك فارقاً واحداً عما كان عليه في السابق؛ فقد أصبح غريباً يتيماً... لكن الباقون هنا يحاولون أن يسلوا أنفسهم بالجوانب الجميلة فيه. ما العمل، ليس بيدنا حل آخر...

*يقصد الذين يعملون بجانب الحرفي أو التاجر مقابل أجر زهيد حتى يتعلموا المهنة (المترجم).

الوقت معهم ونقيم روابط قلبية وثيقة لا يمكن حلها أبداً!...

مهما كان قدر التأهيل الذي تتلقونه في مجال التعليم إلا أنه لا شيء يضاهي ماتعلمه إياك التجربة. فإذا كنتم تمارسون التدريس مستحضرين طفولتكم وشبابكم فإن مهمتكم ستكون في غاية الصعوبة. ستتعاملون مع ناقشي أسماء أحبابهم على الطاولات، ومغذي قصص حبهم بأغاني الحب والفراق الحزينة، وممارسي مختلف أنواع الحيل حتى لا تُقص شعورهم المعتنى بها بشكل مبالغ فيه، ومن لم يلتحقوا بالدرس لتعقبهم وانتظارهم لمحبوباتهم، وأكثر من ذلك وأدهى... بجانب ذلك هنالك المثاليون والذين نضجوا مبكراً أو على الأقل يعتقدون ذلك، ومنقذي الوطن والذين لا ينقطعون عن مذاكرة دروسهم حتى الصباح ولا ترى عيونهم شيئاً غير كتب الدراسة، و المبالغون في التوقير، والعديد من الوجوه الخجولة... كم كانت وجوهاً جميلة.

كنت جديداً على التدريس وأسكن في بيت بالأجرة. كان صاحب المنزل يريد مني إخلاءه لأن ابنه سيسكن فيه. وجدت منزلاً آخر وبدأت في الانتقال. بلغ خبر انتقالي طلابي. أثناء جمعي لأغراضي سمعت صوت جرارٍ يقترب. كان أحد الطلاب الذين يعملون في الزراعة قد حمل ما بين عشرة إلى خمسة عشر من أصدقائه على الجرار وجاء معهم ليساعدوني. من الذي قال إنك في الغربة تكون بلا صاحب؟! كنت قد تزوجت حديثاً ومتاعي محدود. أخذنا ننقل الأمتعة إلى البيت الجديد بسرعة ونحن نمازح بعضنا ونضحك، نجوع فنسد جوعنا بأكل أشياء خفيفة. لم أكن وحيداً، شعرت بالفخر وعيني تملؤها الدموع.

عند خروجنا من المدرسة لم نكن نمضي إلى بيوتنا مباشرة. بل نذهب مع الزملاء المعلمين بأذرع متشابكة إلى السوق. نجلس في حديقة الشاي ونجلس على شكل حلقة. نتعرف إلى علي أيجيل فتزداد طاولتنا جمالاً وتتعمق الحوارات وتثرى. يشير لنا إلى الأقاليم الجميلة التي مررنا بمحاذاتها دون أن نلاحظها. فهو شاعر يلامس الكلمات ويجعلها تتفتح بلون آخر. نذهب إلى مدينة صافران بولو. نتنزه في ظلال البيوت ذات المشربيات في الأماكن التي امتزج بها عبير الزيزفون بروائح البيوت الخشبية. نشرب فنجان شاي تلو

سمومها تخبئ تحت سحنتها الغبراء جنةً أسطورية تحوي ألف قلب وقلب من كل الألوان. وقد كان نفق جلدي قيصيق هو بابها. بدأت مزاولة عملي بينما كان أيلول يودعنا. كان بالحديقة الواسعة للمدرسة الكبيرة سكنٌ للطلاب الداخليين وصالون رياضي، وفي إحدى زواياها مسكن لطيف يقيم به مدير المدرسة. أدخل إلى الصفوف بتردد وخجل. والطلبة الذين يلاحظون قلة تجربتي يختبرون صبري بكلمات وتصرفات مختلفة. الصفوف مكتظة أكثر مما يجب، بعضها يضم خمسين أو ستين طالباً، بل وصل عددهم في بعضها إلى السبعين. يراودني التردد ويداهمني اليأس فأحاول تحفيز وتشجيع نفسي متذكراً أيام دراستي والأسلوب الذي كنا نعامل به المعلمين الجدد. كان لدي حصة في أحد صفوف الثانوية. دخلت إلى الصف ووقعت على دفتره بين نظرات الطلبة الفضولية. كانوا قد كتبوا على السبورة اسم المادة وعنوان الدرس واسمي: "ك. راشد أقدنيز". سمعت حواراً يدور بين طالبين من الصفوف الأمامية.

. فهمنا راشد أقدنيز ولكن مامعنى حرف الكاف هذا؟

يجيبه الطالب بجانبه:

. كباب يا ابني كباب!...

كتمت الضحكة المنفجرة داخلي محولاً إياها إلى ابتسامة.

تم تنظيم بطولة كرة قدم بين المدارس. سألوني "أتلعب؟" فقلت: "نعم"، من أول مباراة أصابت كرة ركلتها بقدمي اليسرى السيد سفر والذي سيصبح مديرنا فيما بعد، فعانى من إصابته لمدة. ومن بعدها لم ينضم للمباريات معنا. شققنا طريقنا حتى بلغنا النهائي. وبمكيدة ما لم نتمكن من لعب المباراة النهائية وحصلنا على المركز الثاني. كان مشجعونا في المنافسة هم طلبتنا...

بعدها تلاقينا مع منافسينا في فناء المدرسة وتعارفنا وسط جوٍّ ودي.

أضحت بعدها قدمي اليسرى مشهورة.

من بعدها بدأت مبارياتنا لكرة القدم والتي استمرت لسنوات. كنت أقضي النهار في المدرسة، والليل في مناوبات سكن الطلاب. كنا كمعلمين نقضي

الجائزة الشرفية 2005 / كيريك قلعة

ثمة ربيعٌ وراء نفق جلدي قيصيق

قدري راشد أقدنيز*

في السنة 1991. وفي آخر أسبوعٍ من شهر أيلول. كنت أستقل الباص الذي يقلني إلى قارابوك من أنقرة. كانت مراسيم خطوبتي قد تمت حديثاً، وها أنا أخلّف نصف فؤادي في مسقط رأسي وأرحل. كنت أشعر بحماسٍ شديد، فقد أصبحت معلماً لمادة الأدب في ثانوية الأئمة والخطباء بقارابوك. أحمل معي حقيبةً فيها بذلة رسمية لم أرتدها من بعد الثانوية أبداً، وربطة عنق وطقم حلاقة وثياب نوم... بعد المرور بمدينة كَرَدة سنكمل رحلتنا إلى قارابوك عبر طريق إسطنبول. تجاوزنا منطقة الأناضول الوسطى مخلفين صفرة الخريف وراءنا. وفي الإقليم الذي تحتضن تربته الخضرة الحية كانت الحافلة تنطلق ببهجة الأحلام. هاهي الحافلة تمر عبر نفق جلدي قيصيق، لقد اقتربنا كثيراً من وجهتنا. كنت أشبّه هذه المدينة المحاطة بالجبال الشاهقة والمستنشقة لسموم مصانع الفولاذ والحديد المجاورة بالسجن، وأشبّه نفق جلدي قيصيق ببوابة السجن المستعصية على التجاوز... كم كنت مخطئاً ومجحفاً بإطلاق أحكامي المسبقة على هذه المدينة التي قضيت فيها أجمل سنوات حياتي العملية وأكثرها معنى. فقد كانت هذه المدينة التي تكمن في مكان منعزل بين الجبال والتي تنفث عليها مصانع الفولاذ والحديد

*ولد عام 1968 في مدرينة صوركون بولاية يوزكات. أتم دراسة المرحلة الابتدائية والمتوسطة في مدينة كيريك قلعة. تخرج عام 1991 من قسم التعليم بجامعة غازي، تخصص في اللغة التركية وآدابها. زاول التدريس في ثانوية الأئمة والخطباء، التي عين فيها في عام تخرجه، لثمان سنوات. والآن يعمل مدرسا في ثانوية أتاتورك بكيريك قلعة. وهو أب لثلاثة أطفال.

ثمة ربيعٌ وراء نفق
جلدي قيصيق

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

الصورة 2

في يوم ضبطنا والدنا ونحن نرسم بالطباشير في فناء البيت. صادر الطباشير منّا قائلاً: "من أين أخذتموها؟" أجبته بكل براءة: "من غرفتك" فأسقطني على الأرض بصفعة هوى بها على وجهي. لقد أخذت ملك الدولة. لم أنس تلك الصفعة أبداً.

الصورة 3

كنا نطير صفاً صفاً من أعشاشنا. كل منّا إلى مدينة وجامعة مختلفة. بدأ البياض يستشري في شعر والدي. أثناء توديعنا كانت أمي تشير لنا إلى العبارة المكتوبة على قضبان النافذة الحديدية وهي تبكي "اعمل بجد يابني!"

الصورة 4

كنا نعود فرادى إلى بيوتنا. وشهاداتنا المؤطرة مسبقاً تعلّق على الجدران. وفخر والدي يعانق السحب. لقد اكتسح البياض شعره الآن. أمضى ثلاثين سنة في عمله دون أن يأخذ أي إجازة مرضية. الآن أستطيع أن أتقاعد، كان يقول. لأننا كنا قد ملأنا مكانه. ترك لنا حياة ومعيشة شريفة. والحب والاحترام الذي يتلقاه في الشارع دليل على ذلك. عُمرٌ كرس لأجلنا نحن... حكاية عرق جبين وجهد لا تكفيها صفحات لتكتب فيها. آلاف الناس الذين رباهم. دعاؤهم ومحبتهم... مثال حيّ على عمل الأنبياء...

الصورة 5

الشوق الذي غذاه في داخله لسنوات طويلة. كان يردد دائماً أنه لطالما تأخر من أجلنا نحن. كان يقول أنه أصبح يرغب بأن يذهب إلى معلم المعلمين. ذهب إلى حبيب المحبين وعاد إلينا بمحبة أكبر.

خاتمة

نعم، أول معلم لي هو والدي. وهل يستطيع المرء نسيان أبيه؟

والمجرمون يتحضرون لدرس الغد عناداً للأغاني الشعبية. الموضوع: مناطقنا الجغرافية. غير مدركين أن السبطانات ستطرق أبوابهم الليلة في هذه المنطقة التي جاءوا إليها طوعًا وحباً. تتلطخ المنطقة بالدماء. يتشارك الأزواج الموت بشجاعة. تلف أجسادهم بأعلام الوطن. وفي منتصف الفصل تسقط صورتان من قلبي. الأيدي الصغيرة تجمع الدموع من صفوف الفصل ذلك اليوم. والسبورة السوداء مازالت سوداء. سواد الدم. لا يُقرأ الدرس بل تُتلى اللعنات، يضيق صدري. يهرع إليّ أحد المعلمين. يقول لي :"لا تيأس!" أتعلم الموت فداء للوطن.

الصورة 3

الآبار تتسخ. الآبار تجف. يخرج من الآبار دم. من الآبار جثث." ماذا حدث لآبارنا يامعلمي؟ أين آبارنا التي حفرناها عميقاً في قلوبنا. ماذا حدث لآبارنا التي تطفح بالحب والسلام والرحمة، التي تنقل الأسرار بين القلوب كما ينقلها الناي؟"

"لماذا في يد كل أحد قفل يامعلمي؟ في كل بيت وكل باب وكل جيب. وفي كل قلب. ماذا حدث لقلوبنا؟ هل كان بها أقفال من قبل يامعلمي؟ أين مفاتيحنا، عند من يامعلمي؟"

هـ

الصورة 1

نحن ستة إخوة. بين كل منّا فارق سنة ونصف. ثلاثة منا كنا نذهب كل صباح إلى المدرسة مع أبي. كان أبونا يرافقنا حتى نصل إلى المدرسة. وفي المدرسة يصبح أباً للجميع. يغضب إن نسينا وناديناه يا أبي. فنحزن دون أن نبدي ذلك.

في كل ليلة من سنوات الابتدائية كنا نثني عنده الركب ويعلمنا تحت نور مصباح الغاز، والذي جاء بعده مصباح الكهرباء الضعيف. أحياناً بحكاية أو أسطورة أو سيرة وأحيانًا بصورة من التاريخ تسقط على قلبنا كجمرة، كان على جميع تلك الصور التي تكبر معنا إمضاء والدي.

عندما أصبحت معلماً للأدب وأصبحت زميلك في المهنة. لترقدي في سلام يامعلمتي. لن ننساك أبداً.

الصورة 3

الجامعة... على كرسي التدريس المعلم شريف يتحدث عن محمد عاكف ونشيدنا الوطني. مقابله ثلاثة وثمانون طالباً. ثلاثة وثمانون دنياً مختلفة... ولقد كانت دموعنا تنهمر من أعيننا علناً وخفية.

هل استمعتم لأشعار نجيب فاضل أو ناظم حكمت من فم المعلم رضوان؟ وأشعار أتيلا إلهان من المعلم يعقوب. جاءت اللحظة وتوفي أتيلا إلهان. أيمكن نسيان هؤلاء؟ لن ننسى المعلم تاج الدين. ذلك الإنسان الجميل الذي كان له الفضل في أن أتشجع وأعود إلى بحار الشعر.

كيف لي أن أنساكم وأنتم صوركم حية معلقة على حيطان قلبي كعظماء الأتراك؟

د.

الصورة1

كان أول درس لي في مبنى مدرسة متوسطة ذات فصل واحد بين جبلي جودي وغابار. لم أكن وحدي. فقد كان أعز معلميّ في قلبي. وبجانبه المعلمون الآخرون وأبي. عند الحائط خلفي رأس المعلمين. أسندت ظهري إليه. لا أشعر بالخوف...فقط حماس لذيذ. أعرف أني لن أخذلهم. لأني لم أنس ماعلموني إياه.

أمامي طلابي. أعمارهم ليست صغيرة ولكن قلوبهم طفولية ومنتشية ودافئة. أعينهم تبرق. اشتاقوا للمدرسة وللمعلم لسنتين. أول طلبة لي. أول أحبابي. مثل "أول طلبة" لأيتماتوف. أتمنى عناداً لزكي ألا يرن الجرس. مُعلمي يربتون على ظهري. يالها من سعادة.

الصورة 2

الليل طويل ومظلم. الليل خائن وملغم ومليء بالفخاخ. ثمة قادمون. يجرّون الموت معهم بأقدامهم خلسة. سبطانات بنادقهم باردة، ظالمة. معلميّ يحضرون دروسهم في غرفة عتيقة للمسكن. في عزلة سفح جبل.

الصورة 2

مدرستي الابتدائية. معلمي الأول. صدّيق... علمني القراءة والكتابة بكل صبر وحب، صبّ خلاصة كل ماأحتاج إليه في حياتي في خلايا قلبي كما تفعل النحلات. مرت إحدى وعشرون سنة منذ آخر مرة رأيته فيها. لكن صورته منقوشة في ذاكرتي. أتمنى أنك حي ترزق وبصحة وعافية. لأنني سأعرفك أينما رأيتك. لأنني لم أنسك أبداً.

كنت في المرحلة المتوسطة. كان المعلم حسام الدين بحديثه باللغة التركية الجميلة أول من طعّم فيّ حبها. كان شخصاً محترماً وعذباً. أنت أيضاً لم أنسك. لأنك علمتني أن السعادة هي الشيء الوحيد الذي يزيد كلما تشاركناه. حتى أنت صورَتك في قلبي.

سنوات المرحلة المتوسطة مجدداً. كان صوتي سيئاً بقدر درجاتي في مادة الموسيقى. والمعلمة سناء تحبّبني في الموسيقى. تعلمني النوتات وعزف المزمار... تعرفني على أساتذة الفن كعطري ودَدَه أفندي... وتعلمني أن الناي مصنوع من أعواد القصب. لم أنسك أنت أيضاً كصوت عذب ولطيف يامعلمتي.

سنوات الثانوية. في مواد العلوم كان المعلم شوقي يعلمنا كوننا بشراً. بأسلوبه الشديد والممزوج بعطف لأب. وذكائه الحاذق.

ومع المعلم صالح كنا نتعلم تاريخنا صفحةً صفحة ، مرة في ملاذكرد ومرة في كوسوفو ومرة في نيبولو. ومايجعلنا نحن ويميزنا عن غيرنا. أنت أيضاً لم أنسك معلمي صالح.

وفي دروس الثقافة الدينية والأخلاق كنا نتعلم مع المعلم متين حقوق الأيتام وذنب السرقة والوقوف في خشوع في الصلاة. وأن نقف للصلاة كل جمعة مع معلمينا في جامع المدرسة. أرجو أن تسامحني إن بدر مني شيء خطأ يامعلمي.

ومع المعلمة نوركول تعلمنا الشعروالأدب والذوق والشعور الشعبي، تعرفنا على فضولي ونديم وباقي والعديد من سحر الأصداء ومشاعر الحب التي لا تتسع لها أبيات الشعر. تلك السعادة والفخر الكبير العاجز عن التعريف

ثمة قادمون. كان مولانا الرومي ينظر إلى شمس. وشمس يعلمه وينوره. كان مولانا يقول تعال، تعال؛ تعال مهما كنت ، تعال... وكنا نتعلم أن نبدو كما نحن دون تصنع.

ومن الشيخ نصرالدين (جحا) ونكته كنا نتعرف على جوانبنا الفاسدة، ونتعلم عدم التعدي على حق الناس واحترام الجار والضحك وعدم طلب فيل من تيمورلنك.

ثمة قادمون إلى السلطان ولي، منهم المستاء ومنهم الحزين. سيفهمون بعد وقت طويل صعوبة وأهمية الحفاظ على الأمانة والتعاليم. كنا نتعلم حب الوطن في سيليسترا.

كان الأستاذ يعلّم المعاناة لطلابه أنواراً وأشعة... يعلّمهم الواحد وغيره...

كنا نرى الدنيا بعين مختلفة. كنا نتعلم أن نموت قبل الموت. وكما قال سلطان الشعراء :"ذلك المعنى في كل نقش، سنموت لا مفر..."

ثمة قادمون إلى حفنة تراب بسيطة. مرددين "إما الاستقلال أو الموت" في قلب قائدهم حماس كل معلميه في الماضي. كان البيرق يبتسم. كان بعينه الزرقاء بلون السماء وبيده الطباشير عند السبورة يشرق كما تشرق الشمس على جبال تركيا وسهولها وصخورها. تعلمنا من جديد ألا نستسلم أبداً.

ج

الصورة 1

قريتي... قريتي البائسة المقترن اسمها بالدم... ما أذكره عن طفولتي قليلٌ جداً، في معظمه أصوات رصاص. في البدايات مسكن متهالك ومبنى مدرسي ؛ فانوس غازي ويدي أبي... مثابر، ماهر، محترف... باني جدران، عامل تلبيس وطلاء، وحتى صانع طاولات. عند انتقالنا إلى المدينة بقيت مدرستنا والتي تلمع من بعيد في ذاكرتي مع يدي والدي المتشققة والعديد من الصور التذكارية للمدرسة التي هزت دنياي الداخلية من الأعماق.

الصورة 5

كان ثمة قادمون. يخشوْن من أن يسحقوا النمل بأقدامهم الحافية ولكن قلوبهم شجاعة كالجبال ولينة في نفس الوقت. كان هناك قادمون متكاتفون ووجوههم بألوان الطيف. كانوا قد تعلموا مالم يعرف من قبلهم. تعلموا الواحد. ثم أول الواحد وثاني الاثنين والثلاثة والأربعة. براعم الورد الأربعة. الوفاء والأدب والشجاعة والعدالة؛ تعلموها من معلم المعلمين دون كلام أو أحرف أو كتابة. يا لهذا السر العظيم يارب. حتى أنا معلم ولكني لا أستطيع التعليم دون أحرف. كنا نطلب العلم ولو كان في الصين.

صورة 6

ثمة قادمون. إلى الأناضول بسرعة على ظهور خيلهم التي يتطاير شعرها مع الريح. خيول جيدة وعلى ظهورها رجال طيبون. وفي الأفق المستنير ببشائر الظفر كانت السماء تستعد لشروق شمس لن تنطفئ. كان ديوجانس يتعلم مدنية وحضارة جديدة. وبينما كانت شجرة الدلب العظيمة تغطي السماء بأغصان الرحمة والسلام كان الشيخ أبدالي يتفنن بنقش قلب عثمان.

كان الحاج بايرام يزرع المحبة في أراضي أنقرة الجرداء، وأق شمس الدين يُحضَر إليه مكبلاً بأصفاد معنوية. وعندما يحين الوقت يسلم السلطان مراد أبنه محمد لمعلمه ذي اللحية البيضاء. كان يعلم حديث الرسول للبطل الذي سيصبح "الفاتح" فيما بعد. وبينما كان أحفاد حمزة يخترقون الأسوار كانت قسطنطينية تتحول إلى اسطنبول، بين نظرات الفتيات الروميات الكسيرة وهن يلقين بالورود تحت أقدام الجياد الجيدة. بدأ عصر جديد أثناء توزيع الحرية على الجميع. وكان احترام المعلم يكتب بأحرف من ذهب في صفحات التاريخ. كنا نتعلم الاحترام.

كان يونس أمره يقول: "لايليق بمعلمي حطب أعوج" ولمدة أربعين سنة لم يدخل حطب أعوج تكية طابتوق. الطالب الذي سيصبح معلماً فيما بعد تعلم وجود الله في كل مكان، وهو عائد بالديك الذي لم يذبحه. كان يردد: "أعط جنانك من شئت، أما أنا فأريدك أنت"

الصورة 2

كان ثمة ذاهبون. التربة ساخنة. أيديهم من ثلج. حفرٌ صغيرة... أيدٍ صغيرة وناعمة كالقطن... الدموع والندم والرحمة تتحلل تحت التربة، والمطر لا ينهمر. ثمة ذاهبون... نحو الحرب والظلم والفحش. النساء والعبيد الساقطون من ميزان العدالة المكسور يتساقطون نحو الأسواق... يموت الناس من كل لون وشكل. حتى الوحشة كانت تنسى. الدم... الإنسانية تغرق في دمها. والدنيا؛ كانت مظلمة وباردة وتعيسة في حرارة الصحراء. لأن الأطفال كانوا يموتون. ليس سقوطاً في البئر بل رمياً فيه. كانت الآبار مليئة بآلاف الصور. كانت الإنسانية تبحث عن يوسف في بئرٍ ملأى بالآبار يأتيهم في عصر يوم ما ليعلمهم بألا يلقوا أحداً في الآبار.

الصورة

ثمة ذاهبون. مسرعون بخيولهم من كل أنحاء العالم. خيولهم محملة بالكثير من الصور التي لم يرْ مثلها. والأنهار المتخيلة حول البحيرة. كل ذهاب كان عبارة عن نهوض من الرماد. وكل صورة عبارة عن عالم جديد. لم تعد الأزهار مجرد أزهار، بل مضامين خفية في أجمل قسم من كل صورة...

الصورة 4

كان ثمة قادمون مع أمطار العصر، اثنان من الشرق واثنان من الغرب. وجوههم كالقمر وكالشمس. على أكتافهم بناتهم. أصبح الجميع يحفر داخل نفسه آباراً عميقة. وكان يخرج من كل بئر يوسف. ومع الندم كانت الرحمة تنفجر من الآبار. تطفح الدموع من الآبار إلى الأعواد بعد أن تتحول إلى ناي. كنا نتعلم أن نحب.

ب.

الصورة 1

نزل الوالي من السيارة الرسمية التي تمشي به في الطريق الخرب بعد أن أوقفها. دخل إلى فناء مبنى حجري ذي طابق واحد وخمسة فصول في أحد أحياء المدينة الفقيرة. كان عامل بناء يقوم ببناء جدار.

- السلام عليكم ! أعانك الله...

- شكراً لك أيها الوالي، مرحباً بك

- ماذا تفعل

- أقوم ببناء فصل ياسيدي.

غضب الوالي. جِدوا لي مدير التعليم ومدير هذه المدرسة، وليفصلوا حالاً. كيف لهم أن يزيدوا على مبنى المدرسة كما يريدون؟ قال معلم البناء الذي تناول المسجة كأنه يريد أن ينهي هذا الجدار قبل أن يفصل المدير:

- أنا هو المدير أيها الوالي المحترم...

- ممن أخذت إذناً لبناء الفصل؟

- منكم سيدي. ورقة الموافقة في غرفتي. أستطيع إحضارها إن أردت.

- ولماذا تقوم أنت ببناء الجدار؟

- لم تعطنا وزارة التعليم إلا لوازم البناء. وليس هناك ماندفعه لعمال البناء، لذلك أبنيه بنفسي.

الوالي الذي عمل إنجازات مهمة في المدينة فيما بعد مازال اسمه يذكر باحترام وتقدير. كان يحب ويقدر من يحب وطنه وشعبه. أدرك خطأه.

قال وهو يصافحه شادّاً على يده التي تشققت من خلطة الإسمنت: "أعتذر منك حضرة المدير" ثم خرج من هناك بعد أن وعد بأن يكلف من يكمل البناء عنه. كان درساً في تقدير الناس.

جائزة هيئة التقييم الخاصة 2006 / آغري

الصور التي في قلبي

مراد آلان*

ذاكرة الإنسان معلولة بالنسيان. كيف كان لي أن أعيش لولا النسيان؟ مرت ثمان وعشرون سنة على إيداعي جسد أختي للتراب. صورة مقبرة ممسوحة في القسم المبتل بدموعي من الذاكرة. من يعرف بعد كم سنة خطرت على بالي وأنا أكتب هذه الأسطر. كان قد تجاوز الثمانية عشر عاماً من عمره للتو عندما توفي صديقي علي، وصديقي العزيز بنيامين توفي في الثامنة والعشرين. علمني في أنفاسه الأخيرة ألا أؤجل شيئاً للغد. فكل شيء جميل عندما يعاش في وقته. أحبابي الذين كلما فارقني أحدهم ظننتها نهاية العالم كجدّي وجداتي وأبناء إخوتي. علموني كيف أنسى وهم ذاهبون حتى يخف ألم الفراق. الأيام الأخيرة المليئة بالقلق والاضطراب المقضية في غرف المستشفى الصفراء.

ذكّروني أن لا شيء كالعافية. انظر، حتى خطيئاتي نسيتها. ما الذي لم أنسه أنا؟

*ولد عام 1970 في مدينة آغري وأتم تعليمه الابتدائي والمتوسط فيها. درس اللغة التركية وآدابها في جامعة أتاتورك. قدم رسالة بعنوان "تمشيط اللغة التركية وقواعدها" حصل على جوائز في مسابقات شعرية عدة. وتم نشر أشعاره في عدة مجلات. تم نشر أول دواوينه الشعرية "أحلام آسيا" عام 2000. يعمل حالياً كمدير مدرسة ثانوية آغري التجارية. متزوج وأب لطفل واحد.

الصور التي في قلبي

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

تطن أسفل أذني. عصفورٌ كسير الجناح كان يلفظ أنفاسه الأخيرة عند شحمة أذني.

حبالي الصوتية مشدودة كمطاط مقلاع وهي تتأهب لإطلاق صرخةٍ نحو المرتفعات في الجهة المقابلة، ثم تنقطع. شفاهي مزمومة، الصرخة في قلبي تتحوّل إلى دمعة وتسقط على الجمرة الملتهبة على خدي منتهياً بها المطاف إلى رقبة أخي الدامية. حقدي يفور كبراكينٍ داخلي. من يعرف ماذا ستحرق أيضاً. كيف سيكون وقعها على فؤاد أمي المسكينة.

في آخر مرةٍ ألمس فيها رقبته الجميلة، التصق دم متخثّر بإصبع سبابتي. لم يكن هذا ما حلمت به؛ من كان له الحق في أن يقتل أحلامنا، من أعطاه ذلك الحق. كانت لنا أحلامنا سوية، كانت لك أمنياتك. أردت أن تصبح معلماً، لذلك اخترت الألعاب. لم تختر إطلاق النار بل جبر الأجنحة المكسورة والمساعدة على الطيران من جديد. كان لديك العديد من الطلبة المنتظرين لأن يطيروا، عصافير ترغب في الطيران.

انظر، سرب عصافير يطير من فوق التلة، من يدري، ربما طرت أنت معهم نحو الخلود. يقال أن الشهداء كالطيور، يطيرون في الجنة دائماً، هكذا كان يقول لنا العم عارف. ماذا عني؛ ماذا أفعل الآن، جناحي مكسور. من سيواسيني، من سيكون سنداً لي، من سيفهمني؟ اخترت أن تطير بدل أن تبقى معي أو مع طلبتك. اخترت أن تكون مع العم عارف. أتذكر وعدي لك بأن أشتري لك كل حلوى التفاح. لقد وعد العم عارف أن يعطيك إياها جميعها لكنك لا تحب حلوى التفاح. ففيها دم، حتى أنا لا أحبها، لا أحبها. لا أحب كل شيءٍ لطخ بالدم. أصبعي، شروق الشمس، ومناقير العصافير...

على أكمل وجه." لكن كان هناك شيءٌ لايعرفه. فهنا أيدٍ ملطخةٌ بالدماء ترى نفسها صاحبة هذه الأرض لا تسمح له بذلك. لم يكن يعرف أن لكل مهاتفة وكل زيارة لي لها هدفها. في كل ليلةٍ آوي فيها إلى فراشي بخوفٍ وقلق أدعو الله أن يمكنّني من سماع صوته في اليوم التالي. لم يكن يعرف أن هذه الجبال تؤوي الدم والحقد والخيانة كما أعرف أنا. لم يكن يعرف خوفي عليه.

كان جدول باتون المحاط بأشجار البلوط والجاري أسفل الوادي الصخري الضيق العميق بقرب الطرق المتعرجة، موضوعاً للأغاني الشعبية وقصائد الرثاء لسنوات طويلة. تحوّل إلى أغنية هيامٍ احترقت في قلب عاشق، وتحوّل فراقاً انسكب نحو الغربة، تحوّل موتاً واختلط بالزغاريد. رأى مكامن الغادرين في الجبال، وشاهد نزيف قلوبٍ اخترقتها رصاصات الخيانة، وشهد سقوط الشهداء في ليالٍ عديدة.

بينما يصطدم جدول باتون بكل عنف بالصخور كانت الصرخات الصامتة هي ماتجرح هذا الجمال الطبيعي الخارق. الموت، أحياناً ما يختلط بنباتات الحلبة، بوسائد الرعاة وبالثوم الجبلي في مزمارراعٍ ونسيم صباح. مرة يجد هدفه في مسمارلغم أرضي، ومرة في أزيزرصاصة، ثم يضيع في صخب جدول الباتون. ويترك خلفه صرخات تكوي الأفئدة، وأطفال يتامى، وفتياتٍ أرامل. وهذا الوادي الضيق يأخذ معه صرخات جدول الباتون؛ وبمعية تغاريد العصافيريشكل غطاءً يخفي مكامن الغدروآثاردماء الهجمات الخائنة...

عند شروق الشمس من خلف الصخور الوعرة كان مركز الدرك قد أنهى الاشتباكات وبدأ طريقه إلى العودة. كان الهجوم قد حدث ليلة البارحة، في البداية دخل المهاجمون إلى سكن المعلمين وأخرجوا منه معلماً واحداً. ولكون أردم أخ القائد تم أخذه إلى فناء المدرسة. كان رأسه شامخاً، لم يتكلم ولم يرتعد، مضى نحو الموت بثباتٍ وكأنه يعرف الموت من قبل. أصبت في كبدي في اشتباكاتٍ لم أكن مشاركاً بها، نصفي الثاني وقطعةٌ مني، كأنه ذهب بشظية. لم أتمكن من أن أعانقه وأحضنه لآخر مرة، والآن ألمس جسده البارد بيدي. لم أحفظ الأمانة. أمانة جدي وأبي وأمي والعم عارف.

كنت أتذوّق الموت لأول مرة، كان طعماً لاذعاً يحرق فمي وكنت أشعربغثيان في معدتي. حموضة حلوى تفاح انتهى سكرها تتجّول في فمي ونبضات قلبي

من المعلمين جاءوا وذهبوا؛ لم يبق أي منهم مدةً طويلة. ذلك الصباح تناولنا طعام الإفطار في فناء المخفر. كان صباحاً أيلولياً حاراً... وكانت أوراق أشجار التوت عند الجدول أسفل المخفر قد بدأت تتلوّن بدرجات الأحمر والأصفر. وكان صوت خرير الجدول يبلغ المخفر. الجو غريب، فطعم الخريف الكئيب كان قد حلّ في كل الأرجاء، والحزن غطّى كل شيء... لا أنا ولا أردم كنّا نحب هذا الفصل، ولطالما مثّل لنا شهر أيلول الفراق والحزن. كانت تستهل فيه الدراسة وفيه نفارق إجازتنا وأزقتنا وألعابنا المحبوبة. على حين بغتة صدرت جلبةٌ كسرت ذلك الحزن الصامت، مرّ سرب عصافيرٍ من فوقنا وحطّ على أغصان التوت. وبينما كانت شقشقات العصافير تختلط بخرير الجدول التقت عيني بعين أردم فجأة. كأنما رغب أن يقول شيئاً، تحرّكت شفاهه ثم سكت...

بعد أيامٍ بدأ أردم بمزاولة عمله، واعتاد على مكانه الجديد. لم يسبق لي أن رأيته سعيداً بذلك القدر. أحياناً كنت أذهب إلى القرية دون أن أخبره وأراقبه من بعيد. أشاهده وهو يلعب مع الأطفال ويمسح على رؤوسهم وأشعر بالفخر. في مرةٍ قال لي: "أخي، في كل مرةٍ أمسح على رؤوسهم تلتصق بيدي رائحة عطرية غريبة، كأنما شعورهم القطنية تتحول إلى مسبحة العم عارف." بعد أن كان في البدايات يأتي لزيارتي كثيراً، أصبحت أنا من أزوره أكثر. انخرط في عمله مع الطلبة والمدرسين إلى حدّ جعلني أشعر أنه نسيّني. كان ينادي طلبته بعصافيري الصغيرة، لقد أحبوه كثيراً. بدأت أشعر بالغيرة. بدا أن اهتمامه بي قد اختفى.

في كل اتصال كان يحدثني عن مشاكل الطلبة والمدرسة، ولا يكاد يسأل عن حالي. وفي آخر مرةٍ اتصلت به كان غاضباً، فهمت ذلك من صوته. قال لي "لا تكثر من زياراتك لي، أنا سأزورك. الجميع يناديني بأخ القائد، أنا معلم، لست أخ القائد." ذهلت وحزنت. لكن حبّه كان كبيراً في قلبي. الخبيث، انظر إلى ما أثار غضبه " لقد كان محقاً في الحقيقة، فهو لم يعد صغيراً، إنه يقف على قدميه الآن، ويريد أن يطير بجناحيه. يريد أن يكون لائقاً ومستحقاً للعمل و للراتب الذي تعطيه إياه الدولة التي عيّنته هنا. هكذا علّمه جدي، وهذا مارآه في عائلته. كان العم عارف يردد: "أكبر خدمةٍ للوطن هي أداؤك لعملك

إلى منطقتك، أنا سعيد جداً، سيجمع شملي مع أخي مجدداً." كانت فرحة ذابلة تغمر البيت. وكان أبي متماسكاً كالعادة، أما جدّي فقد كان صوته عندما كلّمني باكياً: "اسمع يابني، بعثنا إليك بأخيك عندما لم تأت إلينا. لن يستطيع أن يفرقكم أحدٌ بإذن الله" أمّي وجدتي كانتا تبكيان، خليطٌ من الحزن والفرح يغمر البيت. أكمل ابناهما الاثنان تعليمهما و أصبحا رجالاً ذوي قيمة في أعينهم.

كنت مبعث فخرٍ لجدي وأبي، فأنا ابنهم الذي أصبح ضابطاً. كان جدي العجوز يقول: "لن تهتزلي شعرةٌ لو منحت وطني ألفاً من أبنائي" كان في ذلك مفخرة لحي زافران أيضاً، فقد خرج من هذا الحي الفقير المهمل البائس قائدٌ عسكري ومعلم. كانت مكانة أردم في عين أمي مختلفة. هو أيضاً جندي في مجال التعليم، وعلى يده ستنبت آلاف البراعم. هم فرحون لأن ابنهم أصبح معلماً، وقلقون حزينون لذهابه إلى مكانٍ تأتي منه أنباء سقوط عشرات الشهداء كل يوم. لم تكن متماسكة كجدّي، فحب الأبناء عندها مقدمٌ على حب الوطن.

مرت أسابيع، وجاء أردم أخيراً إلى المنطقة. مرت ستة أشهرٍ ونصف على آخر مرة التقينا فيها، كأنها ست سنواتٍ ونصف. كم تغيّر في عينيّ كثيراً. عندما رأيته أمامي كمعلم أدركت لحظتها أنه قد كبر. أردم الحساس المرهف أصبح جبلاً في عيني. لقد نفّذ وعده للعم عارف، كلانا اختار مجال التعليم. لكن العم عارف لم ير أياً منا معلماً قبل وفاته. بينما كانت فرحةٌ مترددة تغمرني نظرت إليه بنظراتٍ فخورة، ربما كانت نظرات العم عارف. سوف يزاول أحبّ عملٍ لديه قريباً من أحبّ شخصٍ إليه؛ أخيه. عندها قلت له مِن قلبي: "أنت أمانةٌ لدي ياصغير، أمانة أهلي إلي. سوف يحميك أخوك الأكبر دائماً."بينما كانت هذه الكلمات تهبّ على قلبي المحترق كنسيمٍ بارد كنت أحاول أن أحظى على قليل من الانتعاش. كنت أعرف مكان تعيينه، لقد ذهبنا إليه في عمليات مداهماتٍ لعدة مرات. أتينا من المدينة إلى المخفر. قلت له: " لنتمشّى قليلاً، وبعدها نذهب لرؤية مدرستك."

كان سيبدأ مزاولة التعليم في مدرسة داخلية بقرية كوزجولار. كانت القرية تقع في منطقة جبلية تبعد مسافة خمسة كيلومترات عن بيرواري. الكثير

جيد. وعندما أعلمت أهلي بالقرار كانت أمي أكثر من حزن وعارضني. لكني ورغم ضغوطات أبي وجدي دخلت الامتحان وبدأت مباشرة مهمتي. كان حظي في قرعة التعيين هو مخفرٌ جبلي في منطقة بيرواري. أما أردم فبعد أن درس تخصّص تعليم الصفوف الابتدائية الذي طالما تمنّاه. لم يكن يحب الصيد ولا الدم أصلاً، فقلبه رقيق. كان يعدّ الأيام منتظراً يوم تعيينه.

بين كلماتها تلك أبلغتني بذلك الخبر الحزين: "لقد توفي عمك عارف يا بني، لم نعرف إلا بعد عدة أيام. لقد كسروا الباب حتى يدخلوا. المسكين توفي بائساً وحيداً." كان العم عارف يتحدث عني في الأيام الأخيرة كثيرا، "إني أفكر في ابنك عندما أستمع لوكالات الأنباء. سيعود بإذن الله دون أن يتعرض له المتمردون بسوء. لا تقلقي."... لا أستطيع تخيّل عظم حزن أردم. لذلك كان العم عارف مفضلاً بالنسبة لنا. فكرت في حلويات التفاح وفي العم عارف وفي طفولتنا. وتلك الكتب الرطبة التي كنا نجد فيها طمأنينتنا، وفي زهور القرنفل... كنت حزيناً للشقاوات التي كنت أرتكبها، لإثارتي استيائه مراتٍ عديدة. في تلك اللحظة انسكبت في فمي عدة كلمات: "سامحني واعف عني مابدر مني من أخطاء ياعم عارف. لروحك الخلود!" بينما كنت شارداً بهذه الكلمات كانت أمي قد أجّلت ماكانت ستخبرني به في البداية إلى النهاية. قالت: "بني، لقد تم تعيين أخيك أردم، سوف يذهب إلى النواحي التي أنت بها."

كانت مفاجأةً لي؛ تبدلت حرائق الألم في قلبي بموجة خوف محملةٍ بالذهول، والحزن ترك مكانه للقلق. ماذا تقصد، هل انتهت الأماكن في الدولة الواسعة حتى يعمل الإخوة في نفس المكان؟ انقطع خط الهاتف فلم نستطع إكمال محادثتنا. خرجت من مركز القيادة بمزاجٍ مضطربٍ منهمكاً في أفكارٍ عميقة، هل فهمت خطأً ياترى. كان كل شيءٍ يحدث بتسارع.

سوف ألتقي بشخصٍ أحبه بينما أودّع شخصاً آخر أحبه الوداع الأخير. لكن الغريب أن قلبي الحزين على وداع من أحب لم يكن مبتهجاً لقدوم الآخر، لم يرد ذلك. عند ذهابي إلى المخفر كانت الهواتف قد بدأت تعمل. أول ما فعلته في المساء هو الاتصال بالبيت، كان أردم هو من رفع السماعة. عندما سمع صوتي تحمّس "أخي أخي، لقد تحدد مكان عملي. سوف أجيء

قال فتحي بصوت يخلو من الرحمة: "لا لم يكن سيعيش أصلاً. كما أننا نحن معشر الصيادين لا نضرب هدفنا لنحييه بل لنقتله." لم ينطق أردم بشيءٍ حتى وصولنا إلى البيت بين صراخاتنا المتبادلة أنا وفتحي. ولم يتكلم ذلك اليوم ولا الذي بعده ولا الذي بعده.

لم يعد يرغب الذهاب إلى المدرسة، بل يفضل الذهاب إلى العم عارف وقضاء الوقت معه. والعم عارف كان في كل مرة يقنعه ويأخذ بيده إلى المدرسة. والصغير الذي كان لا يسمع كلام أبي وأمي يطيع كل ما يأمره به العم عارف. في أحد الأيام وعند الانصراف كان العم عارف قد حضّر حلوى تفاحٍ كبيرة. عدت إلى البيت بسرور وهتفت لأخي "أردم انظر ماذا أحضرت لك" عند رؤيته لحلوى التفاح في يدي اصفرّ وجهه فجأة وأغلق فمه بيده، ثم ركض نحو الحديقة وأخذ يتقيأ. ذهبت إليه، لم أفهم ماحدث، التفت إليّ وصرخ : "أرجوك ألق بها يا أخي، فأنا لا أحب هذه الحلوى لأن فيها دم عصفور!" ذهلت لأنه لم يرغب في حلوى التفاح وهي التي كانت أكثر ما يحب. مع الوقت أدركت أن حلوى التفاح تذكّره بمقتل العصفور. لقد ذاق برودة الموت ومرارته والألم الذي يتركه في جسد العصفور ذاك. أما أنا فقد كنت أحبّ حلوى التفاح، وما من شيءٍ يمكنه أن يحول بيني وبين حبها...

***

لم أستطع الاتصال بأمّي لعدة أيام، فخطوط الهاتف هنا معطلة، والكوابيس تراودني لأكثر من ليلة. مرت ثلاثة عشر يوماً منذ آخر مرةٍ خرجت فيها من قسم الشرطة إلى البلدة. صباح ذلك اليوم خرجت إلى البلدة واتصلت بالبيت. كما العادة كان صوت أمي القلق يمطر الأسئلة عليّ "ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟ صوتك مرهق." إنه قلب الأم. المسكينة لم تذق طعم النوم وهي تشاهد أخبار تساقط الشهداء على التلفاز ولا تستطيع الاطمئنان عليّ. وفي كل مرة تحادثني كانت تحاول اختصار كلامها حتى لا تكلف المكالمة كثيراً فتختلط عليها الكلمات. منذ التحاقي بالجيش كملازمٍ ثانٍ وهي تنتظر على جمر. كانت قد مرت ثلاث سنواتٍ منذ تخرّجي في الجامعة ولم يتم تعييني بعد. أصابني الفراغ وقلة المال بالإحباط والاستياء فقرّرت إلغاء تأجيل التحاقي بالتجنيد والعمل في شرق البلاد كضابطٍ ذي رتبة بمرتبٍ

في يوم أيلولي حارّوبعد الانصراف من المدرسة كنّا نهبط من الطريق المنحدر خلف بستان العم حسين وعلى ظهورنا حقائبنا الثقيلة وأحد أزرة ياقاتنا محلول. تناولنا مقاليعنا من داخل المدفأة الصفيحية الملقاة بجانب الطريق. كان فتحي أفضلنا في إصابة الطيور، كما كان عديم الرحمة.

بين أوراق الأشجار التي بدأت بالاصفرار استقر عشرات من العصافير على الأغصان. وُضعت الأحجار في المعاليق وشُدت المطاطات على الفور. أغمض أردم عينيه وأشاح بوجهه إلى الخلف. بين صفير المقاليع بسبب النسيم وشقشقات الطيور وطيران العصافير في الهواء والأوراق الحمراء والصفراء المتساقطة على الأرض، صرخ فتحي فجأة "لقد أصبته، والله أصبته"، كان عصفوراً مكسور الجناح يحاول الهرب وهو يعرج. فتح أردم عينيه وراح يجري معنا. لم أفاجأ؛ دخل أردم الذي طالما ابتعد عن ممارساتنا الوحشية هذه بين الأغصان وفجأة عاد وبيده العصفور مكسور الجناح. قال وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه بحماس: "انظر يا أخي، إنه لم يمت، فقط كُسر جناحه." رغم إحكام قبضته على العصفور المسكين؛ كان العصفور في كل نفسٍ يلفظه تشتد عليه قبضة أردم، كان الخوف والهلع بادياً في أنفاسه ونظراته.

قال أردم بفرحة من اشترى هديةً وبعيون ملؤها الرجاء لفتحي:"أخي فتحي، هلّا وهبتني إياه؟ أرجوك." فرد فتحي ببرود: "حسناً ولكن جناحه مكسور، لن يطيب" فقال أردم ببراءة: "سوف يداويه العم عارف، فهو يعرف كل شيء. أليس كذلك يا أخي؟ سوف يطير هذا العصفور مجدداً وسيذهب إلى أمه." وأنا قلت لأخي حتى أطمئنه: "بالطبع سيتعافى، سنذهب به إلى العم عارف حتى يجبر كسره." وعندما قال فتحي: "دعني أرى من أين كسر جناحه" مد أردم إليه العصفور وهو ممسكٍ به خوفاً من أن ينتزع منه، ربما بسبب معرفته المسبقة بطباع فتحي، فقام فتحي بهجمة خاطفة خبيثة وانتزع رأس العصفور النافر من بين أصابع أردم. عندها ارتخت أصابع أردم ببطء، وانزلق وسط الدماء جسدٌ بجناحين ساقطاً على الأرض. تجمّد أردم مكانه، بينما كان ينظر إلى الدماء في يديه بنظراتٍ جامدة رحت أصرخ على فتحي بغضب: "لماذا فعلت ذلك، لقد كان حيّاً، كما أنك أهديته إلى أردم!"

كان كره جدي للعصافير شديداً لدرجة أنه قطع غصن أكثر شجرة يحبها، شجرة اللوز وصنع لي منه مقلاعاً. ماذا كان سبب ذلك الكّره والبغض، أبسبب صنعهم لأعشاشٍ في جدار البيت؟ أخي لم يكن يحب لا العصافير ولا صيدها؛ دائماً ما يكون عند العم عارف. عندما كان يقول لي "لا تقذفها بالحجارة يا أخي، العم عارف يقول إن لها هي أيضاً أمهات وأطفال، ويقول إن في ذلك إثماً كبيراً" كنت أتجاهله وأقذفها على أي حال. مع الوقت راحت زياراتي للعم عارف تقل بينما كان الوقت الذي يقضيه أردم معه يزداد أكثر.

كانت أيامنا في الحي تمضي دائماً في الأرض الفارغة المجاورة لبيتنا. كل يوم لنا ممتلئ بكل أنواع الشقاوات، وبسببنا كانت نساء الحارة يتعاركن مع بعضهن بعضاً. أكنّا نحن الأطفال؟ أم هنّ؟ لم أكن أفهم.

لا أنسى أبداً جمعنا للدود من تراب الحديقة الرطب وحشرها تحت باب بيت الخالة فاطمة وحشونا لفتحة قفل الباب الخشبي الكبير للعمّ عارف بالقش وسدّنا له. العم عارف المسكين كان أحياناً عندما يحلّ الليل يحاول إدخال المفتاح في قفل الباب، ومن يدري عندما يراه على ذلك الحال ماذا كان يفعل وكيف يغضب. لكن كيف كان ينجح في فتح الباب كل مرة؟ لم نعرف. حتى عندما أشعر بالندم على أفعالي كنت أطاوع أطفال الحي وأمارسها من جديد معهم. ربما ضحّيت بالعم عارف خوفاً من أن ينبذوني من بينهم.

حلّ الخريف وبدأت الدراسة. خبت أصوات الأطفال في الأرض الفارغة، وسيطرت على الزقاق عزلة هادئة. بدأ أردم الدراسة بالصف الأول بينما كنت بالصف الخامس. أحضرنا العم عارف ممسكاً إيانا بأيدينا. كان أردم متمسكاً بيده الكبيرة بشدة لدرجة أن المعلم أخذه بصعوبة إلى صفّه. كانت مدرستنا تقع على بعد عدة كيلومترات في الأعلى، في حي كان في الماضي قرية، إنها مدرسة أنيقة وصغيرة. كان العم عارف يهتم بأمر أردم أكثر من أمي وكأن عائلتي أودعته عنده أمانة. كان جدي دائماً ما يغضب بل ويحسد العم عارف، وعندما يقول: "ما الذي يجده طفلٌ في قدر عقلة الأصبع عند رجلٍ كبير مثله، لا أفهم. إنه مجنون وسيؤثر على الولد." لم يكن يأخذ كلامه على محمل الجد أحد.

بعد سنواتٍ وجد سلواه وفرحته بالأطفال فينا نحن. وذاق طعم الرغبة في التعليم والتربية معنا من جديد. كان يعلمنا الأبجدية بين رائحة الكتب العطنة وبيده بدل الطباشير مسبحة معطرة بتسعة وتسعين خرزة. وعندما بدأنا نقرأ الحكايات التي كان يعطينها مع الوقت، فرح كما يفرح الأطفال. أردم تعلم القراءة والكتابة وهو مازال في الرابعة من عمره. مهما كان الحي يراه كمجنونٍ إلا أنّ له هيبة العلماء ودفئاً يجذب المرء إليه. اختبأ خلف الكتب العطنة التي قرأتها لأول مرة، ربما حشر عمره الذي كان عبارة عن نصف قرن والذي ضاع ومُسح نتيجة حادث في غرفة واحدة من هذا البيت الكبير. كانت هذه الغرفة كالمعبد المقدس بالنسبة لي أنا وأردم. مع كل حكاية كان العم عارف يسردها كنا نغرق في خيالاتنا وكأننا تخدّرنا برائحة المسبحة الملتصقة بأصابعه الثخينة. عندما يطلب منا حفظ الحروف كان نوع من الطمأنينة ينسكب داخلنا، وتغمرنا رغبة عارمة في التعلم. وعندما كان يحكي لنا عن تلاميذه تدمع عيناه كما تدمع عينا جدتي عندما تدعو الله. عندها تبدأ أصابعه الكبيرة والغليظة بالارتجاف وتدوير خرزات المسبحة بسرعة. وبينما كانت مرارةٌ لا نعرف سببها تملأ الغرفة كان يمسد على رأسينا بيده.

كان العم عارف يصنع حلوى التفاح، يجهّز الخلطة الحمراء كل صباح في قِدر في فناء البيت. وأخي كان يحب الحلوى تلك أكثر مني. كنت أغضب منه كثيراً؛ في إحدى المرات وعندما قلت له: "لا تلعق هذه الحلويات، أنت تشبه الأطفال السيئين. فهي ليست لك، بل للبيع. أعدك أنني عندما أكبر سأشتري لك الكثير من الحلوى وستأكلها كلها." أجاب بحماس: "هل أنت جاد؟ هل ستشتريها لي؟ حسناً لن أفعلها مجدداً"

في كل صباح كنّا نخرج بصينية ألومنيوم وعدة قروش تناولها إيانا أمي لبيع الحلوى. في كل مرةٍ كان أردم ينجح في بيعها كلها بينما لم أنجح في ذلك ولو ليومٍ واحد. والبقية منها كنا نلعق سكرها ونلقي بالتفاحات. كنت أنتظر حلول المساء بفارغ الصبر. مع برودة المساء اللطيفة كانت العصافير تأتي إلى شجرة الغبيراء الكبيرة في حديقتنا، لطالما حاولت صيدها بالمقلاع ولكني لم أنجح ولو لمرة واحدة. كان جدّي هو من عوّدني على قذف الحجارة بالمقلاع.

صندوق جهاز عروس قديم . ربما أخذ حينا اسمه من زهرة الزعفران، رغم عدم معرفة الأطفال البؤساء الراكضين في أزقتها بأسماء الزهور...

ما الذي عرفوه أصلاً، الشوكولاته؟ أم الدراجة؟ أم الألعاب؟ لم يعرفوا أيّاً منها... لكن كانت حلوى التفاح تعوّض عن الشوكولاته بالنسبة لهم. تفاحات منقوعة في سكر أحمر ومغروس بها أعواد من الخشب... أنا وأخي وجميع أطفال الحي لم نكن نحب التفاحات، نحب سكّرها فقط. بالذات حين تكون ساخنة، عندها لا يمكن الشبع منها؛ نلعق سكّرها ونلقي بالتفاحة. ما المشكلة! وجود أشجار تفاحٍ في كل حديقة وكون سرقة التفاح من أسهل السرقات لا يجعل التفاح شيئاً قيماً ومرغوباً فيه.

أكبر وأشهى التفاح كان يتواجد في حديقة العمّ عارف، كانوا يسمونه المعلم عارف. لسنواتٍ طويلةٍ عاش في ذلك المنزل الكبير وحده. هو يرى بأن حافظة هانم، حبّه الوحيد، قد أخذت أبناءه الأشقياء وذهبت. ورغم انتظاره لها أن تعود مع ابنيه كل صباح إلا أنها لا هي ولا الأولاد عادوا. كان حادثاً مرورياً هو ماسوّى كل شيء في حياته بالأرض. حتى مهنة التعليم التي طالما أحبها أحالوه منها إلى التقاعد لحالته النفسية المعتلة، فودع العائلة الوحيدة المتبقية له في حياته، طلابه الصغار. لسنواتٍ طويلة مارس التعليم في أبعد القرى لكنه وقبل أن يشبع من هذا العمل الذي أحبّه أكثر من نفسه فصلوه عن أحبابه الصغار. بعد زمنٍ طويل عرفنا أنه حاول التدخل لفصل نزاع عشائري وتَلقّى حجراً على رأسه جعله يفقد وعيه. ذلك الحجر أخذ منه كل شيء؛ ذكرياته، وحتى أسماء أبنائه وزوجته. أما الراحلون، فلا يعودون مجدداً. رغم تحسّنه بعد سنوات إلا أنه لم يبق للعم عارف أي شيء في الدنيا كما كان في الماضي.

كان دائماً ما يحكي عن حبّه وغرامه. كيف كان لي أن أعرف الحب؟ أكان طعم الحب والغرام يشبه طعم حلوى التفاح ياترى؟ عندما كان يتحدث عن الماضي وهو ينظر إلى صورتهما في شبابهما المعلقة على الحائط كانت عيناه المنطفئتان تلتمعان من جديد. ينخفض حاجباه وتكسو سعادةٌ وجهه مع شفته المشدودة. كان أردم أكثر من يستمع إلى حكاياته، وهو أفضل من يفهمه. وكان يخبره بأنه سوف يصبح معلماً مثله عندما يكبر.

الجائزة الشرفية 2008 / إسطنبول -1

حلوى التفاح

أيهان آري*

"لم يكن هذا ماتوقّعته، لا، لم يكن هذا ماتمنيته"

لماذا تقال هذه الجملة في نهاية كل بداية جميلة؟ لماذا تجثم على أحلامنا صغيرها وكبيرها كالجاثوم. تجعل أحلامنا الجميلة تذبل وتذروها مع الريح. عندها تقولون ليس هذا ما كنا نريده. وتتمنّون لو كانت الحياة عبارةً عن فيلمٍ تستطيعون إعادة شريطه وإيقافه عند أماكن محددة.

آه من تلك الطفولة. الطفولة التي كنتم تحلمون فيها بأن تكبروا وتصبحوا بالغين، الطفولة التي تجعلنا نستعيد ذكرياتنا ونقول "عندما كنت طفلاً"، الطفولة التي تشتاقون إليها مهما كبرتم. تذكرونها من أثر جرحٍ في جسدكم، أو حبل أرجوحة معلقة على غصن شجرة توت مسنة في الحديقة. أحياناً من صورةٍ بيضاء وسوداء شاحبة قابعة في درج ما، تنتظر أن ينظر إليها أحد . تأتي اللحظة ويتم تذكّرها وتتحوّل إلى ابتسامة حلوة وزفرةٍ عميقة. وتأتي لحظةٌ تجعلك تشهق بالبكاء وتعجز عن الكلام. وقد تتمثل الطفولة في حلوى تفاح أو تغريدة عصفور.

في كل مرة أتذكّر إصلاح أمي وخياطتها لأحذيتنا البلاستيكية الملونة والتي تنفصل عنها ربطتها في كل مرة، تعتلي وجهي ابتسامةٌ مرّة. ويخيّل لي حينا بشكل ضبابي، حيّ الزعفران التي قضيت فيه طفولتي وبيتنا ذو الطابقين والشرفة الواسعة والسطح القرميدي وجدرانه التي خرقتها العصافير والأرض الفارغة بجانبه. أخبّئ كل الذكريات الجميلة القديمة داخلي، مثل

*ولد عام 1975 في مدينة الازي، تخرج عام 1999 في جامعة الفرات بتخصص اللغة التركية وآدابها. تم تعيينه في نفس السنة كمعلمٍ في إسطنبول ومازال يعمل بها في ثانوية باقركوي كمعلم للأدب.

حلوى التفاح

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

- سوف تنجحين، وأنا سأصبح معلمة مثالية مثلك بإذن الله.

قلتها وفكرت بأنها أصبحت منبع أملٍ بالنسبة لأطفالٍ آخرين الآن. منبع أملي... نور ظلمتي... مرشدتي للطريق... حبيبتي معلمتي...

بعد ثماني سنوات

كانت أول سنة لي كمعلمة... أطفال يهبون واقفين فور دخولي إلى الصف... صغار يهتفون وهم يردون التحية عليّ.... هاهم أمامي... تذكرت معلمتي. معلمتي التي لن أنساها.

لفعل الخير من جديد وبكل سرور. تذهبين بعيداً. نحو البرد والعدم...

بعد ست سنوات

نجحت بالصف الخامس بالجهد والمثابرة، أنهيت المتوسطة بالانتساب وسأبدأ الآن دراسة الثانوية. كنت في إجازة الصيف. رن الجرس. فتحت الباب وأطلقت صرخات الفرح: معلمتي!" بجانبها طفلة في الرابعة من عمرها. سألتها: "أهذه ابنتك؟" ابتسمت وقالت: "نعم هذه ابنتي أليف." انتهى شوق ست سنوات وتعانقنا بقوة. دخلنا البيت ورحت أحكي لمعلمتي:

- لقد اشتقت إليك كثيراً يامعلمتي. كنت أتخيّل وجودك أثناء غيابك وأذاكر. ونجحت في الامتحانات بفضل ماعلمتني إياه. ماذا عنك، ماذا فعلت؟

- كان عدد الطلبة في المدرسة التي ذهبت إليها منخفضاً جداً. معظم الطلبة لا يدرسون بسبب ضعف الإمكانيات المادية. وأنا كنت أسعى لمساعدتهم بالقدر الذي أقدر عليه.

- تعرفين يامعلمتي أن أبي افتتح فرناً قبل ست سنوات والآن وضعنا المادي جيدٌ والحمد لله. لأتكلم مع أبي لعلنا نساعد هؤلاء الأطفال. أريد من قلبي لهم أن يلتحقوا بالمدرسة.

- كم أنت طيبة القلب.

- لقد كان قلبي في زمن ما يحترق شوقاً للمدرسة وبفضلك... ابتسمت وأنا أتذكر الأيام الخوالي. ساعدتيني عن طريق المنحة المدرسية... وبالكتب الشارحة التي أعطيتني إياها... ماذا عسى الأطفال الذين لا يستطيعون الدراسة أن يفعلوا؟

- بعض الأطفال يعملون في الحقول. ومنهم من يعتني بإخوتهم في البيت. ومنهم من لا يذهب للمدرسة لأن عائلته لا تريد ذلك. كم هناك الكثير ليُفعل في تلك النواحي...

من الفرحة. ركضت وعانقت أمي ومعلمتي. قلت: "أشكرك جزيل الشكر." ورحت أركض في أنحاء البيت وأصرخ. "سوف ألحق بكم قريباً يا أقراني. هاهي دعواتي قد أجيبت. الحمد لله حمداً كثيراً."

انقضت إجازة الصيف. بدأت أدرس في الصف الثالث. كم كان الوضع غريباً. كيف تغيّروضعي في غضون سنةٍ واحدة، طبعاً ليس بجهدي وحدي. فكرت أني حال إتمامي للابتدائية خلال سنتين فسأتمكّن من دراسة المتوسطة انتساباً. مستمرة على الدراسة بنفس السرعة ومعتمدة على الدعاء دائماً...

كنت أجلس بالبيت. طُرق الباب، دخلت معلمتي. كنت سعيدةً لرؤيتها لكن وجهها كانت تعلوه أمارات حزن مختلطة بالسعادة. عانقتني وقالت: "سوف أتزوج. حفل زفافي في الأسبوع القادم. ولكن..." قاطعت كلامها: "كم هذا جميل، مبارك عليك، سعدت من أجلك." أما هي فأكملت: "لكني لن أبقى هنا. سوف أذهب مع زوجي إلى مدرسة في قرية بشرق البلاد. استحال فرحي حزناً في لحظة. "أتعنين أننا سنفترق؟ لكن... أمك وأبوك وإخوتك هنا..." اصطفت الكلمات في عقلي لكن لم أستطع النطق بأيٍ منها." سوف آتي لزيارتك. تعالي أنت لحفل زفافي أولاً." قالتها مبتسمة.

ونتيجة للجهود الكبيرة والمثابرة المستمرة أصبحت أستطيع قراءة القرآن الكريم. كنت في غاية السعادة. فالتمكن من قراءة كلام الله لابد أنه نعمة منه. اتخذت قراراً: "سأرتدي الحجاب." عندما أخبرت أمي بذلك لم أرها سعيدة بقدرماكانت عليه يومها. "ليرض الله عن المعلمة عائشة نور. علمتك أهمية الدعاء والصلاة والقرآن الكريم والحجاب. وفعلت مافي وسعها من أجل أن تذهبي إلى المدرسة. وساعدتني أنا أيضاً على تصحيح أخطائي. ليسدد الله خطاها أينما ذهبت."

يوم الزفاف... ذهبت إلى معلمتي بحجابي الأبيض. فوجئَت عند رؤيتها لي: "لك الحمد يارب. أهذه أنت يا سودة حقاً؟ كم أصبحت جميلة. ليباركك الله." قالت ثم أكملت: "إياك أن تحزني لذهابي. عندي ثقة بأنك ستقبلين في الثانوية، دعواتي معك. لأذهب أنا لمساعدة أطفالٍ آخرين. كم هناك الكثير ممن يرغبون بالتعلّم مثلك أليس كذلك؟" "نعم" قلت. ها أنت تذهبين

كالأخوات الكبيرات. لأسبوعٍ كامل درسنا ودعونا أنا ومعلمتي دون كلل أو ملل ليلا ونهاراً. فالدعاء مفتاح كل قفل...

بعد ثمانية أشهر

جاء يوم الاختبار. بصعوبة استدللت على طريق المدرسة من التوتر. رأيت معلمتي. قالت: "افعلي ما بوسعك، توكلي على الله." أشارت لي إلى الصف الذي سأدخل إليه. وبدأ الاختبار. .. حللت الأسئلة الأولى بسهولة وتجاوزتها لغيرها. حتى أسئلة الجمع والطرح كانت سهلة. حل فرح مكان التوتروالقلق. ولقراءتي الكثير من الكتب لم تكن أسئلة اللغة وغيرها صعبة عليّ. انتقلت لأسئلة الضرب والقسمة وأنهيتها كلها بثقة كبيرة من أجوبتي. قابلت معلمتي عندما خرجت. قلت لها: "كانت الأسئلة سهلة جداً، آمل أن كل أجوبتي صحيحة." ردت: "كل شيء سهل لمن يثابر..."

خرجنا للتنزّه سوياً. وفي أعيننا بريق السعادة. نمشي بين الأشجار المخضرّة على أنغام العصافير. أقول لمعلمتي: "أحبّك يا معلمتي جداً، أنا محظوظةٌ بوجودك. أنا أيضاً أرغب بأن أصبح معلمة مثلك." تأثرت معلمتي. قالت وفي عينها دمعة: "لقد سعدت جداً بكلامك. سنرى تلك الأيام أيضاً بإذن الله. بدأ الأذان يصدح أثناء حديثنا، سألتها: "مارأيك أن نصلي في الجامع؟ أنا متوضئة." لاحظت على وجهها مقدار سرورها بذلك. عانقتني قائلة: "يكفي أن تطلبي فقط..." ذهبنا إلى الجامع. مكانٌ هادئٌ ويبعث على الراحة... المعبد الذي يتحرر فيه الإنسان من همومه وغمومه... متى كانت آخر مرةٍ قدمت فيها إلى هنا... فكرت، لابد أنها كانت قبل سنوات. صلّينا مع الجماعة. وبعدها سبحنا وذكرنا الله ودعوناه.

كنت أستريح بعد عودتي من المدرسة. قلت لأمي: "هلا علمتني قراءة القرآن الكريم؟" أجابت: "بالطبع وبكل سرور." ثم باشرت تعليمي , بعد مدة دق الجرس. جاءت معلمتي. التفتت نحوي وقالت: "أحسنت يا سودة، أحسنتِ." ثم جلست بجانبي. أردفت: "لقد كانت كل إجاباتك صحيحة، لقد تحدثنا نحن المعلمين و..." في تلك اللحظة... اللحظة التي بالكاد استطعت أن أسمع فيها معلمتي من الفرحة والحماس وأنا أحبس أنفاسي... أكملت: "قررنا أن ننقلك إلى الصف الثالث لمستواك المتميز." لم أعرف ماذا أفعل

فتغمر قلبي الطمأنينة. حللت تماريناً في الجمع والطرح وأدّيت الواجبات التي طلبتها مني معلمتي. لم ألاحظ مرور الوقت. حلت الظهيرة ومازلت مع دروسي. رن الجرس. كان القادم معلمتي. قالت مخاطبةً أمي: "هل تقبلون بالمنحة التي تود منحها إياها المدرسة؟" كم كان تصرفاً مهذباً... وسألتني: "كيف هي الدروس؟" وابتسمت. صعدنا إلى الغرفة. أخبرتها بما فعلته: "لقد أنهيت الواجبات التي طلبت مني حلّها." "لقد قطعت مسافة كبيرة في وقت قصير ياحبيبتي. أهنئك على ذلك. سوف نختبرك في شهر حزيران. وحسب مستواك سنفكر في موضوع تجاوز الصف. حتى حلول حزيران سوف ننهي الكثير من الدروس بإذن الله. لا تقلقي. سننجح بإذن الله. سوف أدعو لك." "أنا سعيدة لسماع ذلك. سوف أدعو أنا أيضاً" قلتها ثم ودعتها.

كنت متعبة لمذاكرتي لدروسي حتى المساء. كانت أمي تصلي. رأيتها مطمئنة كمعلمتي. ماذا في هذه الصلاة التي يجدون فيها الطمأنينة والراحة. ذهبت إلى جانب أمي وقلت: "أمي كيف تؤدى الصلاة؟ أنا أيضاً أريد أن أصلي."قاطعت كلامها وهي تقول: "مازلت صغيرة..." "لقد كبرت يا أمي. عليّ أن أطبّق ما يطلبه مني ديني." قالت:"حسناً يابنتي، أنت محقة، يبدو أنني مخطئة. علينا أولًا أن نتوضأ حتى نصلي. هيا تعالي لنتوضأ." ذهبنا إلى الصنبور وتوضأنا معاً. كم هو جميلٌ تطهُّر الإنسان بالماء... عليّ أن أكون متوضئة على الدوام بعد اليوم. فالوضوء يحمي الإنسان.

خطرت معلمتي على بالي عندما ارتديت الحجاب من أجل الصلاة. مشاركتها للسميت معي، موقفي تجاه الحجاب... كلها مرت بخاطري. منذ مدة، ورغم رغبتي، إلا أني لم أستطع أن أقولها بلساني، "أريد أن أصبح معلمة." وأن أكون مفيدة للطلبة... أساعد الذين لم تتح لهم إمكانية الدراسة من أمثالي... هذه هي السعادة الحقيقية.

وقفت للصلاة بجانب أمي. أدّيت أول صلاة لي وأنا أقلد حركاتها. وضعت حفظ السور التي تقرأ في الصلاة أيضاً بين أهدافي. وتعلّم القرآن الكريم أيضاً... كله من أجل رضى الله... أهدافي... هي خارطة طريقي...

ذهبت إلى المدرسة وأنا لم أنم إلا لساعتين. كنت متعبة لكن مصرة على التعلم. كان الأطفال يلعبون في الصف. وأنا كنت أتغاضى عن شقاواتهم

أنهض وأصافحها، لم أستطع. فقد كنت محشورةً في مكاني. قالت ياغمور: "ماذا حدث؟ لماذا لا تقومين، أم أنك محشورة؟" وضحكت. ثم أضافت: "أنا أكبر من هنا، عمري إحدى عشرة سنة، وأنا لا أريدك في هذا الصف." لم تكن تصرفات كهذه تستطيع ثنيي عن الدراسة. قلت بيني وبين نفسي بأني سأتجاوز هذا العائق كما تجاوزت العوائق قبله واحداً تلو الآخر.

بلغنا الحصة الأخيرة أخيراً. كم كان يوماً طويلاً لا ينتهي. انتهت الحصة، جمع الجميع أغراضه وذهب. بقيت أنا في الصف ومعلمتي. جاءت إلى جانبي وسألتني: "أهناك مشكلة ياعزيزتي"

انخرطت في البكاء. وعانقت معلمتي بشدة. لقد عملت الكثير من أجلي. كأني عانقتها من أجل كل شيءٍ فعلته لأجلي، وقد كنت لا أعانق أحداً بإرادتي. عند عناقي لها أدركت مجدداً كم كنت أحبها ولا أرغب بفقدانها. قلت: "معلمتي..." لم أستطع أن أكمل. احتبست الكلمات. قالت: "بإمكانك أن تخبريني بأي شيء." قلت وعيني دامعة: "معلمتي، لا أستطيع النهوض من مكاني، أنا عالقة," خلصتني المعلمة من مكاني برفق. قلت: "لكن ملابسي تمزقت، ماذا أفعل الآن؟" وجدت لي معطفاً وأحضرته لي ثم اتجهنا نحو البيت معاً. كانت معلمتي أنا. تساعدني ليس في الدروس فقط بل في كل شيء.

بعد شهر

بفضل الجهود المكثفة مع معلمتي نجحت في تعلم القراءة. أصبحت أستطيع القراءة بسرعة. كنت أقرأ الكثير من الكتب في كل فرصة تتاح لي. الكتب... يالها من رفقة جميلة... أفضل الأصدقاء... محيط المعرفة...بدأت بقراءة الكتب التي أوصتني بها معلمتي، كانت تزداد معلوماتي كلما قرأت أكثر، وكلما ازدادت معلوماتي سعدت أكثر. الكتب الدينية بالذات... كانت تعلمني الكثير مما لا أعرفه...

اليوم هو الأحد... نهضت باكراً من أجل المذاكرة. نظرت من النافذة نحو الخارج. السكون محكم سيطرته. لم يكن هناك أحدٌ بالخارج، لابد أن سبب ذلك هو تعب الأسبوع. جلست على الطاولة ورحت أدعو: "اللهم فتّح ذهني وسهّل عليّ كل أمري." علمتني معلمتي هذا الدعاء. أردده قبل كل درس

بعدها التفتت إليّ قائلة: "الدعاء سلاحنا نحن المسلمين. حتى أنت بإمكانك أن تدعي الله. وأن تطلبي منه ماتشائين." الدعاء... لسنوات وأنا لا أدعو، معتقدة بأني أستطيع العيش بلا دعاء. كان من المهم إدراك أهميته أولاً بالطبع... استمررت مع المعلمة بمذاكرة الدروس لوقت متأخر. قالت لي إني بأداء واجباتي المنزلية سأرسّخ ماتعلمته وأنجح بإصراري وعزيمتي. شكرتها وودّعتها. تابعتها بعيني ولاحظت أن حتى الطرق باتت تبدو مختلفةً هذه المرة. يبدو أن كل شيءٍ يبدو جميلاً عندما يصبح المرء سعيداً. دخلت إلى الغرفة وأكملت مذاكرة دروسي. وأنا على تلك الحال طرقت أمي الباب ودخلت. أمي... المرأة التي لم تعلمني شيئاً حتى الآن لأني صغيرة بنظرها، والتي تقول أنها تحبني دائماً... كانت محجبة هي الأخرى كمعلمتي، كنت عندما أغضب من أمي ألقي باللوم على حجابها وأحقد عليه. احتضنتني أمي وقالت: "أرى فيك السعادة التي لم أرها منذ سنين. مبارك عليك المدرسة يابنتي."

بقيت مع دروسي حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل. بعدها خلدت للنوم بوجهٍ سعيد. فكرت بالليلة الماضية، كم تغيرت أشياء كثيرة في ظرف وقت قصير. بفضل من... بفضل معلمتي، أقولها بصوتٍ مسموع وغير مسموع. المعلمة... كلمة كنت أسمعها في فناء المدرسة، ولأنها لم تكن معلمتي كنت أقول "المعلمة". أما الآن فهي "معلمتي" أنا. شخصٌ يجاهد ويتعب نفسه من أجل أن أتعلم... يتراءى لي وجهها الباسم في مخيلتي فأغطّ في النوم.

استيقظت مع أذان الفجر. عدت إلى دروسي وأنا أفكر بأن عليّ أن أتعلم القراءة بأسرع وقت. كان هدفي الذهاب إلى المدرسة وقد تحقق، هدفي الجديد هو تجاوز الصف الأول.

عند دخولي إلى فناء المدرسة من البوابة سألني الطلبة: "يا عمة لقد تحطم كأسٌ في الصف، هلا جئت وساعدتينا في كنس الأرضية؟" لم أعرف بم أردّ عليهم. كيف لكم أن تشبهوني بعاملات التنظيف. أمسكت بنفسي عن قول "أنا طالبة هنا أيضاً" بصعوبة، كل ما استطعت قوله هو "هذا لا يخصّني." دخلت إلى الصف، كان المكان الذي جلست فيه بالأمس مشغولاً. فجلست في المكان الشاغر الوحيد، آخر مكانٍ بالصف. في الفسحة بين الحصتين جاءت بنت إليّ وقالت: "اسمي ياغمور، لنتعارف." ومدّت يدها. أردت أن

هو "الحالة المادية." حتى هو كان حزيناً ولكن لم يكن بإمكانه فعل شيء. قالت المعلمة للمدير: "ماذا لو أعطينا سودة منحة أيضاً." فردّ قائلاً: "لتبدأ سودة الانتظام في دروسها الآن والباقي سنفكّر فيه لاحقاً."

ذهبت إلى الصف بمعية المعلمة. لأول مرة سأجلس في الصف. صفوف المدرسة التي تخيلتها لسنوات... هاهي أمامي... جلست في مكانٍ شاغرٍ بالصف الأول. الجميع ينظر إليّ مشدوها. قالت المعلمة: "زميلتنا الجديدة: سودة" وعرفّتني إليهم. نظرات مشدوهة... أصوات ترحيب... ثم بدأ الدرس. كتبت المعلمة أشياء على السبورة وقالت: "في الدرس الماضي تعلّمنا حرف الميم. والآن نتعلّم حرف النون. حاولوا أن تكتبوا مثلي في دفاتركم مراعين للأسطر، وأنا سأساعدكم." جاءت إلى جانبي وقالت: "عند الانصراف سندرس سوياً ونقلّص الفارق بينك وبين زملائك، لا تقلقي." رن الجرس. جرس المدرسة التي طالما تمنّيتها... ركض الطلبة نحو الفناء. لم يبق غيري أنا والمعلمة في الصف. رأت وجهي عابساً فقالت مبتسمة: "أنا أثق بك، سنجتهد معاً. لا تحزني أنت، بل ربما يكون بإمكانك أن تتجاوزي صفاً حتى." منحتني ابتسامتها أماناً. انتهت الدروس، كنت ذاهبة مع المعلمة إلى البيت. كنت في الصباح أساعد أبي عند فرن السميت. والآن أنا أعود من المدرسة في المساء، لم أكن لأتخيل حدوث ذلك أبداً. أريد أن أصرخ لكل العالم بأني أصبحت طالبة مدرسة. أصرخ ملء جوفي... عند وصولنا إلى البيت بدأنا بالدراسة والمذاكرة. بعضهم يشتكي من ملل المذاكرة. أفكّر فيهم وأضحك، وهل يملّ من يرغب في التعلم من المذاكرة. ذاكرنا دون استراحة لمدة، بعدها قالت المعلمة: "عن إذنك، سوف أصلّي المغرب. سوف أجدّد وضوئي أولاً." ثم ذهبت إلى الصنبور. الوضوء... الغسل بالماء... الوجه أولاً أم الذراع؟ كم مرة؟ لا علم لدي. لفت انتباهي أدائها للصلاة وسط أعمالها الأخرى. لماذا تتعب نفسها إلى هذه الدرجة. لسنواتٍ قالوا لي بأني صغيرة، وبأني سأعوّض عندما أكبر.

اعتدلت للصلاة. كانت تبدو جميلة، عندما رأيتها بالحجاب الأبيض تذكّرت جدتي. جدتي... المرأة الجميلة التي حاولت تعليمي الأدعية وقصار السور في طفولتي... عند انتهاء معلمتي من صلاتها رفعت يديها وتمتمت بأشياء.

11 -

- هل تذهبين إلى المدرسة؟

- كلا.

قدّمت لي إحدى حبات السميت التي اشترتها. أذهلتني مجدداً. فكرت "تشتريها بالنقود وتعطيني إياها." أخذت منها السميت.

- أنا معلمة في هذه المدرسة القريبة. اسمي عائشة نور. أترغبين بالذهاب إلى المدرسة؟

- كثيراً! كثيراً جداً.

- سنكون سعداء برؤيتك في مدرستنا. كما أننا نعطي لبعض طلبتنا منحة للدراسة. سنتحدث مع الإدارة ونعطيك منحة بإذن الله.

التفتت لأبي وأمي وقلت : "لو سمحتم فسأسجل سودة في المدرسة." نظر أبي إلي. ولمعرفته بمقدار رغبتي بالذهاب إلى المدرسة قال: "حسناً، لنفكّر في الأمر طالما الفرصة مواتية أليس كذلك؟ مارأيك باسيدة أمينة؟" ابتسمت أمي. كنت أوشك على الطيران من الفرحة. لم أفرح بهذا القدر منذ أيام.في رأسي أفكارٌ مختلطة... متى وكيف... هل الموضوع بهذه البساطة؟

في الظهيرة... أظهرت الشمس وجهها قليلاً. بينما كانت القطط والعصافير تتدفأ كان قلبي يدفأ أيضاً. لأنني كنت في غاية السعادة.

ذهبنا إلى المدرسة. كان في الفناء أطفالٌ صغار. فكّرت "هل سألعب مع هؤلاء؟ أين من هم في سنّي؟". عندما ذهبنا إلى المدير كان قلبي يكاد يخرج من مكانه من الحماس. عرفتنا المعلمة إلى المدير. قال المدير:

- أهلا بك. كم مضى من عمرك ياصغيرتي؟

- 11 ياسيدي.

- لماذا تأخرت إلى هذا الوقت؟

... لم أستطع الإجابة. انعقد لساني. أطرقت بأسً ودمعت عيني. وهل كانت رغبتي أن أدخل المدرسة في هذا العمر وأدرس مع الأطفال الصغار... ربما كنت أواسي نفسي بأن هذا لم يكن ليحصل. كل ماقاله أبي للمدير

أيلول 2005

أول أيام الدراسة... اصطف الطلبة في الفناء. أنا كنت موجودة أيضاً لكن خارج الفناء. حزينة لعدم تواجدي معهم وارتدائي لزيي المدرسي والجلوس في صفوف الدراسة. تغمرني رغبة بالبكاء. أمسح الدموع المنحدرة على خدي بسرعة، وأستمر بمراقبتهم لمدة أطول. ثم أبتعد من هناك برفقة أحلامي. فأنا موجودة بأحلامي، سعيدة بها.

عند عودتي إلى البيت سألت أبي وأمي: "لماذا لا أذهب إلى المدرسة؟". أجاب أبي: "نحن نريد إرسالك إلى المدرسة. لكن ليس لدينا إمكانية شراء لوازم المدرسة والكتب لك." وأكملت أمي: "لا تحزني يا ابنتي، سوف نرسلك إلى المدرسة، ربما ليس هذه السنة."

بعد ثلاث سنوات

الديَكَة تصيح، والصبح يطلع. يومٌ جديد، صفحةٌ جديدة وأملٌ جديد... الساعة السادسة صباحاً، نهضت. نظرت إلى الخارج من النافذة. طرق ملأى بالحصى و الحجارة، و أناس يشعرون بالبرد، و قططٌ تحاول تدفئة نفسها، ووجوهٌ عابسة، أطفالٌ حاملون لحقائب وهم بالكاد يحملون أنفسهم... أسأل أمي: "أبإمكاني الذهاب إلى عند أبي؟" ردت أمي: "بعد أن ننهي أعمالنا نذهب إليه."

كان أبي يعمل في دكان السميت. قلت مبتسمة: "جئنا لمساعدتك يا أبي!" دخلنا إلى جانبه. كنت أشعر بالبرد مع مرور الوقت. أردد بيني وبين نفسي أن كسب المال ليس بالشيء السهل.

اقتربت سيدة محجبة ومتأنقة. هذا الحجاب... مفهومٌ بعيد عني... قالت بلسانٍ عذب أنها تريد حبة سميت. ذهلت، فلم يسبق لمحجبة أن عاملتني بهذه الرقة، كلّهن كنّ عابساتٍ في وجهي. أخذت خمس حبات من السميت وقالت لأمي: "أختي أمينة كيف حالك، هل أنت بخير، أهذه ابنتك سودة؟"وهي تشير نحوي. ردت أمي: "نعم عزيزتي، أنا بخير و الحمد لله." ثم قالت مخاطبة إياي:

- كم كبرت ماشاء الله؟ آخر مرة رأيتك فيها كنت في الخامسة. كم تمر السنوات بسرعة. كم عمرك الآن؟

جائزة هيئة التقييم الخاصة 2015/ أفيون

الأيدي الممدودة نحو السماء

سودة سُعَدا كورلاسين

العام 2001

سماء شديدة الزرقة، أشجار باهية الخضرة، أزهارٌ بشتى الألوان... كم كان إقبال الربيع واضحاً. كنت متمدداً على العشب أنظر إلى السماء. وأمي بجانبي. النسيم العليل يعبث بشعري، ويدغدغني فأضحك في كل مرة. أملأ رئتي بالهواء المنعش ذي الرائحة الزكية. بدأنا نطيّر الطائرة الورقية التي أحضرناها معنا. كم أنت حرة ومحظوظة أيتها الطائرة الورقية، كم تحلقين بجمال نحو السماء. بإمكانك رؤية البعيد، البعيد جداً، من يدري ماذا يوجد هناك؟ أنا أيضاً أرغب بالطيران، أرغب أن أطير معك.

أغسطس 2005

المدرسة... هي بالنسبة لي أكثر من مجرد مبنى، هي جسر يوصلني نحو أحلامي. لم أكن قد خطوت بقدمي على الجسر بعد. كنت أفكر بالمدرسة التي ستبدأ بعد انتهاء الصيف، بعد شهر. كم يكون جميلاً أن أذهب إلى المدرسة. كنت آخذ زيي المدرسي حينها وأضمه. عناداً للسنوات التي اشتقت فيها للمدرسة. أعلّقه في أجمل زاوية بخزانة ملابسي وأنتظر اليوم الذي تبدأ فيه الدراسة بفارغ الصبر. لم يكن هناك يأس. ففي النهاية أنا أيضاً سأعبر الجسر كغيري. أرغب بهذا من كل قلبي...

الأيدي الممدودة نحو السماء

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

والأطفال يهتفون بأفراحهم بحرية ويشاركون أحلامهم ويصرخون ويلعبون. وكان هنا الكثير من المعلمين الذين يسمعونهم.

لديهم مدرستهم أيضاً. مدرسة مبتهجة وسط الأطفال في النهار. لكنها تشتاق لأبيها حين يحل المساء. يخيم عليها الحزن ويغمرها الحنين!.. تشعر بأنها وحيدة ليس لها أحد. لو مر طريقكم في ليلة ما من جانبها فستسمعون صوت رجاء وصراخ. صراخ طفلٍ فَقَدَ أباه. يهتف دون توقّف أو ملل "مد يدك إلي يا أبي!"

السيد المدير بكلمة، قال: "إذا آمنتم بأنفسكم فستحققون ماتريدون، الإيمان نصف النجاح" كم كانت كلمةً جميلةً ياصديقي. ردد الأطفال بصوتٍ عالٍ "كلنا مؤمنون بنجاحنا" "إذا كنتم تؤمنون فإليكم هذه المدرسة لتتعلموا!.." عندها ضجت المدرسة بأصوات التصفيق. كانت سلمى ترغب بأن تصبح طبيبة، وفاطمة ممرضة... دخلوا صفوفهم ركضاً، فليس لديهم وقتٌ ليضيعوه.

تمر الأيام ومشاكل المدرسة لاتنتهي. فيومٌ تنقطع فيه المياه ويومٌ لاتعمل فيه المدافئ ويومٌ تظهر فيه مشكلة نقصان اللوازم الدراسية. والسيد المدير يدير المدرسة بكل نشاط ولايهمل ابنه أبداً.

***

هبت رياحٌ قويةٌ في يومٍ مشمس فجاءت بغيومٍ سوداء إلى القرية، وهطل من تلك الغيوم بَرَدٌ شديد أصابت أكبر حباته صديقي. وظهر إعصار في السماء ظنناه سيكنس الأطفال والقرية برمتها. لكنه لم يأخذ إلا صديقي. رأيته يقاوم الذهاب. لكن الإعصار كان أقوى. مد يده حتى يمسك بها أحد!..

بحث عن أحدٍ يقول: "لاتتركنا" لم يظهر من يمسك بيده أو يقول شيئاً. كف عن مد يده واستسلم... أثناء ذهابه لم تنظر عينه إلا إلى المدرسة.

علمنا بعد مدةٍ أنه يعمل في مدرسةٍ أخرى. لم يعد مجدداً، لم يرد أن يرى مدرسته مرة أخرى.

بعد تسع سنوات

بعد رحيل السيد المدير تخرّج مئات الأطفال في المدرسة. منهم من قُبل في ثانويات علمية ومنهم من قُبل في أخرى مميزة. لم ينس أي منهم مديره. سلمى الصغيرة كبرت وفازت بمسابقة "الدعم التام للتعليم" وهي الآن تدرس في ثانوية الأناضول.

***

في مكان ما شمال أورفا، في أعالي قرية صغيرة كان ثمة مرعى منبسط بين التلال. وسط المرعى ترتفع مدرسة. تأتي البنات اللواتي يرغبن بالتعلّم إليها،

لم يأت إلا الأطفال. كانوا يلعبون لعبة المعلم والطلاب وكأن بناء المدرسة انتهى. تخيلوا شكل المدرسة بعد أن تنتهي أعمال البناء، وفكروا في معلمهم المستقبليين، منهم من رغب بمعلمة ومنهم من رغب بمعلم.

كانت أعمال البناء تستمر بفضل محبّي الخير الذين أقنعهم السيد المدير ليمدوا يد العون.

في ظهيرة أحد الأيام جاءت عدة سياراتٍ سوداء من طريق القرية الترابي مخلفةً وراءها سحابة غبار. نزل منها رجالٌ يرتدون بزاتٍ سوداء. نظروا إلى منطقة البناء ثم سألوا السيد المدير:

- هل ستستطيعون إنهاءها؟

في الحقيقة كانوا يقصدون قول أنه لن يستطيع. الأطفال الذين تجمعوا خلف الرجال ومن بينهم سلمى نظروا إلى عين السيد المدير. وهو لم يفعل سوى الابتسام. حتى عندما رحلوا مخلفين وراءهم سحابة غبار خانقة كان لايزال مبتسماً. هو وجميع الأطفال!...

تمر الشهور. وصديقي تارةً يعمل كعامل بناء وتارةً كسائق ينقل الحمولات وتارةً يجول بالمتطوعين مثل وقف. كانت هذه المدرسة كابن له. وكان له في كل لبنةٍ وحديدة بصمة إصبع وفي كل خلطة إسمنت عرق جبين وفي كل طلاء متعةٌ دقيقة. يمنح المدرسة الحب الذي يمنحه المرء لطفله. ذلك البناء الكبير المصنوع من الحجارة والحديد البارد كان عندما يرى السيد المدير كأن الحياة تدب فيه ويبتسم لأبيه. يرى عزيمة وإصرار أبيه حتى ينهي البناء في أقرب وقت ويشعر بالفخر به. كنا جميعاً نكن له الاحترام الأب وابنه.

كان يوماً لامعاً برّاقاً. حصلت القرية على مدرستها أخيراً. أما صديقي فقد كانت تصرفاته مثل تصرفات أبٍ فخورٍ في حفل تخرّج ابنه. نظر مديرنا إلى أعين الناس بفخر من حقق حلماً ونجح في هدفه. قال بنظراته أشياء كثيرة ولكن لم يفهمه إلا الأطفال.

في السنة التالية قدم إلى المدرسة العديد من المعلمين والمعلمات. وامتلأت صفوفها بمئات الطلبة من القرى المجاورة. وفي أسبوع التعليم الأولي ألقى

الشاي قال شارحاً وهو يبتسم:

"رجوت منهم أن يحفروا حفرة أساسٍ فلم يكسروا خاطري."

فعل ما أراد فعله، راح يلاحق حلمه. أهناك أكثر نبلاً من تحقيق الأحلام؟

خلال مدة تجمّع عدد من الناس حول الحفرة. وراحوا يعلقون عليها تعليقاتٍ مختلفة. منهم من توقّع بأنها ستبقى على حالها ذلك إلى الأبد. ومنهم من قال أن بناء مدرسة لايتم ببناء حفرة فقط. بل إن منهم من قال بأن المدير يحلم بشيء لن يتحقق. وجدت القرية موضوعاً تتحدث فيه.

انتشرت حكاية الحفرة على ألسنة الناس. حتى إن بعض الناس من القرى المجاورة جاءوا ليروها. وكل من يراها يدلي بآرائه، كأنهم اقتنعوا بأن الحفرة ستبقى حفرة. كانت كل كلمةٍ قيلت على شفى الحفرة بمثابة حلمٍ ينطفئ.

في مساء أحد الأيام ذهبت أنا أيضاً إلى الحفرة. كان السيد المدير جالساً على حافتها شارداً يفكر، لم يلحظ مجيئي فجفل عندما ناديته.

- فيم تفكر؟

- أترى الأطفال عند مرتفع التلة؟

- نعم

- البنت ذات الفستان الأحمر، اسمها سلمى، ذكية جداً وترغب في الدراسة. معرفة أنها ستتمكن من الدراسة يهون علي كل المصاعب.

***

في وقت ما من صباح يومٍ ضبابي انحرفت شاحنة قادمة من الطريق نحو القرية. كان في حمولتها الكثير من قضبان الحديد الطويلة. هذه الشاحنة التي ظهرت من بين الضباب فجأةً كانت كأنما جاءت من عالمٍ آخر. وسط نظرات الذهول أفرغت حمولتها من أطنان الحديد بجانب الحفرة. فحص صديقي السيد المدير القضبان واحدة تلو الأخرى. التفت لي وقال مبتسماً : "رجوت شركة مقاولات فلم يردوني."

في الأيام التالية ارتفع من داخل الحفرة أساس بفضل الأعمال والجهود المكثفة. أما الذين جاؤوا لرؤية الحفرة من قبل فلم يأتوا لرؤية الأساسات.

***

في إحدى احتفالات العيد ألقى السيد المدير كلمته المؤثرة تلك. قال: "إذا آمنتم بأنفسكم فستستطيعون. فالإيمان نصف النجاح." كم كان كلام رفيقي جميلاً. ردد جميع الأطفال: "كلنا مؤمنون" ثم خيّم صمتٌ على المكان. كلهم كانوا يؤمنون بقدرتهم. ماذا عن الآن؟ بعد الإيمان؟ لم يخبرهم أحد. انتهت الاحتفالات. وتفرّق الأطفال. تفرقوا مؤمنين. لكن فاطمة مازالت تريد أن تصبح ممرضة. بقلبها وبكل طاقتها كانت ترغب في أن تصبح ممرضة. كانت طفلةً ولها أحلامها.

المطرينهمر.

استدعاني إلى مكتبه. شدهت عند رؤية ما على المكتب.

- ماهذا؟

- هذا مشروع المدرسة التي سنبنيها.

- أي مدرسة؟ ومن سيبنيها؟

- نحن سنفعل.

- كيف ستكون؟

- ستكون مدرسة كثيرة الصفوف. وبها عشرات المعلمين.

بعدها ابتسم وهو يبدو واثقاً من نفسه. لابد أنه مؤمن بما يفعله.

***

في أعالي القرية ثمة مرعى منبسط بين التلال. يمر من جانبه طريق مُعبّد. ينظر الأطفال إليه وإلى الذاهبين منه وكأن كل مسافر يذهب هو ملاكٌ يحلق نحو الحرية. كانوا يحسون بثقل التخلف عن غيرهم بأبدانهم الصغيرة. يعيشون قسوة العجز عن الذهاب. يتابعون السيارات التي تختفي في الأفق من بعيد... ومع اختفاء كل سيارة كان حلم أحدهم يختفي كفقاعة صابون في ماء.

في صباح ما جاءت المكائن الثقيلة للشؤون المائية. وصديقي أشرف عليها كما يشرف على أوركسترا، جعلهم يحفرون حفرة كبيرة. وفي استراحة

كان كل طفلٍ يختار طيراً لنفسه. فتستحيل قلوبهم قلوب طيور. تخفّ أرواحهم وتدخل في جسد طير فيطيرون نحو الحرية بنظراتٍ مترددة.

***

في أحد أيام الخريف؛ ابتسمنا للأطفال القادمين إلى المدرسة بابتساماتٍ على وجوههم وأزهار خريفٍ في أيديهم. فإهداء حبيبة أو أم أزهاراً يعتبر في هذه المناطق التي يُدفن فيها الحب في القلوب لمئات السنين تحدياً للعادات القاسية. كانت أزهار كل البراري من نصيب المعلمين. والأطفال لم يتركوا في الأرض زهرةً واحدة حتى. إذا لم تكن تلك الأزهار التي مدّوا بها إلينا تعبر عن انفجار الحب المكبوت في أعماق قلوبهم فما عساها تكون؟

في تلك السنة كان هناك الكثير من الأطفال الذين يجمعون الزهور. وكان لدينا مدرسة بصفٍ واحد فقط حتى نرد لهم ماأعطوه لنا، ولكن صفاً واحداً لم يكن يكفيهم. قرّرنا أن نحول مخزن الحطب إلى صف أيضاً عندما رأينا ازدحام الأطفال في الصف. كان مخزن الحطب في غاية الصغر بحيث كان لزاماً علينا أن نوسّعه لمترين على الأقل. قلت "نحتاج إلى عمال" فقال المدير "نحن موجودون" فقلت "نحتاج إلى عامل طلاء" فقال "نحن" فقلت وعامل بناء وحداد فقال "سندبر من القرية" أعتقد أن رفيقي مصمّم على تجهيز صفٍ جديد.

في تلك السنة وبفضل مخزن الحطب الصغير ذاك أصبح في مقدور الطلاب أن يجلسوا على كراسيهم في راحة. في ذلك الصف الضيق ذي السقف المنخفض والذي لاتدخله أشعة الشمس إلا قليلاً كانت سلمى تود أن تصبح طبيبة، وعلي مهندساً وفاطمة ممرضة. حسناً ولكن كيف؟ فكل قطرة تتسرب من السقف عندما تمطر كانت بمثابة فأس يقطع أحلامهم. ومع تزايد سكان القرية كانت المدرسة تعجز عن تلبية احتياجات الطلبة. كما أن العوائل لاتستطيع إرسال أبنائها إلى أماكن بعيدة بعد إتمامهم للصف الخامس.

سلمى تريد أن تصبح طبيبة. نظراتها البريئة تطلب المساعدة. ولكن كيف؟ كيف؟ ماذا عن إسماعيل! فهو يرغب في أن يصبح عالماً. أيمكن للأحلام أن تكون كبيرة بهذا القدر؟ الحلم يتجاوز القمم. يكفيه أن يحمي وجوده كحلم وألا ينطفئ.

الجائزة الشرفية 2007/ شانلي أورفا

مدّ يدك إليّ يا أبي!

قهرمان ألب كتيران*

يقال إن "القلوب الشريفة تضخ دماً صافياً وطيباً."
إلى الرجل الذي تبنّى الشرف والشهامة كمبادئ له...

كانت لديه جملة يرددها دائماً: "إذا آمنت بأني أستطيع فلايوجد شيء يعجزني."
أعتقد أن العزيمة والإيمان كانا موجودين في روحه...
قبل تسع سنوات...

في مكانٍ ما شمال أورفا، وفي أعالي قرية صغيرة كان ثمة مرعىً منبسط بين التلال. مستوى الأعشاب فيه يصل إلى محاذاة الركبة. تأتي البنات إلى هنا لرعي الخراف. وبينما الخراف ترعى كان الأطفال يهتفون بأفراحهم ويتشاركون أحلامهم ويصرخون ويسمعون أصداء أصواتهم. لابد من أن هنالك من يستمع إلى أصواتهم غيرهم في هذه الدنيا. ثمة طيور لاتكفّ عن الطيران بين الأطفال. كل خفقة جناح وكل انسيابة في الفضاء تذكّر بنشوة الحرية. لهذه الطيور رحلات لاتكتفي منها.

*ولد عام 1973 في مدينة شانلي أورفا. أتم فيها دراسته الابتدائية والمتوسطة. بدأ يزاول التدريس في شانلي أورفا بعد أن تخرج في جامعة تشوقور أوا. حالياً يعمل في ابتدائية شانلي أورفا الوقفية. متزوج وأبٌ لطفلين

مدّ يدك إليّ يا أبي!

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

وسيماً مثلك.

- وأنا ألست وسيماً؟ سأل المعلم رفعت النادل بنبرة فيها غيرة.

- ليس بقدر السيد الصغير. سامحني. قالها وابتسم مبتعداً. خلال فترة ليست بالطويلة انتهى الطعام.

بعد أن ترك المعلم رفعت أشياءً داخل الصندوق الذي جاء إلى طاولتهما نهضا وخرجا من المطعم. وحتى وصولهما إلى البيت تحدث مصطفى عن السباق وكيف سيفوز فيه غداً. عند وصولهم إلى البيت اختفت الفرحة من وجهه. لم يكن يرغب لذلك اليوم أن ينتهي أبداً. لكن لم يكن لديه خيارٌ سوى الدخول إلى البيت. بعد أن تمنى لمعلمه ليلة سعيدة وطرق الباب رد عليه صوتٌ غاضب من الداخل. كان زوج أخته. كان يمطر عليه الشتائم والإهانات لتأخره. أمسكه من ذراعه قائلاً:

- نم اليوم في مخزن الفحم حتى تتأدب!

قاطعه المعلم:

- لحظة من فضلك.

ثم قال موجّهاً كلامه لمصطفى:

- ادخل أنت يابني.

عند دخوله إلى البيت خرجت أخته أيضاً حتى تتحدث مع المعلم. كانت عظام مصطفى ترتعد من الخوف. بعد مدة دخلت أخته وزوجها وأغلقا الباب. تضاعف خوف مصطفى. لكن لم يحدث شيء مما كان يتوقع. من بعد ذلك اليوم لم يعد شيء كما كان في السابق. لم يعودوا يرفعون صوتهم عليه. واستمر ذلك حتى أنهى المرحلة الابتدائية. لا يُعرف ما الذي قاله المعلم رفعت لهما حتى اليوم. من بعد الابتدائية انتقل مصطفى ليعيش في سكن طلابي. ولم ينس فضل المعلم رفعت عليه أبداً. ومن المؤكد أن المعلم أيضاً لم ينس الطالب الذي علمه معنى التعليم. مصطفى الآن يدرس تخصص التعليم حتى يؤدي دينه تجاه معلمه. حتى لا يتخلف أطفالٌ كمصطفى عن الركب، ويتعلم معلمون كرفعت. الفرق الوحيد أن مصطفى سيكون معلماً بـ(نظارة). ومن يدري، ربما تتحد حياته مع حياة ساحرة قوى خارقة ويقود كفاحاً أكبر نجاحاً فيسبق الجميع في الخير.

- إنه جميل جداً عليك. بهذا تستطيع تجاوز الجميع في السباق.

لم يكن يمكن وصف السعادة التي حلّت داخل مصطفى الصغير. حتى الابتسامة التي كانت على وجهه تحتاج إلى أعمارٍ بأكملها حتى توصف. كان مجرد انعكاس السعادة تلك كافياً لجعل معلمه الذي لم يسعده من قبل سعيداً. من بعد دكان الأحذية ذهبا إلى الحلواني ومنه إلى القرطاسية وبعدها إلى المطعم.

صحيح أن المساء قد حلّ ولكن لم يكن يبدو على المعلم رفعت أي تعب. في العادة يكون نائماً في مثل هذا الوقت. في المطعم كان مصطفى يختار الطعام حسب الصور لأنه لايعرف القراءة. يشعر وكأنه في حلم. لكن رغم ذلك كان في كل تصرف له بعض التردد. لو كان أبوه حياً لجاء به إلى هنا. لطالما تحدث عن أبيه وأمه بأنهما كانا طيبين جداً. لا يتذكر بأن أمه جاءت معه إلى هنا أبداً، فلم يكن لها من المال مايكفي. فجأة تبددت بهجته تماماً. فقدت عيناه بريقهما كشمعة نفخ عليها. لم يفت على المعلم رفعت ملاحظة ذلك:

- ماذا حدث يامصطفى؟

- لاشيء معلمي، قالها ناظراً إلى الخارج.

- ماذا تعني لا شيء؟

- لقد تأخّر الوقت. سيغضب زوج أختي كثيراً.

- سأتحدّث معه، لن يغضب.

- أختي ستغضب أيضاً.

- لن تغضب، قالها بنبرة واثقة.

كان كلام معلمه بهذه الطريقة تمنحه ثقة وطمأنينة. كان قلقاً خوفاً من أن تقول أخته أو زوجها شيئاً. لكن كان هناك شيءٌ آخر لم يستطع قوله. فعندما يغضب أحدهما يحرمانه من الطعام. لكنه سيتناول اليوم طعاماً لذيذاً مع معلمه. لذلك لم يرَ بأساً في إغضابهما اليوم. جاء بالطعام نادل شعره مسرح إلى الوراء ومرتدياً قميصاً أبيض، وضعه أمام مصطفى، ثم أمام معلمه. بعدها قال مخاطباً مصطفى:

- بالعافية عليك أيها السيد الصغير. إنه لشرفٌ لنا أن نستضيف زبوناً

- سترى غداً، قالها المعلم رفعت.

لم يفهم مصطفى شيئاً مما يقولونه، لكن مادام معلمه يقول بأن أشياء جيدة ستحصل فلا بد من أنه صادق. لذلك لم يطل كلامه.

- حسناً الآن مارأيك أن نضيف قوة السرعة الخارقة إلى جانب قوة الرؤية الخارقة أيضاً؟

- وهل يمكن أن أرفض ذلك؟ قالها دون تردد.

كان الحماس في عينيه يقرأ بوضوح كأبيات الشعر. وكان كاتب ذلك الشعر هو المعلم رفعت. أدمعت عينا الطبيبة سمية وهي تنظر إلى عيني مصطفى التي لم يكن فيها شيءٌ سوى البراءة. مازال متمسكاً بيد معلمه. لم تكن الفرحة تسع مصطفى عندما خرجا من عند الطبيبة. سيكون بإمكانه الفوز على جميع أقرانه بالسباق. كانت هذه الفكرة وحدها تجعل ابتسامته تصل إلى أذنيه. بعد مشي لمسافة ليست بالطويلة دخلا إلى دكان أحذية عند رأس الزاوية. رحب بهما رجل طويل القامة خفيف الشعر ونحيل. كان بالداخل أحذيةٌ أكثر مما يستطيع مصطفى أن يعد بالأرقام التي تعلمها. أخذه المعلم نحو قسم أحذية الأطفال وسأله:

- أيها تجعلك تركض بسرعة أكبر؟

تجوّلت عينا مصطفى بين الأحذية المصطفة حتى السقف ثم توّقفت عند أحدها. أطال التحديق فيها. لاحظ المعلم رفعت ذلك فأشار إليها قائلاً:

- هذه؟

- قد لا أكون قادراً على كسب ثمنها نهاية الأسبوع معلمي.

قالها ناطقًا بجملة صاعقة أخرى. أشار المعلم رفعت إلى العامل وكأنه لم يسمع ماقاله ثم وضع الحذاء أمامه.

- هيا جرّبه.

- لكن معلّمي...

- ألا تطيع كلامي؟

أجابه مصطفى بارتداء الحذاء.

روحية لا تكون إلا بين أب وابنه. كان كلاهما يحسّ بذلك. أشار المعلم رفعت فجأة نحو البناء المقابل:

- هذا هو المبنى. في الطابق الثاني منه هنالك امرأةٌ تمنح الناس بشكلٍ في غاية السرية قوى خارقة. هيا بنا لنأخذ لك واحدة.

- حسناً. أريد قوة رؤية الأشياء البعيدة.

- حسناً. لنأخذ لك الكثير منها.

دخلا أثناء حوارهما إلى المبنى. لم يكن مصطفى يترك يد معلمه إطلاقاً حتى أثناء صعود السلالم. توقّفا عند بابٍ فولاذي مكتوب عليه عبارة لم يستطع مصطفى قراءتها، "الطبيبة سمية". ضغط المعلم على زر الجرس. بعد مدة وجيزة فتحت الباب سيدة تبدو مجنونة تضع أنف مهرّج على وجهها ومشبك غسيل على طرف حجابها. قالت بمجرد فتحها للباب:

- مرحبا بكما في مركز القوى الخارقة.

- شكراً لك. نريد أن تكون لنا قوة خارقة.

- جئتم إلى المكان المناسب. قالتها وتابعت وهي تنظر إلى مصطفى:

- سوف يصبح هذا الطفل أقوى طفل في المستقبل. وسيستطيع رؤية كل شيء !

- حقاً؟ سأل مصطفى بحماس شديد.

- نعم، قالت المهرجة.

لم يترك مصطفى يد معلمه بعد. ذهب وجلس في المكان الذي أشار إليه المعلم رفعت وساحرة القوى الخارقة المضحكة. أدنى رأسه من آلة غريبة وأسنده إليها. كان يظن أن القوة الخارقة تنتقل إلى عينيه. بعد عدة دقائق قالت ساحرة القوى:

- من أجل أن تصبح عيناك قادرتان على الرؤية بشكل خارق سوف يأتي لك غرض سحري.

- ماهذا الغرض؟ سأل مصطفى.

- غرض سيجعلك تبدو أقوى.

بيد مصطفى أن شنطة طعامه اهترأت أيضاً.

- أولاً سنزور إحدى صديقاتي. إنها تمنح الناس قوى خارقة.

- ماذا تعني قوى خارقة؟ سأل بحماس وفضول.

- مثلا، تعطيك شيئاً عندما تذهب إليها، فتستطيع بعدها رؤية أبعد الأشياء.

- كل الأشياء؟ هل أستطيع رؤية السبورة من الصف الأخير مثلا؟

- نعم، وليس السبورة فقط، بل كل شيء.

- كم إذا؟

- كم ماذا؟

- كم تكلّف؟

- لا تطلب مالاً. بالمجان.

- ولكن كيف يامعلمي. يقول زوج أختي، ألا شيء في هذه الدنيا بالمجان؟ حتى الطعام والنوم.

ابتلع ريقه بحزن عند سماعه لكلمات مصطفى هذه. ولم يجد مايرد به عليه.

- صديقتي هذه لا تطلب مالاً، هذا ما استطاع قوله.

- إذا طلبت فلدي المال.

بمجرد إنهاء جملته أخرج من جيبه قطعتين معدنيتين من فئة خمسة وعشرين قرشاً وواحدة من فئة خمسين قرشاً.

- وإن لم تكفِ فسأعوّضها من بيع السميت نهاية الأسبوع.

- هل تبيع السميت نهايات الأسبوع؟

- لم أبدأ بعد ولكن زوج أختي أخبرني بالأمس أنني سأبيع السميت نهاية الأسبوع.

لا يعلم ماذا كان يشعر في داخله ولكن وجهه لم يكن يعكس مشاعر جيدة. زادت شدة قبضة المعلم على يد مصطفى. كان في تلك القبضة رابطة

من حالته التي خرج وهو عليها. بعدها طلب من الجميع إقفال دفاترهم ثم لعب معهم ورددوا الأغاني سوياً. كان عيباً عندها عدم استيعاب أن غير السعيد لا يستطيع إسعاد غيره. وعند رنين جرس آخر حصة انطلق الطلبة الذين تجهزوا للانصراف قبل دقائق في ماراثون ابتداء من عند الباب بينما تقدم مصطفى إلى الصف الأول كالعادة. لم ينهض المعلم رفعت من مكانه حتى. كان يراقب مصطفى مبتسماً فقط.

- هل سيشتري اليوم زوج أختك لك أسرع الأحذية؟

- كلا، كان جواباً حاسماً ومختصراً.

- لماذا؟ ألم تتم خمسة وعشرون يوماً؟

- أتممتها ولكن...

- لكن؟

- يبدو أنه مشغول جداً، قال إنه لا يستطيع حالياً.

- هممممم.... حسناً، ألا تريد أن تسبق زملاءك في السباق؟

توّقف مصطفى عند هذا السؤال. أطرق بوجهه. ابتلع ريقه ثم قال بابتسامة قوية واثقة:

- لا بأس. سأسبقهم لاحقاً عندما يشتريه لي، كما أن حذائي هذا لم يهترئ تماماً بعد. لو جمعت بعض المال وأصلحته فسيصبح كالجديد.

كان بادياً عليه أثناء قوله ذلك أنه يريد الحذاء أكثر من أي شيءٍ آخر، كما يظهر عليه إحباطه وسط أنقاض حلمه بشرائه.

- هيا قم يامصطفى. لننتمشّ قليلاً.

- إلى أين معلمي؟

- إلى أماكنٍ تجعلك تركض سريعاً جداً.

- لكن السبورة...

- قم هيا واجمع أغراضك. سأعود حالاً.

ذهب إلى غرفة المعلمين وأخرج رداءه. عاد إلى الصف بعد وضع الكتب في رفها. كان مصطفى بانتظاره. أشار إليه بيده أن تعال. لاحظ أثناء إمساكه

بالتقدير. كتب المعلم عدة كلماتٍ أخرى على السبورة ثم راح يتجوّل في الصف بعد أن طلب منهم كتابتها. حاول لما يقارب العشر دقائق تعليم خاقان كيفية الإمساك بالقلم. تكللت مساعيه بالنجاح. ربما أكسب وطنه قلماً آخر بهذه الطريقة. تقدم من بعده نحو مصطفى. لم يكن يكتب. سيكون محقاً لو غضب عليه هذه المرة، ذهب إليه وسأله:

- لم لا تكتب يا مصطفى؟

- لا أستطيع الرؤية يامعلمي.

لم يستطع الغضب من هذا الرد. لم يكن ليغضب عليه أصلاً. خصوصاً بعدما أصبح أحد طلبته المفضلين بعد ماعرفه عنه بالأمس.

- أتريد الجلوس في المكان الشاغر بالصف الأول.

- لا يا معلمي.

قالها مطرقاً.

لم يستطع قول جملة أخرى. لم يرغب بالجلوس في الأمام خجلاً من حذائه المهترئ. عاد المعلم إلى طاولته. عند رنين الجرس ركض الصف كاملاً نحو الفناء. وبقي مصطفى و معلمه فقط. أخذ مصطفى دفتره وجلس في أول الصف. وأخذ يحاول كتابة الجمل التي لم يستطع كتابتها. كان مصطفى الذي ينظر ألف مرة ويكتب مرة ينظر بين وهلة وأخرى نحو معلمه ويبتسم. نهض المعلم رفعت من مكانه وذهب إلى جانب مصطفى بابتسامة خفيفة ومسح على رأسه.

- ألم تذهب إلى الطبيب؟

- أخبرت زوج أختي ولكنه قال "لا أستطيع أخذك إليه."

لابد أن عمله لا يسمح له.

- حسناً، هذا ما استطاع قوله المعلم.

احتبست الكلمات في حلقه من جديد. بعد قليل خرج من الصف. ومع رنين الجرس عاد مصطفى إلى مكانه في الخلف والطلبة إلى الصف في جلبة كبيرة. أما المعلم فقد جاء متأخراً قليلاً عن كل مرة. لكن وجهه كان باسماً. لا أثر

المكسرات الواقع في الميدان. سأذهب لأخذ صناديق الكرتون. أخبرتني أختي أن الشتاء قادم، وبأنها قد تنصب مدفأة في الغرفة التي أنام فيها إن جمعت أشياء كافية لإشعالها. عندما يبرد الجو لا أستطيع جمع شيء، أمرض دائماً. لو بدأت من الآن فسأجمع الكثير. فالغرفة التي أنام فيها تصبح شديدة البرودة في الشتاء.

ألم يكن ماقاله مصطفى من قبل كافياً لانهيار المعلم رفعت أصلاً؟ بين نظرات المعلم رفعت وأحمد بك تمنى لهما مصطفى مساءً سعيداً وخرج. وبقي المعلم خلفه متمسمراً مكانه. زاد غضبه على نفسه عندما تذكر تذمره حين يبقى في المدرسة لوقت أطول أحياناً. انتزعه سؤال أحمد بك من شروده:

- هل أنت بخير يامعلم؟

- معلم رفعت؟ معلم؟

- أحمد بك، هل بإمكانك أخذ دفتر الصف إلى الإدارة لطفاً؟

- بالطبع يامعلم

***

لم يخطر على عقله المشوش أن يشكره حتى. خرج من الصف تحت أنظار أحمد بك الفضولية. كان بدهيّاً أنه سيفكر في مصطفى تلك الليلة حتى الصباح.

في اليوم التالي كان الجرس يُعلِم الطلاب والمعلمين ببدء الحصة الأولى. تحولت كل الأصوات في الفناء والممرات والصفوف إلى الهدوء. وقف المعلم رفعت مجدداً بردائه الذي يشبه رداء الأطباء أمام طلبته الذي كرس حياته من أجلهم. ستبدأ أفراح التعلم من جديد. لكن المعلم رفعت لم يستطع التخلّص من الحزن الذي التصق بداخله. ضحكاته مختلفة، حتى دعاباته التي يفعلها حتى يسلّي التلاميذ ويزيد من تركيزهم كانت مختلفة. كلها تبدو كأنها تُفعل كراهة. عند نظره إلى مصطفى كان مصطفى ينظر إلى السبورة بدقة ويدقق في أصوات "با-، با-" كل تركيزه على السبورة، عيناه لا تفارقها ولو للحظة. تعلو وجهه تعابير غريبة. كأنه لا يفهم. لكن محاولاته جديرة

- بالطبع، أريد مشاهدتك. ولكنك سريع جداً لا أدري إن كان بإمكاني مشاهدتك.

قالها مرفقاً ذلك بابتسامة صعبة ثم أردف:

- لابد أنك قضيت الخمسة والعشرين يوماً بصبر نافذ.

- جعت قليلاً ولكنها انتهت كما ترى. كانت أمي توصيني بالصبر دائماً.

- ماذا تعني أنك جعت؟

- أخبرني زوج أختي أن كل وجبة آكلها تكلّف ليرتين. فإذا لم أتناول طعام وجبة واحدة لخمسة وعشرين يوماً سيكون بإمكانه شراء حذاءٍ لي. في البدايات كنت أجوع كثيراً لكني اعتدت بعدها.

كانت صواعق تنطلق في ذهن المعلم رفعت. كان تصديق ما يقوله مصطفى صعباً. فكّر في البداية أن عقل الطفل قد يكذب، ولكن وضعه الظاهري كان يؤيد ما يقول. لم يعرف ما عليه قوله. ولم يستطع فتح فمه من أجل قول شيء. كانت عينا مصطفى الناظرة إليه بكل براءة تسلط على عينيه شعاعاً من أمل. لا يذكر أنهما امتلأتا بهذا القدر من قبل. مئات، بل آلاف الأفكار كانت تمرّ بعقله. استطاع سماع نبرة صوت أخرى جزئياً بين كل هذه الأفكار. كان الصوت للفرّاش الذي يدعى أحمد بك: "كنت سأنظف الصف يامعلم، هل لديك عمل هنا؟"

نظر إليه نظرات فارغة. حاول لكنه عجز عن قول شيء. عندما تحولت نظراته إلى مصطفى من جديد كان يتجهز للانصراف. جاءه سؤال آخر:

- أستطيع أن أؤجل تنظيفه.

- لدينا عمل كثير في الحقيقة...

- لم أفهم يامعلم، عمل ماذا؟

- لا شيء يا أحمد بك، لا شيء.

قال لمصطفى بعد أن أخذ نَفَسَاً عميقاً.

- هل أنت ذاهب إلى البيت يامصطفى؟

- نعم معلمي. سأذهب مبكراً اليوم. سوف تأتي بضاعة جديدة لدكان بائع

- تـ تفضل مصطفى؟

كان المعلم رفعت ينظر إلى حذاء مصطفى لا إرادياً أثناء إجابته عليه.

- زوج أختي يامعلمي. سيشتري لي حذاءً جديداً اليوم.

- هممم... حقاً؟ هذا جميل!

- نعم معلمي. فاليوم أكمل خمسة وعشرين يوماً. سوف يشتري لي أسرع حذاء.

- أسرع حذاء... ها؟

قالها وابتسم.

لم يفهم معنى الخمسة وعشرين يوماً فقط. كان سيسأل ولكنه لم يجد في نفسه القدرة على ذلك. فكّر بأنه كان ينتظر موعد معاشه الشهري من أجل أن يشتري له الحذاء. حتى هذا كان له وقع مؤلم على رفعت المعلم. سأل فجأة:

- أجعلك زوج أختك تنتظر خمسة وعشرين يوماً؟

- نعم معلمي. فليرتان كل يوم يكون مجموعها خمسين في خمسة وعشرين يوماً. تلك هي قيمة أسرع الأحذية. بذلك الحذاء سوف أسبق (جان وخاقان وفخري) في السباق. أما بهذا فإني لا أستطيع الركض. يؤذي الحصى أقدامي.

- كان وَقْعُ آخر جملةٍ على المعلم ثقيلاً ساحقاً. غضب من نفسه لعدم ملاحظته ذلك قبل اليوم. كان عاجزاً عن النظر إلى وجه تلميذه. كانت عدم ملاحظته له في حاله هذه وهو الذي يعير تلاميذه الاهتمام الأكبر تقهره. خمسة وعشرون يوماً، وربما أكثر. كيف لم يلاحظ ويرعى الأمانة التي سوف تؤمن على المستقبل؟ كسر مصطفى الصمت مجددًا بينما كان معلمه يصارع أفكاره:

- هلا أتيت لمشاهدتي حينها يامعلمي؟

- متى يامصطفى؟

- عندما أشتري الحذاء السريع. أخبرتك أني سأهزم الجميع. اليوم اكتملت خمس وعشرون يوماً. غداً سيشتريه زوج أختي وبعد غد آتي به إلى المدرسة.

الطباشير يؤثّر سلباً عليه ويثير سعاله لكنه لا يلاحظ ذلك أثناء الدرس أبداً. ربما لا يشعر بالتعب الذي يستقر في عظامه إلا كل مساء عندما يعود إلى بيته. من المحتمل أن كل ماكان يفكر فيه هو العودة إلى البيت للراحة.

عند خروجه من غرفة المعلمين تذكّر أنه لم يسلّم الإدارة دفتر الصف فعاد إليه. قبل دخوله إلى الصف مباشرة سمع همهمات. كان صوت طالبه مصطفى.

-بببباااء تتتتتاااء.

لم يفهم المعلم رفعت ماذا كان مصطفى يفعل عندما رآه جالساً في الصف الأول وهو يكتب الأحرف ويرددها. كان نادراً ما يرى مصطفى يدوّن في دفتره شيئاً وقت الدرس. لماذا يكتب الآن؟ لماذا لم يكتب وقت الدرس؟ أكان عليه أن يعزو ذلك لكونه طفلاً؟ كان دفتر الصف فوق طاولة المعلم الذي كشطت خشبته. عندما دخل حتى يأخذه لاحظ مصطفى دخول معلمه ونهض واقفاً. ولأنه لم يكن هناك أحد غيره في الصف كان أسهل على المعلم أن يلاحظه ويدقّق فيه. كان الزر الثاني من الأعلى للزي المدرسي الأزرق الذي يبدو من أكمامه التي لا تصل إلى معصميه أنه ضيقٌ عليه أسوداً والأسفل منه بنياً. وفي مكان آخر الزر الأخير تم تثبيت إبرة بشكلٍ غير محترف. أما ياقته فقد كانت صفراء تميل إلى السواد، متسخة. قد يكون المعلم رفعت رأى حينها منظراً سيزعجه لأشهر. والحذاء في قدمي مصطفى كان بحاجة إلى الكثير من الشهود حتى يشهدوا بأنه حذاء. فقد كان ممزقاً متهتكاً من الأمام والخلف. احمّر وجه مصطفى عندما لاحظ أن معلمه يتفحص حذاءه. وسعى لإخفاء أحد قدميه خلف الأخرى. كان يعرف أن محاولة إخفاء حذائه بلا جدوى. شد على أصابع قدميه. قال بصوتٍ لايكاد يسمع "زوج أختي سيشتري لي طاقماً جديداً اليوم يامعلمي."

نظر المعلم رفعت إلى عيني مصطفى. كأنما كانتا قد جمدتا الوقت معه. فلا كان قادراً على الكلام ولا على الحركة. وإن تكلّم فما الذي سيقوله؟ وإن استطاع الحركة فأين سيذهب؟ كأن طالبه جمده بنظراته هناك.

- معلمي! معلمي!

كان في كل حرفٍ يسمعه، قلب يزيد حبه للتعليم. كان عدد الموجودين وفقاً للسجلات ستة وعشرين. لكننا لو حسبنا المعلم رفعت الذي كان بردائه الأبيض بين الصغار ذوي الزي الأزرق يجد سلاماً نفسياً في كل شيء يعلمهم إياه يصبح العدد سبعة وعشرين. الأحرف التي كانت تتردد في كل مرة كانت تسجل في الدفاتر كواجبات أيضاً. كان يجب حل الواجب للحصول على ممتاز ونجمة. وعندما يطلب منهم أن يكونوا أزهاراً* على كتاباتهم في دفاترهم أن تبدوا كالأزهار.

بعد أن وقّع المعلم على دفتر الصف جلس على كرسيه ومكث يراقب الصف. كان معظم الطلبة واقفين، حقائبهم في أياديهم، حقائب طعامهم وزمزمياتهم معلقة على رقابهم ينتظرون بتأهب من أجل الخروج راكضين. الجميع كان لديه من ينتظره بالخارج. منهم من تنتظره أمه ومنهم من ينتظره أبوه أو أحد أقربائه... عندها وقعت عينه على الطفل الجالس في آخر الصف. كان اسمه مصطفى. لم يكن يتصرف كزملائه الذين كانوا يعدّون الثواني بالحساب الذي تعلموه. لم يجمع أغراضه حتى. مازال دفتره مفتوحاً. لم يكن المعلم قد فهم تصرف مصطفى جيداً بعد. يبدو أن لديه الإرادة ولكنه رغم كل المحاولات لم يستوعب دروس القراءة والكتابة جيداً. وقد كان زوج أخته هو ولي أمره. لم يره إلا وقت تسجيله في المدرسة. وعلى حد علمه، كان مصطفى يعيش مع أخته بالتبنّي. توفي أبوه عندما سقط وهو يعمل بالبناء بينما كانت أمه حاملة به. أما أمه فقد فقدها في الصيف الماضي. وقع الطفل الذي لم يحظ بوقت ليتعرف فيه على الحياة في براثن أحد أصعب الامتحانات. أثناء تفكيره بذلك انطلق اللحن الذي يؤذن بوقت إثارة حشود الأطفال المنطلقة للغبار، انطلق الأطفال في نفس اللحظة نحو الباب. لم يكن ركضاً نحو من ينتظرهم، بل ركض من يحاول كسر رقم قياسي في ماراثون. عندما خفتت الأصوات التي بإمكانها كسر سجل ديسيبل القياسي خرج المعلم رفعت من الصف. كان متعباً كما في كل مرة. لكنه كان تَعباً لذيذاً بالنسبة له. قد يكون حلقه يؤلمه من كثرة الكلام. كما أن غبار

*عندما يريد المعلم من الطلاب أن يهدأوا يطلب منهم أن يكونوا أزهاراً فيتجمدون مشبكين أياديهم على صدورهم. (المترجم)

الثالث على تركيا 2015 / قسطاموني

المعلم رفعت

مصطفى أرسلان أر

في أول صفوفٍ أطلقت فيها أول شقاواتٍ ومواقف لا تنسى وأول صداقات، بل وحتى أول عراكاتٍ جذورها في خواطرنا... في الممرات المغبرة التي كانت مسرح ركضنا ذهاباً وإياباً على أصداء ألحانٍ لا

نعرف اسمها... في المدارس المزينة بالوجوه البشوشة والضحكات البريئة والأحلام الكبيرة للقلوب الصغيرة... أليس غريباً عجز الرياضيات التي درسناها عن إحصاء الذكريات الجميلة التي عشناها في المكان الذي تعلمناها فيه؟ وسط هذه الذكريات التي لا تحصى، كان لمعلمينا أكبر قدرٍ وقيمة. المعلمون الذين كانت أصواتهم تخشن دائماً، ويبتسمون بنظراتهم حتى حين غضبهم، الخاتمون على القلوب الصغيرة بحجم الكف بحب كبير كالجبال. .. المعلمون الذين يهرعون للمساعدة في أوقات الشدة، ويرشدون إلى الطريق دون تعريض إلى الصعوبات. أصحاب المهنة المقدسة التي استودعناها المستقبل.

كانت التقاويم تستهلك شهر شباط من عام 2002. وكان الصغار المرتدون لزيهم المدرسي ومتزينون بياقاتهم البيضاء في صفوفهم يرددون الأحرف الهجائية بأعلى أصواتهم. عيونهم على الأحرف التي يشير إليها المعلم متوسط الطول وخفيف الشعر، والذي يرتدي مايشبه رداء الأطباء الأبيض. كانت جدران المدرسة تُردد أصداء أصواتهم في كل مرة يشير فيها إلى حرف. ستة وعشرون قلباً كانت تخفق في الصف بحب التعلم. كما كان هناك قلبٌ إضافي تملّك حماس تلك القلوب الخافقة وجعلها مصدر سعادة له.

المعلم رفعت

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

تنقص من مسافة الطريق" وجهوده المبذولة دون كلل أو ملل وقراءته لكتابٍ كل يوم ودعاءِه بتحقق المستحيل. ليالي الشتاء الطويلة التي أمضيتها معه، تصرفاته الحكيمة والمرحة حتى في أعسر الأوقات ونظراته المقنعة كلها مازالت حاضرة في ذاكرتي. بعد سنوات رأيت صورته في صحيفة ضمن خبر عنوانه بالخط الكبير" مدير يفعل ماعجز عنه كبار المسؤولين ويحقق الصلح في قرية أنهكتها العداوة." كانت قصة نجاحه الجديرة بالإشادة مكتوبة في قرابة نصف صفحة. بنور عينيه الدافئ ذاك أضاء القرية وحقق فيها الصلح والسلام الدائم. أذاب الجليد في رؤوس الناس وغيّر الوجهة التي كانوا يمشون عليها ثلاث عشرة سنة. أهدى الأطفال مستقبلاً آمناً ومنيراً . مازالت نظراته المعلمة تلهمني إلى اليوم!.. أصبحت مثله أتقدم خطوةً خطوةً بكل صبر لاقلص المسافات الصعبة!..

***

بعد أن وزّع السيد محمد شهادات الطلبة عليهم واحداً واحداً ذهب إلى غرفته. ملأ حقيبته ببعض اللوازم وهو فاغر فاه. وبعد قليلٍ دنا من النافذة وراح يراقب الخارج. كانت الأشجار قد اخضرت والفراشات تطير من مكانٍ لآخر. وبجوار المدرسة تماماً كان العلم الأبيض والأحمر للمركز الطبي والذي كان على مشارف الانتهاء يرفرف. تجوّلت عينه بين أشجار الصنوبر التي مال لونها للزيتي وأعمدة الكهرباء والأطفال الذين يعيشون فرحة استلام الشهادات لمدة. وعلى مسافة قريبة بعض الشيء كانت مجموعة مختلطة من أبناء العائلتين يلعبون كرة القدم سوياً. لقد كافح لست سنواتٍ حتى يشاهد هذا المنظر. حتى في إجازات نصف السنة والصيف لم يغادر القرية. ثابر وكافح دون كلل أو ملل حتى حقّق حلمه أخيراً.

تذكّر أمه التي كانت تزوره كل فترة متجاوزة طرقاً صعباً عندما نظر إلى صورتها المؤطرة وتذكر قولها بنبرة معاتبة: "بُني، هل ستبقي نفسك رهناً لشرق البلاد؟". سوف يقول لها بعد يومين : "لا يا أمي، لم تعد هنالك حاجة لتمضية كل عمري هنا" ويحضنها بالقوة التي تركها فيه فراق خمس سنواتٍ ونصف. نعم سيحضن أمه متأخراً ولكنه بذل تلك التضحية لأجل أن يرى طلابه يحضن بعضهم بعضا.

وجهه علامات الخجل مما حدث. أدرك المدير أنه ومن أجل سلامٍ دائمٍ لابد من جهودٍ دائمة أيضاً، هذه الضرورة ستجعله يتخذ قراراً في غاية الأهمية.

انتهت العطلة واستؤنفت الدراسة. عاد السيد المدير يرافق أبناء عائلة أقداغ. بل أحياناً مايرافق الكبار أيضاً خوفاً من نشوب عراك. في هذه المرة لم يكن هناك الكثيرون ممن امتنعوا عن إرسال أبنائهم إلى المدرسة بحجة العراك الأخير. حتى من افتعلوا المشاكل سرعان ماهدأوا ووافقوا. لأن الجميع كان يعلم جيداً أن السيد محمد سيفعل اللازم من أجل تعليم الأطفال وتأمين سلامتهم ويعرف كيف يتعامل مع أي أزمةٍ محتملة. لم يكن هنالك من يعتريه أدنى شك بخصوص ذلك. أصبح السيد محمد شخصاً قيماً ومحترماً مشتركاً لدى العائلتين، فقد كسب حب الجميع وثقتهم، كبيرهم وصغيرهم. تماماً كما كسب ثقة السيد القائمقام!..

بدأت أول الجهود من أجل إمداد القرية بالماء. وبعد ثمانية عشر يوماً تم مد القرية بماء الشرب. كانت الفرحة والبهجة تغمر الجميع، خصوصاً السيدات اللواتي كنّ مضطرات إلى سحب الماء من الآبار. وبعد شهرٍ ونصف، وبين نظرات أهل القرية المذهولة تم نصب أول عامود إنارة كهربائي. كان الجميع صغيراً وكبيراً سعيداً سعادة لاتوصف ومليئاً بالحماس!..

أواصر العلاقة والزمالة بين الطلبة تتوطد أكثر فأكثر. يشاركون ويساعد بعضهم بعضا، بل إنهم بدأوا في بذل التضحيات من أجل بعضهم أيضاً. زرع السيد محمد في معظم الطلبة العزيمة وحب سلام يصعب تصديقه. كانوا هم بدورهم يؤثرون في الكبار. أصبح الآن في كل بيتٍ على الأقل رسول سلام واحدٍ يرغب بإنهاء عداوة الأهالي السخيفة. حتى في انطلاق أصغر شرارة خلاف كان الأهالي سرعان ما يجدون مديراً مثقفاً محترماً أمامهم يعرف ماعليه فعله.

***

بقيت في تلك القرية لسنتين بعدها طلبت أن أنقل إلى مكانٍ آخر وانتقلت. عند مغادرتي كانت المشاجرات رغم ندرتها إلا أنها مازالت تنشب في القرية. لم أر السيد المدير بعدها. لكنني لم أنس حمله للقرويين المرضى على عربة الخيل واعتلاءه التلال الثلجية في أنصاف الليالي ومقولته "كل خطوة

نحو المدير وهمس في أذنه: "كيف لهذا أن يحدث أيها السيد المدير؟ أليست عوائلهم متخاصمة؟" فيجيبه: "نعم ياحضرة القائمّقام ولكننا نعمل على حلّ" فيزداد ذهول القائمقام. أثناء مشيهم نحو غرفة المدير قال: "قدمت إلى هذه القرية ست مراتٍ من أجل حل هذه المشكلة وإحلال السلام فيها وأحضرت برفقتي أشخاصاً معتبرين من المنطقة. لكني لم أنجح في أي منها. كلا الطرفين مخطئ، وكلاهما لا يدنوان من بعضهما بعضاً. من الطبيعي أن تستمر الخصومة لثمان سنوات!..هنالك خمسة قتلى وعشرات الجرحى من الطرفين، هذا ليس سهل. لكني فوجئت وذهلت. نحن نحاول كثيراً من أجل أن نجمع كبار العائلتين معاً، لكن حتى الأطفال لم يكونوا يقتربون. أرى أنكم قمتم بخطواتٍ مفيدة جداً. أخبروني لو كان هناك شيء أستطيع فعله، سأفعله حباً وكرامة." كان يبدو عليه أنه يتحدث بصدق نية وحب للخير. يجيب السيد المدير: "بالطبع هنالك ماتستطيع فعله، كما ترون فالقرية ليس بها لا شبكة ماء ولا طرق ولا كهرباء ولا هاتف ولا مركز طبي، أعتقد أن حل هذه المشاكل تدريجياً سيساعد في جلب السلام إلى القرية."

هذا التطوّر الأخير جعلنا نتفاءل كثيراً. فقد حصلنا على دعم أكبر مسؤول محلي. من بعد ذلك اليوم أصبحت زيارات القائمقام تتكّرر بوتيرة أكبر إلى القرية. يتلقى التقارير من السيد المدير ويتبادل الأحاديث مع القرويين والأطفال. حتى هو كان متحمساً للتطورات الحاصلة ويراقبها بفضول عظيم.

***

بدأت إجازة الفصل الدراسي في آخر أسبوعٍ من شهر يناير. غادرت القرية في أول يوم للإجازة بينما بقي المدير لعدة أيام حتى يراقب الأوضاع. بعدها سافر لعشرة أيام. لكن قلبه لم يكن مطمئناً. وحصل ماكنّا نخشاه، فعندما عدنا علمنا بنشوب خلاف مسلّح نتج عنه خمسة جرحى على الأقل اثنان منهم إصابتهم بليغة.أفقدتنا تلك المعركة كل المكتسبات وأفسدت كل شيء من جديد. عادت الأمور لحالها السيء القديم، من الجيد أنه لم يقتل أحد وإلا لزاد الطين بلة. لكن عودة السيد المدير إلى القرية غيرت كل شيء فجأة. فقد كانت ثقة الأهالي المطلقة تسهّل الأمور.حتى أن كثيراً منهم كانت تبدو على

المدير الذي وقف أمامهم وأوقفوا هجومهم وإن كان ذلك متأخّراً. أمر الفريق الذي ألقى بالحجارة أن يتفرقوا، وأرسلهم جميعاً إلى بيوتهم. بعدها باشر بفحص الأطفال الذين تعرّضوا للهجوم، كان بعضهم مصاباً بجروحٍ في أماكن متفرقة. بعد أن ضمّد جراحهم أوصلهم إلى بيوتهم. اتضح بعد ذلك أن امرأةً كان زوجها قد أُطلق عليه النار في آخر اشتباكاتٍ قبل ثمانية أشهر هي من حرّضت الأطفال على الهجوم.

***

زرعنا في حديقة المدرسة وأمام منزل كل طفل شجرةً واحدة على الأقل. الأشجار التي أمّنها السيد المدير من مديرية الزراعة كالصنوبر والأكاسيا والمران والغلاديشيا وأشجار التوت زرعناها في أماكن متفرقةٍ في القرية. هذا العمل التعاوني الذي أنجزناه بمعيّة الطلاب والأهالي كان له فائدةٌ نسبية في هبوب نسيم السلام. أفراد كلتا العائلتين شاركوا معنا. أقنعنا الأهالي بأن يسقوا الأشجار من المياه التي يتوضأون أو يغسلون أيديهم ووجوههم بها.

بعد مرور مدةٍ ليست بالطويلة سمعنا بخبر قدوم القائمّقام إلى القرية. حلّ على جميع القرى حماس وأجواء استعدادية. كان أول ما فاجأ القائمّقام هي الأشجار الخضراء التي رآها في القرية. بعدها جاء إلى المدرسة. دخل إلى فصلنا وأخذ يحادث الطلبة المتحمسين.

- ما اسمك، أنت ياطفلتي؟

- مليسا أقداغ.

- ماذا ستصبحين عندما تكبرين؟

- سأصبح مديرة.

- جميل

ثم التفت لطفلٍ بجانبها وسأله:

- وأنت ما اسمك؟

- سليمان زنار. أجاب بحياء.

لم يخف القائمّقام ذهوله عند سماع الاسم. قال متمتماً: "زنار؟" ثم اتجه

هذا يعني أن الإسكندر الأكبر فصل الحبل المتين عن بعضه بعضاً لكنه لم يحلّ العقدة فعلياً!.."

فهمت ما أراد المدير أن يقوله. نعم كان محقاً. كان يثبت لمن أمامه بأنه محقّ باختيار جمل مناسبة جداً دون كسر خاطره أو إثارته. جعلتني كلماته هذه أفكّر مليّاً، لأنه كان محقاً. لابد أن هنالك طريقة أخرى للتأثير في هؤلاء الفقراء والمعدمين.

***

في البداية جعل المدير أطفال العوائل المتعاركة يجلسون في صفوف منفصلة لمدة أسبوع. خلال مدة لم تحصل أية مشكلة. بعد فترة راح يجلّسهم في نفس الصفوف، عدا مشكلةٍ أو اثنتين بسيطتين لم يحدث شيء. والطلاب بدأوا يعتادون على هذا النظام. بل إنهم مع الوقت راحوا يستعيرون الملازم من بعضهم بعضاً. خلال هذا كله لم يكن المدير يغفل عنهم أبداً بالطبع، يشرف على كل شيء بعناية بالغة. داخل وخارج المدرسة يحاول أن يجعل الأطفال تحت السيطرة. في ظرف عشرة أيام لم يبق بين الأطفال أي عداوة، أصبحوا يلعبون ويمازح بعضهم بعضاً.

بعد عدة أيام وعند وقت الانصراف تجمّع الأطفال بحكم العادة عند الباب منتظرين من السيد محمد أن يرافقهم إلى بيوتهم. لكنه فكر في شيء مختلف ذلك اليوم، قال لهم: "يا أطفال، لن أرافقكم اليوم إلى بيوتكم ولكني سأراقبكم من بعيد. إذا حصل أي شيء سيّء فسأتدخل فوراً، لا تقلقوا." لأول مرة يخرج الطلاب من المدرسة إلى بيوتهم وحدهم. والمدير يراقبهم بحرص. لم يحدث شيء مكروه. وبينما الأطفال يبتعدون خطوة فأخرى سمع من بعيد صراخ امرأةٍ مع أصوات شتائم. توقّع السيد محمد أن شيئاً حدث. قبل أن يمضي وقت طويل كان أبناء عائلة زنّار يرجمون زملاءهم بعنف. يهرع السيد المدير نحو موقع الحادثة، عند وصوله كان أبناء عائلة زنار المتعرضين للهجوم يحاولون الهرب وهم يحمون وجوههم ورؤوسهم. بينما كانت المجموعة الأخرى منهمكة في إلقاء الحجارة دون توقّف. هرع أحد القرويين في متوسط العمر إلى موقع المعركة وراح يساعد المدير في فضّ العراك. من الجيد أن الفريق المهاجم استمع إلى تحذيرات

كنت أضرب أذرعهم بقوة حتى يفلتوا بعضهم. من حظنا أننا فرّقنا الأطفال قبل أن يتفاقم الموضوع ودون أن تحصل إصابات خطيرة. أخذناهم جميعاً إلى فصولهم بصعوبة. فتح المدير بابي الفصلين الذين يطلان على بعضهما وراح يتكلم بصوت يسمعه الجميع :

"يا أطفال!.. لا أريد لما حصل أن يتكرر مرةً أخرى. كلكم إخوة، أصدقاء، عليكم ألا تعودا لفعل الخطأ الذي يفعله الكبار. على العكس من ذلك تماماً، أنتم كأشخاصٍ متعلمين عليكم أن تصلحوا لهم أخطاءهم. بالعراك والفوضى لا يمكن حلّ شيء كل ما ستفعلونه هو مفاقمة الأمور وإيصالها إلى حد لا يمكن الخروج منه. لاتنسوا أن العراك يولّد عراكاً والكراهية تولّد كراهية..."

لم نخرج بعدها إلى الفسحة ذلك اليوم. تحدثنا معهم بشكلٍ مطولٍ محاولين أن نهدّئ الجوانب العنيفة فيهم.

عند وقت الانصراف اصطحب المدير الطلاب إلى بيوتهم. كان قلقاً من أن يرفض بعض أولياء الأمور ممن سمع بما حصل إرسال أطفالهم من جديد. تأخّره مدة ساعتين جعلني أدرك أن مخاوفه كانت محقة. عاد منهكاً وجلس إلى جانبي. " الابن يعاني من جريرة أبيه. مؤسف ما حدث للأولاد، بعضهم جروحه بليغة. خمس عشرة عائلة على الأقل ترفض إرسال أبنائها من جديد. حاولت إقناعهم ولكن بلا جدوى. سأحاول غداً صباحاً من جديد. أتفهّم مخاوف الآباء والأمهات، لكن لا يمكن لهذا أن يستمر، علينا إيجاد حلٍ نهائي لهذه الأزمة" قال ذلك بنبرة قلقة وأضاف: "لن تصدق لو أخبرتك أن كل شيء بدأ بحدث بسيط. تعرف، أحياناً ينطق الإنسان قبل أن يفكّر فيما سيقول." صمت لبرهة، شرد بعيداً ثم التفت إليّ مجدداً وأكمل: "يامعلم، هل سمعت بأسطورة عقدة غورديون؟" لم أسمعها. أكمل كلامه: "يحكى عن عقدة أسطورية لم يستطع أحدٌ حلها عندما تقدمت جيوش الإسكندر الأكبر نحو غورديون. كانت غورديون، واسمها الحالي صقاريا مدينة تقع على طريق جيوش الملكية الفارسية العابرة للنهر. كانت هناك عقدة محكمة طرف حبلها غير ظاهر، مربوطة بخشبة ويستحيل حلها. عند عجز الإسكندر عن حلّها بيديه أنزل عليها ضربة بسيفه وأنهاها تماماً.

يجلسهم المدير حالياً. ثم يقف المدير أمام صفه، ويراقب صفّي أنا بين حين وآخر. ويتلقّى مني تقريراً بتصرفات الأطفال. يتصرف بدقة متناهية واعياً بثقل المسؤولية التي يتحملها.

لانعرف، أكانت العقدة التي تتركها الضمادات المقززة على رؤوس الأطفال داخلنا أكبر أم الألم الذي يتركه تعرّض آباء وأعمام الأطفال للقتل بسبب عداوات لا معنى لها؟ في حياة الأطفال اشتباكات مطردة وعداوات قديمة وقتلى وجرحى بين فترة وأخرى، لا تعدم البغضاء والكراهية منها. كيف لشكاوى الحال التي تتردد على ألسنة الكبار، والتي لا تمنحهم فرصة ليشتاقوا للمعيشة الهادئة المطمئنة أن تغير قدرهم الأسود الذي يقبض على خناقهم؟ كم من حيواتهم تستطيع المكتبة والسبورة وصورة الفصول الأربعة ولوحة الشريط الزمني للتاريخ والخرائط ومطويات القراءة والطباشير الملونة أن تملأ في مثل هذه الظروف؟ كان البؤس الذي يُشعَر به في كل متر من بيوتهم، والحيرة واليأس والكدر الذي كان سببه انعدام شبكة الكهرباء والماء والطرق والهاتف وعدم وجود مركز طبي في هذه القرية رغم أننا في القرن الواحد والعشرين يوجع القلب.

في أول حصتين لم نواجه أية مشاكل. مع رنين جرس فسحة الحصة الثالثة سُمعت جلبة في الممر. كان صدى الشتائم والعراك يتردد في ممرات المدرسة. تدخّل الطلاب محاولين تفريق المتعاركين أسرع منا. سادت المكانَ الفوضى، حاولنا نحن أن نتحكّم بالمخارج للحفاظ على النظام لكن أول الخارجين اشتبكوا مع بعضهم بعضاً بعد تبادل الشتائم. هرعنا لفصلهم لكن فصل الكثير من الطلبة المتكتلين في عراك ليس بالسهل أبداً. كلما فصلنا بعضهم بدأ آخرون بلكم بعضهم بعضاً. الملوحين بالعصي والواقعين على الأرض والملقين بالشتائم والممزقة قمصانهم والمعرضين لخطر الانسحاق تحت الأقدام اختلطوا ببعضهم بعضاً. يصرّ الأطفال على العراك بشكلٍ عنيفٍ وخشن كالبالغين. حتى نحن نلنا نصيبنا من بعض الضربات. انعقد لساني. بينما كنت أحاول فصل الأطفال دون أن أؤذيهم فقدت السيطرة على نفسي فجأة ورحت أدفع بعضهم بشكل سريعٍ نحو الأطراف. قسم من الأطفال كان بسبب دفعي العنيف يصطدم بالجدار ويسقط بقوة على الأرض. بعضهم

***

كان كبير عائلة أقداغ، العم سيدي قد سئم من الجدال الذي دام لساعتين والذي رفض أن يعترف فيه كونه على خطأ. كما أن مدير المدرسة كان يحشره في موقف محرج وهو يثبت له فساد كل حججه وأعذاره أمام كل أفراد العائلة.

يسأل العم سيدي رافعاً صوته :"هذا كلام في الهواء فقط أيها السيد المدير! كيف ستؤمّن سلامة كل هؤلاء الطلاب؟" الجميع ينتظر إجابة السؤال. والعيون تلتفت نحو السيد محمد. فيجيب السيد محمد بنفس النبرة المصممة :"سوف أؤمّنها بنفسي!" ويكمل متابعًا: "في الصباح المبكر سوف أستلم أطفالكم من أبواب بيوتهم وأذهب بهم إلى المدرسة، وعند الانصراف أعيدهم. حتى أثناء الدروس والفسح سوف أقوم بتأمين سلامتهم". يخيم صمت عميق على المكان، والعم سيدي ينظر أمامه كقائد خسر آخر سلاحٍ له في المعركة. ينزع قبعته و يحك شعره الرمادي أولًا بحركاتٍ ثقيلة ثم شاربيه. نظراته تتنقل بين بعض أفراد العائلة. بعد وهلة ترتخي عضلات وجهه المشدودة، وينظر بوجهه المجعّد إلى السيد محمد قائلاً: "أنت المعلم الوحيد في القرية، وبين بيوتنا وبين المدرسة مسافة ثلاث مئة متر على الأقل. هل ستفعل ما تقول جدياً رغم الشتاء والثلوج والوحول والأمطار؟"

***

ليلة أخرى انتهت وأمامي يوم ثانٍ ثقيل ينتظرني. بمجرد استيقاظي يتّحد البرد الذي تصعب مقاومته مع الضباب شديد البياض وظلمة الصباح المتعبِة ضدي. لا بد أن السيد المدير قد خرج قبل ساعة على الأقل، سيأتي بعد قليل، وأنا سأتولى طابور الصباح مع بقية الأطفال.

بينما كنا نتجهز لطابور الصباح ظهر خلال الضباب الكثيف السيد المدير وعلى ظهره بعض الحقائب وبمعيته ثلاثة وأربعون طالباً. كأنما ريح ديسمبر استحالت أكثر برودة مع هذا المنظر. تغشى عيون الأطفال خوف وقلق وتوتر. هذه أول مرةٍ يأتون فيها إلى المدرسة بعد أربعة أيام من الهجوم السابق. ضممناهم إلى الطابور وأدّينا مراسيمه. قسّمنا الصفين إلى نصفين، نصف فيه طلاب من عائلة أقداغ، ونصف من عائلة زينار. هكذا

مجموعة أخرى بالحجارة دونما شفقة. وكان الطلاب المتعرضون للهجوم يحاولون حماية وجوههم ورؤوسهم من الحجارة والهرب في نفس الوقت.

***

دلف المدير من باب الصف بحقيبة أوراقه المصنوعة من الجلد الصناعي الأسود. ألقى بطرف عينه نظرة على الطلاب الجالسين. ثم ألقى السلام وجلس على الكرسي مخلوع الظهر. لقد بدأ مزاولة عمله في هذه القرية التي استقر فيها قبل البارحة كمدير ومعلم في نفس الوقت. واليوم يباشر إعطاء درسه الأول، كان قلقاً و متوتّراً بقدر ما كان التلاميذ كذلك.

ومن أول يوم لاحظ عدم حضور الطلاب الذين كان لقبهم (أقداغ) إلى المدرسة، والذين يمثلون نصف الصف. عندما سأل الطلاب عن السبب فاجأه جوابهم. قال أحدهم: "هم لايأتون إلى هذه المدرسة يامعلمي، يخافون. لأنهم قتلوا عمنا. بيننا وبينهم ثأر."

"فهمت، ولكن لاتوجد مدرسةٌ أخرى في القرية."

***

أحاول أن أتدفأ بمدفأة الحطب الموجودة في مقر سكني. رغم مرور ساعةٍ على اشتعالها إلا أني مازلت أشعر بالبرد.

بعد قليل انفتح الباب ودخل مع البرد شخصٌ على عجالة. كان الشخص الذي هرع إلى موقع الحادثة. ملابسه ملطّخة بالطين وعليه آثارٌ من الهجوم الذي حصل. اقترب مني وهو يفرك يديه ببعضهما بعضاً.

"أهلا بك معلمنا محمد، كنت أنتظر قدومك"

قالها وشدّ على يدي مبتسماً. واضح أنه نال نصيبه من هجوم الحجارة. لكنه لا يبدو كالشخص الذي كان وسط العراك الذي دار قبل قليل، فالذي أمامي الآن هادئ وبشوش. عندما رأيته لأول مرةٍ ذكّرني وجهه بوجه يول براينر بالشوارب. رغم أنه مازال في الثلاثينات إلا أن شعره الأسود غلبه البياض وتساقط وجهته اتسعت. كانت له نظرات حاضنة ودافئة لشخص حكيم. عيناه كستنائية اللون تمنح المرء أماناً.

غير ممكن.

كنت محظوظاً أن بيوت القرية بدأت تظهر لي بعد مدة من المسير، سررت لذلك. عند وصولي إلى القرية التي تعطي انطباعاً لمن يراها بأنها مهجورة كان في استقبالي صمت غريب. لا صوت ولا حركة. بيوت بسقوف طينية، وأبوابٌ خشبية وطرقٌ متعرجة مهملة وشوارعٌ متحولة إلى برك متفرقة، ذلك ماكان يصدم الناظر في البداية. والقرية يسيطر عليها جو حمضي. لولا الباب الذي فُتح مصدراً صريراً يفسد الأعصاب لظننت أن لا أحد يعيش هنا. بدا من انفراجة الباب الضيق رجل ذو شارب في أواسط عمره. ضيّق عينيْه الضيقة أصلا وهو يسأل: "هل أنت المعلم الجديد الذي عيّن هنا؟" فأجبته: "نعم" كنت أختصر إجابتي لأن أنفاسي تقطعت من التعب.

قال رافعاً ياقة قبّانه إلى محاذاة أذنيه: "أهلًا بك، لابد أنك متعب. في هذا الموسم وهذه الوحول لاتدخل الباصات إلى داخل القرية. هيّا لأذهب بك إلى سكن المعلم حتى ترتاح."

أخبرني أثناء مشينا إلى المسكن بصوته الذي اخشوشن من شرب السجائر أن العديد من المعلمين لم يرغبوا بالمجيء والعمل هنا رغم تعيينهم ولكن مدير المدرسة بدأ بمباشرة عمله قبل أسبوعين. فرحت لأنني لست وحدي، لعل المدير يهوّن عني همّي قليلاً.

سأقيم في مسكن ملحق بالمدرسة لأول مرة في حياتي. تمرّ بذهني صورة مسكن رمادي سقفه أحمر وجدرانه مبنية بالحجارة المائلة إلى اللون الأبيض. بعد مدة أدركت بأن حدسي لم يخطئ، فهاهو المسكن الذي تخيلته يقف أمامي. إزاء باب البناء رجل وقور طويل ومتأنق ينظر إلى نقطةٍ بعيدة بكل تركيز وكأنه يفكر في شيء، لابد أنه المدير. في تلك اللحظة تماماً سمعنا صوت صرخة حادة لامرأة من بعيد. اختلطت أصوات هتافات أخرى مع هذه الصرخة المتألمة. دون تفكير راح القروي الذي كان بجانبي والرجل الواقف أمام المدرسة يركضان تجاه الصوت بقلق. تقدمت باتجاه المسكن لعدة خطواتٍ حتى أجد مكاناً عالياً أستطيع أن أرى منه مايحدث. تجمّد الدم في عروقي أمام المنظر الذي رأيته؛ كانت مجموعة من الطلاب ترجم

الثالث على تركيا عام 2007 / أضنة -1

حلم الفراشة

علي شان أوجي*

هو، طحن ذلك الغبار في شعرنا

وأضاف على أصداغه بياضاً

إليه...

تكون صباحات الشتاءات الباردة مملّةً في العادة. خاصةً لو كان لون السماء أزرق مائلاً إلى الأخضر وبدت لك الطرق التي يتموج فيها الوحل كستائر ممتدةً بلا نهاية أمامك. في صباح الخامس والعشرين من أكتوبر. كنت محشوراً بين ثقل الحقيبة المكتظة التي تؤلم يدي وبين همّي. والمطر الذي ينزل رذاذاً يكوّن قطراتٍ ثقيلة على شعري. عندها فقط لاحظت مدى انحسار شعري إلى الخلف واتساع جبهتي. نعم، لقد قلّ شعري كثيراً. لكني لست في وضع يسمح لي بالتفكير به الآن. أشعر بجسدي يتصلّب بينما تتجوّل الريح على جلدي كالسكين الحاد. حتى أني أحياناً أغطّي نفسي بالمعطف وأرتجف داخله. مقابلي تقاطع طريق لا أعرفه، منزوٍ ومليء بالحفر. عند هذه المواقف يحيط بالمرء إحساس مبهم. لولا الطين المتجمع ملتصقاً بأسفل حذائي ومثقلاً خطواتي لسلكت الطريق الطويل ولكن هذا

*ولد عام 1973 في قرية باشاق التابعة لقضاء قيزيل تبه الواقع في ماردين. بعد أن أكمل تعليمه الأولي في قيزيل تبه درس تعلم الرسم والفنون اليدوية من جامعة دجلة وتخرج عام 1998. فتح ثلاثة معارض لرسوماته الخاصة، واشترك في أحد عشر معرضًا جماعيًا. حالياً يعلم كمدرس للتكنولوجيا والتصميم في ابتدائية دده قورقوت بأضنة.

حلم الفراشة

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

حصرها في حدود وتصنيفات، وأهم من ذلك أن الأحلام والأفكار الطيبة والجمال لا تقتصر على جغرافيا بعينها، بل تتجاوز كل الحدود وتنتمي لجميع الأقاليم. فالحقائق والمشاعر ليس لها وطن، وطنها بالدرجة الأولى هو قلب الإنسان. بهذا العمل نستطيع أن نقول أننا كأكبر نقابة في تركيا نفتح قلوبنا ونشارككم ما فيها. لأن قلب كل إنسان ينبض بطريقة عالمية. القلب الذي ينبض بالخير ومن أجل الخير قلب عالمي. خاصة في هذا العالم الذي شاعت فيه الأفكار التي لاتتورع عن استخدام أكثر الوسائل وحشية وقبحاً كالحروب والإرهاب، وتحول قطاع الموت العالمي إلى مقدس؛ فإن نشر مثل هذه الأعمال التي تبرز حياة الإنسان ومشاعره النبيلة يعد عملاً نبيلاً وأصيلاً.

ما يميز هذا الكتاب هو بلا شك فرادته. كما أنه تكاد لاتوجد أعمال مشابهة له. ولأنه عمل خاص وفريد فإن نموذجيته وقدرته على الإلهام على درجة موسعة للآفاق. هذا العمل الذي ليس لدينا شك أنه سيحفز كل معلم يقرأه سواء داخل تركيا أو خارجها، وسيمنحه فرصاً وقوالب وحلولاً وإلهامات جديدة. ويُشعره على الأقل بإمكانية النظر للأمور من زاوية ورؤية وطريقة مختلفة.

أشكر بداية جميع كتّاب المشاركات الفائزة في المسابقات وجميع من شاركوا بجهودهم في طباعة العمل وترجمته ونشره.

علي يالتشين

الرئيس العام

EĞİTİM-BİR-SEN

يمكن للكلمات أن توفيها حقها أثرٌ عظيمٌ و محسوسٌ لا يوصف.

وإيماناً من نقابة موظفي التربية والتعليم بأن للمذكرات تأثيراً على نفسية الإنسان وإدراكه وتصرفاته، فقد دأبت على تنظيم مسابقة لمذكرات المعلمين منذ عام 2005، وقد توافدت آلاف المشاركات المرسلة إلى كل مسابقة، وهي تظهر لنا مقدار ما لدى المعلمين من الإنتاجية والعطاء. يتم تقييم هذه الآلاف من المشاركات بواسطة هيئة مكلفة متخصصة بذلك وفق أدق معايير التقييم، تحدد على إثرها المشاركات الفائزة.

إن الكتاب الذي هو بين أيديكم يحتوي على المشاركات الفائزة في المسابقات المنظمة بين عامي 2005 و2008، مع بعض المشاركات الأخرى الفائزة بجوائز هيئة التقييم. فضلاً عن المشاركات الفائزة في مسابقة "الأثمان المبذولة لن تنسى" على شرف رئيسنا العام المؤسس محمد عاكف إنان. بهذا خرج هذا العمل العميق الكثيف كثير الأبعاد إلى النور. مع القراءة سنلاحظ أن مشاركة هذه المذكرات هي بأهمية مشاركة قليل الماء والخبز.

كل نصّ هنا هو نصّ أدبي جميل. أبارك وأهنئ المعلمين على مواهبهم التي نجحت في لمس قلوبنا والتأثير فيها. أشكرهم على مشاركتهم لتجاربهم وذكرياتهم التي تساعد وبلا شك في توسيع آفاق دنيانا، وتنير آفاقها بالخصال الإنسانية العالية من المحبة والفضيلة والتضحية والوفاء والثقة والأمل والثبات والحماس والخيال. أحيانًا ما تكون النواقص في حياتنا زوائد في حياة غيرنا. وقد يكون ما وجدناه هو ما يبحث عنه غيرنا، كما قد تكون مشاكلنا حلولهم. فالحياة في انسيابها وعمليتها توزع كل هذا وتوازنه.

لقد أهدينا هذا الكتاب إلى جميع المعلمين الذين تم تعيينهم حديثاً. فكان لذلك أثر وانطباعات إيجابية. لذلك، وللأسباب التي ذكرناها هنا رغبنا في تجاوز الحدود وترجمته ونشره باللغة العربية أيضاً حتى يضيف ما عشناه من تجارب حلوة ومرة إلى خبرة إخوتنا في الإنسانية، وشركائنا في القدر، ويساعد في إظهار الخير والجمال. لأن القيم الإنسانية العالية واسعة لايمكن

تقديم

إن مجال النشاط الأساسي لنقابة موظفي التربية والتعليم Eğitim-Bir-Sen التي أُسست عام 1992 بمبادرة من الكاتب والمعلم وأكثر شعراء تركيا تميّزاً، محمد عاكف إنان وأصدقائه: هو التعامل مع جميع أنواع المشاكل التي يواجهها المعلمون، إلى جانب اهتمام المؤسسة بالمعرفة وما يهم الإنسان من قيم ومهارات؛ فإن طاقم المسؤولين برئاسة قائدنا المؤسس المهتم بالفكر والثقافة والفن قد أضافوا إلى مهمات النقابة المتمثلة في التعاضد والتعاون المهني بعداً ثقافياً، فلم تهمل نقابتنا الوقائع الاجتماعية والثقافية، بل كانت تلعب في كثيرٍ منها دوراً مهماً، تارة كمشارك وتارة كمنظم، وتارة كمبادر، وستستمر في فعل ذلك.

إن اهتمامنا الجاد بنظام التعليم وبالمعلمين الذين طالما تم إهمالهم جعلنا نضطر إلى أن ننظر إلى المشاكل من زوايا وأعماق مختلفة؛ فالتعلم ليس شيئاً يخص الطلبة فقط، فحتى المعلمون الذين لهم مستويات إدراك وتواصل ومعرفة مختلفة عليهم أن يستمروا في تجديد أنفسهم دائماً. ومن أجل تحقيق النجاح المنشود لنظام التعليم فإن من المهم للمعلمين أن يشاركوا بأفكارهم وآرائهم وتوقّعاتهم وانتقاداتهم. يجب ألّا ننسى أن التعليم يتعلق بالإنسان، وهو موجّه له ومن أجله. وإن تنشئة الإنسان عمل مجهد وشاق ولكنه في نفس الوقت عمل مشرف ونبيل. لأن المعلم يمنح المتعلم وقته وصبره وحبه ومُثُله وعزمه. يزرع الآمال والأحلام في قلوب الطلاب ويرويها ويرعاها حتى تكبر وتتكاثر.

لكل معلم خبرات شخصية خاصة لا تحصى في العزيمة والصبر والوفاء والجفاء. كل واحدة من هذه التجارب والخبرات هي فريدة وخاصة. ومجموع هذه التجارب المعاشة هي دروس الحياة التي نتلقاها ونعطيها في حياتنا، لذلك فإن مشاركة الذكريات في هذا الخصوص أمر مهم. في أحيان كثيرة يكون للذكريات التي تحوي كمية عظيمة من المشاعر والدروس التي لا

تقديم

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

اللقالق تمضي نحو الجنوب 142
سكاكر الضيوف 151
نبتة الجعيدة 157
لدي اعترافٌ لك 166
القلب أيضاً يفكر 171
قلوبٌ موجوعة تتذكر الماضي... 179
تلة الأحلام الزرقاء 191
ليتني كنت يدك الأخرى 199
الصرخة في وادي قلبي 207
نحو فتح القلوب 217
في البدء بردت أحلام طفل 227
أي شمعة تنتظر بينما تحترق 237
أن تكون سحابة 247

تقديم 7
حلم الفراشة 11
المعلم رفعت 23
مدّ يدك إليّ يا أبي! 37
الأيدي الممدودة نحو السماء 45
حلوى التفاح 57
الصور التي في قلبي 69
ثمة ربيعٌ وراء نفق جلدي قيصيق 79
الرجل القادم مع المطر 88
أمسية أيلول 99
متحف الطيور القديمة 105
قطرة حليب 116
أنا الفراشة التي تركتها شرنقتها قبل أن تكتمل 131
عاشورية سوداء 137

المحتويات

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

منشورات نقابة موظفي التربية والتعليم : 86

سلسلة الأداب : 10

المالك : باسم نقابة موظفي التربية والتعليم (EĞİTİM-BİR-SEN)
الرئيس العام علي يالتشين

رئيس التحرير : شكرو كولوكسا (نائب الرئيس العام)

هيئة التحرير : لطيف سالفي
رمضان تشاكرجي
مدحت سفين
شكرو كولوكسا
حسن يالتشين يايلا
أتيلا اولجوم

تصميم الجرافيك : سليم أيتكين
طباعة : هرمس اوفست 32 34 384 312 90+
العدد : 1000
الطبعة الأولى : 2018/ أنقرة

العنوان : Oğuzlar Mah Av. Özdemir Özok Sok. No: 5
Balgat- Ankara
الهاتف : 28 65 230 312 90+
الفاكس : 06 23 231 312 90+
صفحة الويب : www.ebs.org.tr
البريد الالكترونى : etu@egitimbirsen.org.tr

حلم الفراشة

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم

طبعة موسعة

حلم الفراشة

الأعمال الحائزة على جائزة مسابقات ذكرى محمد عاكف إنان

نقابة موظفي التربية والتعليم